أنطون تشيخوف

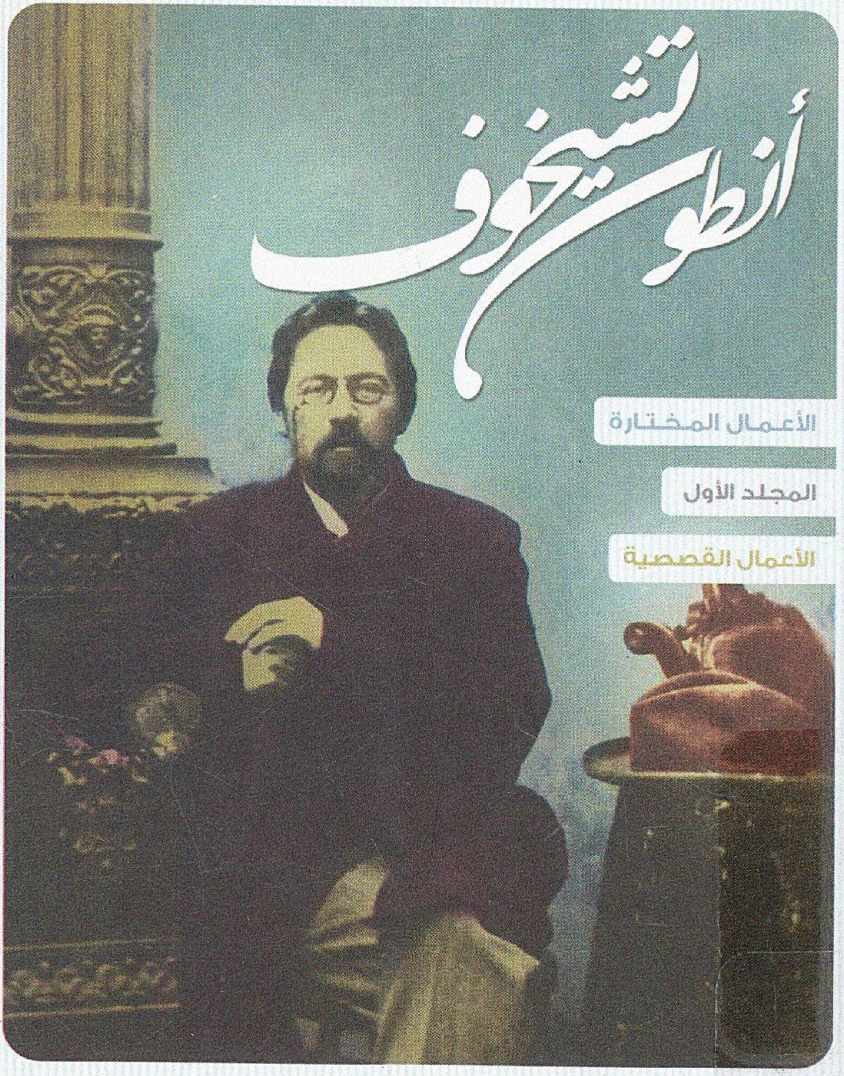

الأعمال المختارة

المجلد الأول

الأعمال القصصية

مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم
MOHAMMED BIN RASHID
AL MAKTOUM FOUNDATION

دار الشروق

أنطون تشيخوف

الأعمال المختارة

المجلد الأول

الأعمال القصصية

دار الشروق

أنطون تشيخوف

الطبعـة الأولى ٢٠٠٩

رقم الإيداع: ٢٢٧٣٨/ ٢٠٠٧
ISBN 978-977-09-2212-4

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

٨ شارع سيبويه المصرى
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧(٢٠٢)
e-mail: dar@shorouk.com
www.shorouk.com

رسالة مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

عزيزى القارئ

فى عصر يتسم بالمعرفة والمعلوماتية والانفتاح على الآخر، تنظر مؤسسة محمد ابن راشد آل مكتوم إلى الترجمة على أنها الوسيلة المثلى لاستيعاب المعارف العالمية، فهى من أهم أدوات النهضة المنشودة، وتؤمن المؤسسة بأن إحياء حركة الترجمة، وجعلها محركًا فاعلاً من محركات التنمية واقتصاد المعرفة فى الوطن العربى، مشروع بالغ الأهمية ولا ينبغى الإمعان فى تأخيره.

فمتوسط ما تترجمه المؤسسات الثقافية ودور النشر العربية مجتمعة، فى العام الواحد، لا يتعدى كتابًا واحدًا لكل مليون شخص، بينما تترجم دول منفردة فى العالم أضعاف ما تترجمه الدول العربية جميعها.

أطلقت المؤسسة برنامج «ترجم»، بهدف إثراء المكتبة العربية بأفضل ما قدّمه الفكر العالمى من معارف وعلوم، عبر نقلها إلى العربية، والعمل على إظهار الوجه الحضارى للأمة عن طريق ترجمة الإبداعات العربية إلى لغات العالم.

ومن التباشير الأولى لهذا البرنامج إطلاق خطة لترجمة ألف كتاب من اللغات العالمية إلى اللغة العربية خلال ثلاث سنوات، أى بمعدل كتاب فى اليوم الواحد.

وتأمل مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم فى أن يكون هذا البرنامج

الاستراتيجي تجسيدا عمليًا لرسالة المؤسسة المتمثلة في تمكين الأجيال القادمة من ابتكار وتطوير حلول مستدامة لمواجهة التحديات، عن طريق نشر المعرفة، ورعاية الأفكار الخلاقة التي تقود إلى إبداعات حقيقية، إضافة إلى بناء جسور الحوار بين الشعوب والحضارات.

للمزيد من المعلومات عن برنامج «ترجم» والبرامج الأخرى المنضوية تحت قطاع الثقافة، يمكن زيارة موقع المؤسسة www.mbrfoundation.ae

عن المؤسسة

انطلقت مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم بمبادرة كريمة من صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم نائب رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي، وقد أعلن صاحب السمو عن تأسيسها، لأول مرة، في كلمته أمام المنتدى الاقتصادي العالمي في البحر الميت - الأردن في أيار/ مايو ٢٠٠٧. وتحظى هذه المؤسسة باهتمام ودعم كبيرين من سموه، وقد قام بتخصيص وقفٍ لها قدره ٣٧ مليار درهم (١٠ مليارات دولار).

وتسعى مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، كما أراد لها مؤسسها، إلى تمكين الأجيال الشابة في الوطن العربي، من امتلاك المعرفة وتوظيفها بأفضل وجه ممكن لمواجهة تحديات التنمية، وابتكار حلول مستدامة مستمدة من الواقع، للتعامل مع التحديات التي تواجه مجتمعاتهم.

المحتويات

مقدمة ١١
رسالة إلى جارى العالم ٢٢
فرحة ٢٧
وفاة موظف ٣٠
البدين والنحيف ٣٤
الحرباء ٣٧
حلة النقيب ٤٢
المصيبة ٥١
جهاز العروس ٥٨
دموع لا يراها العالم ٦٦
مع سبق الإصرار ٧٣
الكبش والآنسة ٧٩
ابنة البيون ٨٣
المغفلة ٨٩
القناع ٩٣
الصول بريشيبييف ١٠١
الصبى الشرير ١٠٧
وحشة ١١١
مزحة ١١٩

فانكا ١٢٥
هرج ١٣٠
الذئب ١٤١
عند زوجة رئيس النبلاء ١٥١
العازف الأجير ١٥٧
تواريخ حية ١٦٤
زودها ١٦٨
الدبلوماسى ١٧٤
الخطيب ١٨٠
تحفة فنية ١٨٥
أجافيا ١٩١
المتمارضون ٢٠٦
السعيد ٢١٠
أنيوتا ٢١٩
كلخاس ٢٢٦
البربوط ٢٣٥
الصياد ٢٤٣
فى البيت الريفى ٢٥٠
توافه الحياة ٢٥٨
الأعداء ٢٦٦
مغنية الكورس ٢٨٤
فى البيت ٢٩٢
الصبيان ٣٠٥
المعلم ٣١٥

فولوديا ٣٢٥
الزوج ٣٤٣
الأطفال ٣٥٠
الهارب ٣٥٩
بعد المسرح ٣٧٠

مقدمة

عندما تولد الموهبة

حين طُلب من تشيخوف كتابة سيرة ذاتية لنشرها فى دليل عن خريجى كلية الطب بجامعة موسكو خلال الفترة من ١٨٨٤ إلى ١٨٩٤ رد الكاتب بأنه «مصاب بداء الخوف من السير الذاتية» وأضاف «إنه لعذاب حقيقى أن اقرأ أى تفاصيل عنى . . فضلا عن كتابتها بنفسى للنشر»، وأرفق بهذه الرسالة سيرة ذاتية قصيرة للغاية عرض فيها رأيه حول العلاقة بين الأديب والعلم، أكثر مما كتب عن تفاصيل حياته الشخصية أو إبداعه.

وقد راودنى نفس الإحساس المعذب عند كتابة هذه المقدمة عن تشيخوف بمناسبة صدور هذه المجموعة من أعماله عن «دار الشروق». فكيف تكتب عن مبدع كبير معروف على نطاق العالم كله منذ بزوغه فى سماء الأدب الروسى فى ثمانينيات وتسعينيات القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين حتى هذه الأيام؟ وكيف تقدمه للقراء العرب ومنهم من يعرف عن أدبه وحياته الكثير من التفاصيل؟ وما العمل من أجل ألا تخرج هذه المقدمة فى صورة تقريرية تتناول حياته وأدبه بنبرة البحث العلمى الجافة، أو أن تجنح إلى الاعترافات العاطفية بالحب لهذا الفنان المدهش وأدبه الأكثر إدهاشا؟ وأخيرا قررت أنه ليس هناك ما هو أفضل من الدرب المعهود والطريق المطروق، وهو الحديث عن تشيخوف الفنان وتشيخوف الإنسان، الأمر الذى يتيح لنا أن نجمع بين الموضوعية والذاتية فى سبيكة واحدة، إذا حالفنا التوفيق بطبيعة الحال.

خرج أنطون تشيخوف إلى الدنيا فى ٢٩ يناير ١٨٦٠، ورحل عنها فى ١٥ يوليو ١٩٠٤، وخلال هذا العمر القصير (٤٤ سنة) والعمر الأدبى الأقصر (٢٤ سنة) ترك لنا إرثا أدبيّا خالدا من القصص القصيرة والروايات والمسرحيات التى أحدثت انقلابا حقيقيا فى القصة القصيرة والأدب المسرحى. وليس غريبا، لهذا السبب، أن يظل تشيخوف معاصرا حتى اليوم، وأن يحاول المخرجون فى شتى دول العالم إعادة قراءة مسرحياته الشهيرة وحل ألغازها عاما بعد عام على خشبات المسارح، التقليدية والتجريبية، الكلاسيكية منها والطليعية.

كان أنطون (اسم التدليل: أنطوشا) الابن الثالث فى عائلة التاجر الصغير بافل تشيخوف، الذى كان يملك حانوت بقالة فى مدينة تجانروج على شاطئ بحر آزوف فى جنوب روسيا. وقد سبقه إلى الدنيا أخوه ألكسندر (الذى أصبح فيما بعد أديبًا) ونيكولاى (الذى أصبح مصورا) وتلاه إيفان (مدرس) وميخائيل (أديب) وأخته ماريا التى عملت مدرسة وكانت موهوبة فى التصوير وأصبحت اليد اليمنى للكاتب فى حياته وحافظت على تراثه بعد مماته.

لم يعش أنطوشا طفولة سعيدة فى هذه الأسرة الموهوبة، فقد كان الأب يجبره مع إخوته على العمل فى الحانوت، فكان يقف بالساعات على قدميه فى الحانوت البارد مغالبا الرغبة فى اللهو والنوم. وفى أيام الآحاد والأعياد الدينية - وما أكثرها - كان الأب يجبره على الغناء فى كورال الكنيسة، مصاحبا طقوس الصلوات المضنية الطويلة. ولهذا قال تشيخوف فيما بعد «فى طفولتى لم تكن لدىَّ طفولة». وانتهت هذه الطفولة الشقية نهاية تعيسة. فقد أفلس الأب، وهرب سرا منْ الدائنين إلى موسكو. ثم لحقت به عائلته ما عدا أنطون، الذى بقى ليكمل تعليمه الثانوى، وظل وحيدا طوال ثلاث سنوات يكسب رزقه بإعطاء الدروس الخاصة، ويقتصد

من هذا الكسب الضئيل بعض المال ليرسله إلى موسكو مساعدة لوالديه وإخوته.

فى عام ١٨٧٩ أنهى أنطون تشيخوف المدرسة ورحل إلى موسكو حيث التحق بكلية الطب بجامعة موسكو وتخرج فيها عام ١٨٨٤ ومارس مهنة الطب فترة قصيرة.

وقد تفتحت موهبة الأديب وهو بعد فى الصف الأول بكلية الطب، فشرع فى كتابة الفكاهيات والقصص القصيرة الساخرة والمشاهد المضحكة ونشرها فى الصحف والمجلات الأسبوعية الفكاهية فى موسكو وبطرسبرج وكان يوقعها بأسماء مستعارة (أشهرها: أنطوشا تشيخونتى). ويمكن تأريخ البداية الإبداعية لتشيخوف بعام ١٨٨٠ الذى نشرت فيه قصته القصيرة «رسالة إلى جارى العالم» ثم ظهرت أول مجموعة قصص قصيرة «حكايات ملبومينا» (عام ١٨٨٤)، ثم توالت المجموعات: «قصص منوعة» (١٨٨٦)، «فى الغسق» (١٨٨٧)، «أحاديث بريئة» (١٨٨٧)، «قصص قصيرة» (١٨٨٨) «أناس عابسون» (١٨٩٠).

يشير النقاد والمؤرخون إلى أن فترة الثمانينيات (حتى بداية التسعينيات) من القرن التاسع عشر كانت من أشد الفترات ظلاما ورجعية فى تاريخ روسيا الحديث. فقد فشل مشروع الإصلاح الذى تبناه القيصر ألكسندر الثانى، عندما أصدر مرسوم تحرير عبيد الأرض (الفلاحين) عام ١٨٦١، وأفلست حركة «الشعبيين» الثورية ودخلت طريقا مسدودا فتبنى جناحها المتشدد أسلوب الاغتيال الفردى. وبالفعل اغتيل القيصر ألكسندر الثانى عام ١٨٨١، وبالطبع لم يؤد ذلك إلى تحسين الأوضاع، بل زادها سوءا، وتراجعت السلطة حتى عن الحد الأدنى من الحريات الذى كان موجودا، وتوالت الإجراءات القمعية ضد الحكم المحلى (الزيمستفو) فى الأرياف والأقاليم فوضع تحت إشراف المحافظين المباشر وألغى مبدأ الانتخاب فيه، وفرضت رقابة صارمة على الصحف والمجلات بصدور قانون النشر الجديد

عام ١٨٨٢ الذى أباح إغلاق المجلات بسبب اتجاهها العام وليس فقط بسبب مقال محدد، وألزمها بإبلاغ السلطات بالأسماء الحقيقية للكتاب الذين ينشرون بأسماء مستعارة. وألغى الاستقلال النسبى الذى تمتعت به الجامعات، ووضعت القيود على دخول المدارس الحكومية لأبناء الفقراء والفئات الدنيا. وفى عام ١٨٨٤ أغلقت مجلة «مذكرات وطنية» التى كان يرأس تحريرها الكاتب الروسى الساخر الكبير سالطيكوف ـ شيدرين والتى كانت منبر الكتاب الديمقراطيين الروس.

فى هذه الفترة العصيبة الخانقة بدأ «أنطوشا تشيخونتى» فى نشر قصصه واسكتشاته المرحة وفكاهياته «البريئة» اللاهية فى المجلات الفكاهية المعروفة آنذاك: «الجرادة» و«المنبه» و«شظايا» التى كانت لا تستهدف سوى إضحاك القراء وتسليتهم وتطلب من كتابها الالتزام بهذا الهدف ذاته. ولكن موهبة تشيخوف كانت أكبر من أن تبقى أسيرة هذه القيود. وشيئا فشيئا تبرز فى قصصه القصيرة الفكاهية جوانب السخرية اللاذعة من عبدة المناصب والألقاب والمنافقين («البدين والنحيل»)، («الحرباء») وذوى الطباع الفظة الذين يستعذبون إهانة الضعفاء («القناع»)، («الكبش والآنسة») وضعاف النفوس الذين يستسلمون لمصائرهم دون محاولة احتجاج («المغفلة»)، («أنيوتا»). وتمتد سخرية تشيخوف إلى المسحوقين أنفسهم، فهو يسخر من «العبيد الصغار» الذين يجدون قمة اللذة والسعادة فى إهانة السادة وإذلالهم لهم وقسوتهم عليهم. («حلة النقيب»)، والذين يموتون خوفا من غضب الرؤساء («وفاة موظف»)، وأصحاب النفوس الصغيرة التافهة الذين يفرحون لنشر أسمائهم فى الصحف حتى ولو كان ذلك بسبب دهس عربات الخيل لهم («فرحة»)، والشخصيات المشوهة، وليدة المجتمع الظالم الذى يفرخ «الجواسيس المتطوعين» الذين يريدون «منع كل شىء» و«الإبلاغ عن كل الناس» («الصول برشيبيف»). والشرطى المتقاعد («حالات جنون العظمة») الذى يحبس القطط والكلاب

والدجاج فى صناديق لفترات محددة، ويسجن البق والصراصير والعناكب فى زجاجات ويحاول إقناع أهل بلدته بدخول الحجز مقابل نقود!

وفى هذه المرحلة تتجلى النبرة الوجدانية الحزينة فى قصص تشيخوف القصيرة عن أحزان «الغلابة» التى لا يريد أن يسمعها أحد («وحشة») ومآسى الصناع المهرة الذين تقضى الفودكا على كل ما هو طيب فيهم وتمضى حياتهم كأنها فى غيبوبه («المصيبة»). ويرسم تشيخوف لوحة إنسانية عريضة لشتى النماذج البشرية من مختلف درجات السلم الاجتماعى، ويبلغ بها مستوى عاليا من التعبيرية والرمزية كما فى قصة «الرجل المعلب» (١).

كان تصوير تشيخوف للتشوهات النفسية والأخلاقيات المتردية فى تلك الفترة (ثمانينيات القرن) يفضى بالقارئ مباشرة إلى استنتاج واحد: أن كل هذه الفظاظة، وهذا النفاق والابتذال والضعة والطغيان.. إنما هى ثمرة الأوضاع الاجتماعية المختلة التى يكرسها النظام القائم ويسبغ عليها ثياب الشرعية والديمومة. ولاعجب إذاً أن تنتبه الرقابة «اليقظة» إلى هذه المعانى فتمنع صدور أولى مجموعات الأديب القصصية، وتواصل تدخلها فى كل ما يكتب.

ويجذب الأديب اهتمام القراء وزملائه بتحفته الأولى «السهوب» فى جنس الرواية القصيرة (النوفيل) والتى ظهرت عام ١٨٨٨ مؤذنة بشق طريق إبداعى جديد لموهبة كبيرة، حيث لا تلعب الأحداث أو الحبكة الروائية الدور الرئيسى، بل يلعبه المزاج العام للقصة، ولوحات السهوب الشاسعة بآفاقها اللا محدودة وسحرها الخاص، وكأنما يرمز الكاتب إلى وطنه روسيا وقوته وجماله، وتطلعه إلى مستقبل أسعد. ويمتزج التفاؤل

---

(١) القصص المشار إليها فى هذه المقدمة مترجمة فى هذه المجموعة باستثناءات قليلة - **(المعرب)**.

والفرحة بالحزن العميق الأغوار، وترن النبرة الوجدانية كموسيقى حزينة خافتة مصاحبة للسياق العام للرحلة عبر هذه السهوب المترامية. فلا تدرى هل أنت أمام منظر طبيعى رسمه مصور بارع أم سيمفونية صاغها موسيقار مبدع!

ولعل موهبة تشيخوف فى مرحلة إبداعه الأولى (١٨٨٠ ـ ١٨٩٣) لم تتجل بهذه القوة والعمق كما تجلت فى روايته التالية ل «السهوب» («حكاية مملة») التى صدرت عام (١٨٨٩) والتى طرح فيها بقوة فكرة اللامبالاة وخطرها على الروح الإنسانية، واضعا فى بؤرة الرواية أستاذا شهيرا فى الطب بجامعة موسكو، يراجع حياته بعد إصابته بالسرطان وتقاعده. لقد أثارت الرواية إعجاب الكثيرين. وكتب الأديب الألمانى الحائز على جائزة نوبل توماس مان عنها:

«إنها شىء غير عادى تماما، شىء ساحر، لن تجد له مثيلا فى الأدب كله. فقوة تأثيرها وميزتها فى نبرتها الخافتة الحزينة. إنها حكاية تثير الدهشة على الأقل لتسميتها «بالمملة» فى حين أنها تهزك هزا. وعلاوة على ذلك فقد كتبها شاب لم يبلغ الثلاثين من عمره. ورويت بأقصى نفاذ على لسان عالم عجوز، ذى شهرة عالمية»

فى عام ١٨٩٠ يقرر أنطون تشيخوف القيام برحلة شاقة محفوفة بالخطر من موسكو فى الغرب إلى جزيرة سخالين فى أقصى شرق روسيا عبر سيبريا كلها، قاطعا عشرة آلاف كيلو متر بالقطار والسفينة والقوارب وخيول البريد والعربات الصغيرة، متعرضا لمخاطر الغرق والبرد والضياع لكى يصل إلى جزيرة سخالين، «أرض المعاناة التى لا تطاق» ـ كما قال عنها ـ ويستقصى أحوال السجناء والمنفيين هناك ليقدم بعد ذلك دراسة سوسيولوجية أدبية مذهلة بعنوان «جزيرة سخالين» (١٨٩٣ ـ ١٨٩٤). وخلال هذه الرحلة أصيب تشيخوف بمرض الدرن الرئوى الذى كان السبب فى رحيله المبكر عن العالم.

ويمكن القول أن هذه الرحلة الطويلة (٩ أشهر) والبؤس والفظاعة التى رآها تشيخوف ولمسها بنفسه فى سجون ومنافى تلك الجزيرة التعيسة وأثمرت روايته القصيرة «عنبر رقم ٦» (١٨٩٢) قد هزت كيان الكاتب وغيرت مجرى حياته. فعندما عاد إلى موسكو قرر الانتقال إلى الريف، واشترى عام ١٨٩٢ ضيعة «ميليخوفو» على بعد ٧٠ كيلو مترا من موسكو، وشرع فى غرس البستان وترتيب البيت وبناء المرافق، وأمضى هناك سبع سنوات قام خلالها بعلاج الفلاحين ومكافحة الكوليرا وبناء المدارس على حسابه الخاص وجمع التبرعات لمنكوبى المجاعة من الأطفال، وبالطبع زاول الكتابة. وفى هذه الفترة وما بعدها حتى وفاته (١٩٠٤) أبدع تشيخوف أعمالا رائعة مثل «رواية رجل مجهول» و«الراهب الأسود» و«الطالب» ورواياته القصيرة الجميلة «حياتى» و«ثلاث سنوات» و«المنزل ذو العلية» ورواية «الفلاحون» وقصة «السيدة صاحبة الكلب» و«حبوبة» وآخر قصصه «العروس»

وفى عام ١٨٩٨ اضطر تشيخوف إلى ترك بيته وضيعته فى «ميليخوفو» لاشتداد وطأة المرض عليه، وانتقل إلى شبه جزيرة القرم على البحر الأسود لجوها الدافىء المشمس، واشترى قطعة أرض قرب مدينة «يالطا» وشيد فيها منزلا صغيرا أبيض على مقربة من البحر، وغرس بستانا جديدا وضع غرساته كل رقته وحنانه وحنينه إلى موسكو الحبيبة. وككل شىء تلمسه أنامل تشيخوف تحولت تلك البقعة الجرداء المقفرة إلى واحة صغيرة يانعة جذبت إليها الوافدين الكبار إلى القرم وفى مقدمتهم عميد الأدب الروسى آنذاك ليف تولستوى، ونجمه البازغ مكسيم جوركى، والكتاب الجدد: كوبرين وكورلنكو وبونين وغيرهم من الفنانين والأدباء البارزين.

فى هذه الفترة أيضا قدم أنطون تشيخوف للمسرح أعماله المعروفة «النورس» و«الخال فانيا» و«الشقيقات الثلاث» و«بستان الكرز» وغيرها من المسرحيات الأقل شهرة والأعمال ذات الفصل الواحد والفودفيل.

ورغم ذلك كانت «يالطا» بالنسبة له سجنا ومنفى، كما قال. وكان يتابع بالرسائل والبرق أخبار مسرحياته المعروضة فى موسكو ويصارع المرض وحده فى البيت البارد المظلم فى ليالى الشتاء برباطة جأش نادرة وأمل فى المستقبل؛ رغم أنه ـ كطبيب ـ كان يدرك دنو أجله المحتوم.

وفى يونيو ١٩٠٤ تدهورت صحته بشدة فسافر إلى ألمانيا للعلاج فى منتجع «بادن فيلر» حيث وافته المنية فى ١٥ يوليو ١٩٠٤، وكانت آخر كلمات لفظها قبيل وفاته: «Ich sterbe...» (إننى أموت ـ بالألمانية)..

جاء تشيخوف الفنان إلى دنيا الأدب حاملا رؤية جديدة ترتدى ثياب الفكاهة والسخرية، ومفهوما جديدا عن «المضحك» لا باعتباره شيئا كوميديا، بل باعتباره تراجيكوميديا؛ يجمع بين البسمة والسخرية والحزن، وهذا ما ميزه عن بقية الكتاب الروس. أما المأساة عنده فليست فى وقوع شىء فاجع خارق، بل فى عدم وقوع أى شىء وبقاء الأمور كما هى عليه! إنه يقدم أبطاله دون تزويق أو ستر لعيوبهم وضعفهم لأنه يؤمن بأن «الإنسان سيصبح أفضل عندما تظهرون له ما هو عليه» دون استدرار للشفقة أو اللجوء إلى «الكذب السامى». من هنا يتسم أسلوب تشيخوف بالموضوعية الصارمة، التى قد تبدو نوعا من البرود تجاه مصائر الأبطال. ويبتعد تشيخوف عن العبارات الطنانة والميلودراما، ويلتزم التحفظ الذى لا يفصح عن موقف الكاتب للوهلة الأولى، لأنه يعتبر ذلك أكثر إقناعا للقارئ، فقد كان تشيخوف يحترم عقل القارئ ويثق فى فطنته. ويهتم تشيخوف اهتماما بالغا بالتفاصيل كمفتاح للإيجاز والتكثيف السردى، وهو الإنجاز الكبير الذى حققه تشيخوف فى مجال الأسلوب. وهذه التفاصيل قد يرسم القليل منها صورة كاملة للشخصية وقد تبلغ بالعمل الأدبى درجة التوتر النفسى والشحن العاطفى التى يريد الكاتب إيصالها

إلى القارئ، ولذا يرقى بالتفصيل أحيانا إلى مستوى الرمز (كالنورس المقتول فى مسرحية «النورس»).

فليس غريبا إذًا أن يقول تولستوى: «إن تشيخوف هو بوشكين فى النثر.. إنه فنان لا مثيل له» ويضع تولستوى العظيم يده على مفاتيح لغز تشيخوف كمجدد فيقول: «بفضل صدقه صاغ تشيخوف أشكالا كتابية جديدة كل الجدة، بالنسبة للعالم كله، على ما أعتقد، أشكالا لم أجد لها مثيلا فى أى مكان». وعن فكاهية تشيخوف، وأسلوبه عامة، يقدم تولستوى هذا التحليل المدهش: «كان تشيخوف يجيد إلى درجة الكمال، تحويل الموضُوع كوميديًا، وتنويع الأشكال الفكاهية المؤثرة. لقد كان بارعا فى اختراع المواضيع وتقديم بدائل لا نهائية للموضوع الواحد - وكان ينوع فى استخدام الأشكال البنيوية المضغوطة.. لقد كان يعرف فن الصورة الموجزة واستخدام التفاصيل بشكل معبر.. وكان يلجأ على نطاق واسع إلى الحوار الحى الموحى مع التعبيرات الفكاهية للغة الكلام الدارج دون أن يهرب من الكاريكاتير المركز، مستخدما بكثرة المبالغات والألقاب الساخرة..»

كان تشيخوف يتوخى البساطة والدخول مباشرة فى الموضوع، ويكره البناء المعقد للعمل الأدبى وكان شعاره «كلما كان الموضوع أبسط كان ذلك أفضل»، ولكن ذلك لم يكن على حساب عمق التحليل والتعبيرية السيكولوجية وبروز ملامح الشخصيات والأماكن، حتى شاع تعبير «الشخصية التشيخوفية» عندما تصادف فى الحياة شخصية تكاد تكون نسخة حية من شخصيات روايات تشيخوف وقصصه، وكأنما أصبح المرجع فن تشيخوف لا واقع الحياة!

فى أعمال تشيخوف الروائية والقصصية والدرامية تحس - رغم تحفظ الكاتب و«حياديته» - بتعاطفه العميق مع شخصياته المعذبة وأبطاله المهانين

الذين سحقتهم الحياة بابتذالها وكآبتها، وبعطفه عليهم حتى وهو يدين ضعفهم ورذائلهم. ولم يقتصر تشيخوف فى إبداعه على تصوير المثقفين، الأقرب إليه روحيا واجتماعيا، بل هبط إلى القاع، فقدم لنا نماذج بشرية من الفلاحين والتجار والعمال والحرفيين والأطفال ولم يقسم أبطاله إلى أشرار وأخيار (فتحت تأثير الصراع النفسى الداخلى والهزات الأخلاقية تتبدل النفوس فتسمو أو تنهار أو تتبادل المواقع (رواية «المبارزة») وفى هذا التعاطف العميق مع البشر يكمن سحر تشيخوف الخاص الذى يجعل منه معاصرا بعد رحيله ومحببا إلى كل القلوب.

لا شك أن أنطون بافلوفيتش تشيخوف عبقرية مبدعة «لا مثيل لها» كما قال تولستوى، لكنها لم تظهر من الفراغ. لقد عاش تشيخوف فى وقت واحد مع ليف تولستوى العملاق الذى أثر فيه تأثيرا كبيرا فى مرحلة معينة، وكان من أساتذته معاصرة سالطيكوف ـ شيدرين أعظم الكتاب الروس الساخرين. وأحاطت به مجموعة من الكتاب الموهوبين الذين ذاعت شهرتهم فى حياة تشيخوف (جوركى وبونين وكورلنكو وكوبرين وغيرهم). وكان من أصدقائه أكبر مصورى ذلك العصر ليفيتان وريبين، وأبرز الموسيقيين الروس تشايكوفسكى ورحمانينوف وأكبر مخرج ومنظر عرفه المسرح الروسى والسوفيتى: قسطنطين ستانسلافسكى وزميله نيميروفتش ـ دانتشنكو. وإلى وسادة الأدب الروسى الوثيرة.. التى صنعها بوشكين وجوجول وليرمنتوف وتورجينيف ودوستويفسكى.. أسند أنطون تشيخوف ظهره، مستمدا من هذا الإرث الثقافى الضخم قوته الإبداعية الفذة.

وأخير لا نجد أفضل من كلمات الأديب المعاصر لتشيخوف ـ ألكسندر كوبرين ـ لنختم بها هذه المقدمة: «.. وبالفعل.. فسوف تمر الأعوام والقرون. وسوف يمحو الزمن ذكرى آلاف الآلاف من الأحياء

الآن، لكن الأجيال القادمة، التى كان تشيخوف يحلم بسعادتها بذلك الحزن الساحر، سوف تردد اسمه بعرفان، وبأسى خافت على مصيره..».

د. أبو بكر يوسف

القاهرة ـ يونيو ٢٠٠٧

رسالة إلى جارى العالم

قرية بلينى ـ سبيدنى [1]

جارى العزيز مكسيم . . (نسيت كيف تدعون باسم أبيكم فأرجو سماحكم الكريم) [2] . اعذرونى واغفروا لهذا العجوز القديم ولهذه النفس البشرية الحمقاء إذ أتجرأ وأزعجكم بتمتمتى الكتابية البائسة هذه. ها قد مر عام بطوله منذ أن تفضلتم فحللتم بهذا الجزء من العالم الذى نحن فيه، ونزلتم إلى جوارى، أنا الإنسان الضئيل، ومع ذلك ما زلت لا أعرفكم وأنتم لا تعرفوننى أنا الجرادة البائسة. فلتسمحوا لى أيها الجار النفيس، ولو عن طريق هذه الهيروغليفات العجوز، أن أتعرف بكم، وأن أشد فى الفكر على يدكم العالمة وأهنئكم بالقدوم من سانت بطرسبرج إلى قارتنا غير الجديرة، المسكونة بالموجيك والناس الفلاحين، أى بعنصر العامة. ومن زمان وأنا أبحث عن مناسبة للتعرف بكم، وكنت متعطشا إلى ذلك، لأن العلم الذى هو إلى درجة ما أمنا الحبيبة، هو والحضارة شىء واحد، ولأنى أحترم من صميم القلب أولئك الأشخاص الذين تدوى أسماؤهم الشهيرة وألقابهم المتوجة بهالة المجد الذائع وبأكاليل الغار والصنوج والأوسمة والأشرطة والشهادات فى جميع أنحاء هذا العالم

---

(١) اسم من اختراع المؤلف للسخرية والدعابة ويعنى «الشطائر أكلت» ـ **(المعرب)**.

(٢) تقتضى تقاليد المخاطبة الروسية مخاطبة الشخص باسمه واسم أبيه للاحترام ـ **(المعرب)**

الكونى الظاهر والخافى أى ما هو تحت القمر. إننى أحب حبا لاهبا الفلكيين، والشعراء، والميتافيزيقيين، والبريفات دوتسنتى [1]، والكيميائيين وغيرهم من سدنة العلم الذين تنسبون أنفسكم إليهم من خلال حقائقكم الذكية وحقول علومكم، أى المنتجات والثمار. ويقال إنكم طبعتم كتبا كثيرة خلال جلوسكم الذهنى مع الأنابيب ومقاييس الحرارة وكومة من الكتب الأجنبية ذات الرسوم المغرية. ومنذ قريب جاء إلى أملاكى الحقيرة، إلى أطلالى وخرائبى، مكسيموس بونتيفكس [2] المحلى، الأب جيراسيم، وأخذ بتعصبه المعهود يسب ويلعن أفكاركم وتفكيركم بخصوص أصل الإنسان وغيره من ظواهر العالم الظاهر، وهاج وثار ضد مجالكم الذهنى وأفقكم الفكرى المغطى بالكواكب المنيرة والشهائب [3]. وأنا لا أوافق الأب جيراسيم بخصوص أفكاركم الفكرية، لأننى لا أعيش ولا أتغذى إلا بالعلم الذى وهبته العناية الإلهية لجنس بنى الإنسان لاستخراج الفلزات الثمينة واللافلزات والجواهر من باطن العالم الظاهر والخافى، ومع ذلك فلتعذرونى، يا أبتاه، أنا الحشرة التى لا تكاد تبين، إذا ما تجاسرت فدحضت بأسلوب العجائز بعض أفكاركم بخصوص طبيعة الطبيعة. لقد أخبرنى الأب جيراسيم بأنكم فيما يبدو ألفتم مؤلفا فتفضلتم بأن عرضتم فيه أفكارا غير جوهرية بالمرة بخصوص البشر ونشأتهم الأولى وكينونتهم قبل الطوفان. وتفضلتم فألفتم بأن الإنسان هو من نسل قبائل القرود والنسانيس والأورانجوتان [4] وما شابه. سامحونى أنا العجوز، فإننى لست متفقا معكم بخصوص هذه النقطة المهمة وبوسعى أن أضع أمامكم عقدة. فلو أن الإنسان، سيد العالم،

---

(١) بريفات دوتسنت: الأستاذ المساعد من خارج هيئة التدريس ـ **(المعرب)**.

(٢) الحبر الأعظم ـ (محرفة عن اللاتينية).

(٣) تحريف كلمة: «الشهب» للسخرية من جهل كاتب الرسالة، حيث أورد تشيخوف الكلمة محرفة ـ **(المعرب)**.

(٤) إنسان الغابة، نوع من القردة العليا الشبيهة بالإنسان ـ **(المعرب)**.

أذكى المخلوقات المتنفسة، جاء فى الأصل من قرد غبى جاهل، لكان لديه ذيل وصوت متوحش. ولو أننا جئنا فى الأصل من القردة، لكان الغجر يسوقوننا الآن فى المدن للفرجة، ولدفعنا نقودا مقابل الفرجة على بعضنا البعض ونحن نرقص بأمر الغجرى أو نجلس خلف القضبان فى حديقة الحيوانات. وهل يغطى الشعر أجسامنا كلها؟ ألا نرتدى الثياب، التى ليست لدى القرود؟ وهل كنا نحب المرأة ولا نحتقرها لو فاحت منها ولو قليلا رائحة القردة التى نراها كل ثلاثاء لدى رئيس النبلاء؟ ولو أن أسلافنا كانوا من نسل القرود لما دفنوا فى المقابر المسيحية. إن والد جدى أمفروسى، مثلا، الذى عاش فى زمنه فى المملكة البولندية، قد دفن لا كقرد، بل إلى جوار العباد الكاثوليكى يواقيم شوستاك الذى يحتفظ أخى إيفان (الرائد) حتى الآن بمذكراته عن المناخ المعتدل والتناول غير المعتدل للمشروبات الكحولية. والعباد تعنى القس الكاثوليكى. فلتعذرونى أنا الجاهل لتدخلى فى شؤونكم العلمية وحديثى بطريقتى، بأسلوب العجائز، وفرضى عليكم أفكارى المشوهة والفظة، التى تكون لدى العلماء والقوم المتحضرين فى مكان أقرب إلى البطن منه إلى الرأس. ولكنى لا أقوى على الصمت ولا على الصبر عندما يفكر العلماء تفكيرا خاطئا فى عقولهم ولا يمكننى إلا أن أعارضكم. لقد أخبرنى الأب جيراسيم أنكم تفكرون تفكيرا خاطئا بخصوص القمر، أى الهلال، الذى يعوضنا عن الشمس فى ساعات الظلام والعتمة، حين يكون الناس نياما، بينما أنتم تنقلون الكهرباء من مكان إلى آخر وتعملون الخيال. لا تضحكوا منى، أنا العجوز، لأنى أكتب بهذه الصورة الغبية. إنكم تكتبون أن القمر، أى الهلال، يعيش ويقطن فيه بشر وقبائل. وهذا لا يمكن أن يكون أبدا، لأنه لو كان الناس يعيشون على القمر لحجبوا عنا نوره الساحر والفاتن بمنازلهم ومراعيهم الكثيفة. وبدون المطر لا يستطيع الناس أن يحيوا، والمطر يسقط إلى أسفل على الأرض وليس إلى أعلى، على القمر. ولو عاش الناس على القمر لسقطوا إلى أسفل على الأرض، ولكن ذلك

لايحدث، ولا نهالت القاذروات والمخلفات من القمر المسكون على يابستنا. وهل يمكن للبشر أن يعيشوا على القمر إذا كان لا يوجد إلا ليلا، وفي النهار يختفي؟ كما أن الحكومات لن تسمح بالعيش على القمر لأنه بسبب بعد المسافة وعدم إمكانية بلوغه، يمكن الاختفاء فيه من المساءلة بكل سهولة. إنكم أخطأتم قليلا. لقد ألفتم ونشرتم فى مؤلفكم الذكى، كما قال لى الأب جيراسيم، كما لو أنه توجد على أعظم الكواكب المنيرة، الشمس، بقع سوداء. وهذا لا يمكن أن يكون لأن هذا لا يمكن أن يكون أبدا. كيف أمكنكم أن تروا على الشمس بقعا. إذا كان من غير الممكن النظر إلى الشمس بالعيون البشرية العادية، وما الداعى لأن تكون عليها بقع إذا كان من الممكن الاستغناء عنها؟ ومن أى جسم رطب صنعت هذه البقع ذاتها إذا كانت لا تحترق؟ وربما، حسب رأيكم، تعيش الأسماك أيضا على الشمس؟ اعذرونى أنا المخدر المسموم على هذه المزحة الغبية! فأنا جد مخلص للعلم! والروبل، شعار القرن التاسع عشر هذا، ليس له عندى أى ثمن، فقد حجبه العلم عن عينى بأجنحته اللاحقة. كل اكتشاف يعذبنى كأنه مسمار فى ظهرى. ورغم أننى جاهل ومالك أطيان دقة قديمة، فإننى، أنا المستهتر العجوز، أشتغل بالعلم والاكتشافات التى أصنعها بيدى، وأملأ رأسى الأخرق، جمجمتى المتوحشة، بالأفكار وبطاقم من أعظم المعارف. وأمنا الطبيعة هى كتاب ينبغى أن نقرأه ونراه. وقد أنجزت بعقلى الخاص الكثير من الاكتشافات التى لم يخترعها أى مصلح حتى الآن. وأقولها بلا مباهاة، إننى لست من الأواخر فيما يخص التعليم الذى حصلت عليه بالأصابع المشققة من الكد وليس بثروة الوالدين، أى الأم والأب، أو الوصاة الذين كثيرا ما يقضون على أبنائهم بالثروة والرفاهية والمساكن من ستة طوابق بالجوارى والأجراس الكهربائية. وهاكم ما اكتشفه عقلى البخس. لقد اكتشفت أن شمسنا العظيمة النارية المشعة والمشعثة تضيء بلوحة من شتى الألوان الملونة فى الصباح الباكر من يوم الفصح المقدس، وتترك بوميضها المدهش انطباعا لعوبا. واكتشاف آخر.

لماذا يكون النهار فى الشتاء قصيرا والليل طويلا، والعكس صيفا؟ اليوم فى الشتاء قصير لأنه مثل باقى المواد الظاهرة والخفية، ينكمش بالبرودة، ولأن الشمس تغرب مبكرا، والليل بفعل أزير اليراعات المضيئة والمصابيح يتمدد لأنه يدفأ. ثم اكتشفت أيضا أن الكلاب فى الربيع تأكل العشب مثل الغنم، وأن القهوة مضرة لأصحاب المزاج الدموى لأنها تحدث فى الرأس دوارا وفى العينين لونا عكرا. وما شابه ذلك وخلافه. لقد أنجزت اكتشافات كثيرة غير هذه، رغم أنى لا أحمل شهادات أو تقديرات. تعالوا زورونى يا جارى العزيز، أستحلفكم بالله. وسنكتشف معا شيئا ما، ونشتغل بالأدب فتعلموننى أنا الوضيع مختلف الحسابات. لقد قرأت من وقت قريب عند أحد العلماء الفرنسيين أن بوز الأسد لا يشبه أبدا الوجه البشرى كما يظن العلماء. وعن هذا أيضا سنتحدث، تعالوا لو تكرمتم. تعالوا ولو غدا مثلا. إننا الآن نتناول طعام الصيام ولكن سنعد لكم طعام الإفطار. وقد طلبت ابنتى نتاشنكا منكم أن تجلبوا معكم كتبا ذكية ما. إنها عندى متحررة، والجميع فى نظرها أغبياء وهى وحدها الذكية، الشباب، ودعنى أقل لكم، يفصح عن نفسه، وفقهم الله! بعد أسبوع سيأتى إلىّ أخى إيفان (الرائد)، وهو شخص طيب، ولكن فيما بيننا أقول إنه بوربون[1] ولا يحب العلوم. هذه الرسالة سيحملها لكم حامل مفاتيحى تروفيم فى تمام الساعة الثامنة مساء. فإذا جاء بها متأخرا فلتصفعوه على خديه على طريقة الأساتذة، فلا داعى للكلفة مع هذه القبيلة. فإذا جاء بها متأخرا فمعناها أنه عرج على الحانة، هذا الملعون. إن عادة زيارة الجيران لم نبتدعها نحن، ولسنا نحن من سينهيها، ولذا تعالوا من كل بد بآلاتكم وكتبكم. كان بودى أن آتى إليكم لكننى خجول للغاية وتعوزنى الجرأة. فلتعذرونى أنا المستهتر على الإزعاج.

أبقى على احترامى لكم،

صف ضابط متقاعد بقوات الدون من النبلاء، جاركم

فاسيلى سيمى ـ بولاتوف

---

(١) فظ جاهل ـ (المعرب).

فرحة

كانت الساعة الثانية عشرة ليلا .

اندفع ميتيا كولداروف إلى شقة والديه منفعلا منفوش الشعر ، ومضى يروح ويجيء بسرعة فى جميع الغرف . وكان الوالدان قد أويا إلى الفراش . ورقدت أخته فى سريرها تقرأ آخر صفحة فى الرواية . أما إخوته التلاميذ فكانوا نائمين .

وقال والداه بدهشة :

ـ من أين جئت؟ ماذا بك؟

ـ أوه ، لا تسألا! لم أتوقع أبدا ذلك! كلا ، لم أتوقعه أبدا! إنه . . إنه غير معقول!ـ

وقهقه ميتيا ، وجلس فى الفوتيل وهو لا يقوى على الوقوف من فرط السعادة .

ـ هذا غير معقول! لا يمكن أن تتصوروا! انظروا! قفزت أخته من الفراش ، وأسدلت على كتفيها البطانية واقتربت من أخيها . واستيقظ التلاميذ .

ـ ماذا بك؟ إنك شاحب جدا!

هذا من الفرحة يا ماما! فالآن أصبحت روسيا كلها تعرفنى! كلها! من

قبل لم يكن أحد غيركم يعرف أنه يوجد فى الدنيا المسجل الاعتبارى[1] ديمترى كولداروف، أما الآن فروسيا كلها تعرف ذلك! ماما! يا إلهى!

قفز ميتيا، وجرى فى غرف البيت ثم عاد إلى مجلسه.

ـ ولكن ماذا حدث؟ هل أوضحت لنا!

ـ إنكم تعيشون كالوحوش البرية، لا تقرأون الصحف، ولا تهتمون أبدا بما ينشر، بينما فى الجرائد أشياء رائعة! فإذا حدث شيء يصبح معروفا على الفور، ولا يخفى أبدا! كم أنا سعيد! يا إلهى! الجرائد لا تكتب إلا عن مشاهير الناس فقط، وإذا بهم فجأة يكتبون عنى!

ـ ماذا تقول! أين؟

امتقع الأب. ونظرت الأم إلى الأيقونة ورسمت علامة الصليب. وقفز التلاميذ فى قمصان النوم القصيرة فقط واقتربوا من أخيهم الأكبر.

ـ نعم! كتبوا عنى! الآن تعرفنى روسيا كلها! خبئى يا ماما هذا العدد واحتفظى به للذكرى! سوف نقرؤه أحيانا. انظروا!

وأخرج ميتيا من جيبه عددا من جريدة وأعطاه لأبيه وهو يدس إصبعه فى موضع محاط بخط قلم أزرق.

ـ اقرأ!

وارتدى الوالد النظارة.

ـ هيا اقرأ!

ونظرت الأم إلى الأيقونة ورسمت علامة الصليب. وتنحنح الأب وشرع يقرأ:

ـ «فى ٢٩ ديسمبر، فى الساعة الحادية عشرة مساء كان المسجل الاعتبارى ديمترى كولداروف..

(١) المسجل الاعتبارى رتبة من أدنى الرتب المدنية فى روسيا القيصرية. (**المعرب**).

ـ هل رأيتم؟ هل رأيتم أكمل!

ـ . . كان المسجل الاعتبارى ديمترى كولداروف خارجا من الحانة الواقعة فى شارع مالايا برونايا، فى منزل كوزيخين، وهو فى حالة سكر . .

ـ شربت مع سيميون بتروفتش . . وصفوا حتى أدق التفاصيل! أكمل! بعده! اسمعوا!

ـ وهو فى حالة سكر فزلت قدمه وسقط تحت حصان حوذى كان واقفا هنا، ويدعى إيفان دروتوف من قرية درويكينا بناحية يوخنوف. وذعر الحصان فخطا من فوق كولداروف وسحب من فوقه الزحافة التى كان جالسا فيها ستيبان لوكوف التاجر من الدرجة الثانية بموسكو، وانطلق عبر الشارع وتمكن البوابون من الإمساك به. ونقل كولداروف الذى كان فاقد الوعى إلى قسم الشرطة حيث أجرى له كشف طبى. واتضح أن الضربة التى تلقاها فى مؤخرة رأسه . .

ـ إنها من اصطدامى بذراع الزحافة يا بابا. أكمل، اقرأ بعد ذلك!

ـ . . التى تلقاها فى مؤخرة رأسه تعتبر من الضربات الخفيفة. وقد تم تحرير محضر بالواقعه. وأجرى للمصاب إسعاف أولى . . »

ـ نصحونى بأن أبلل مؤخرة رأسى بالماء البارد.

حسنا، هل رأيتم؟ هه؟ هكذا! الخبر الآن ينتشر فى روسيا كلها! هات الجريدة!

وخطف ميتيا الجريدة وطواها، ودسها فى جيبه.

ـ سأسرع إلى آل هكاروف لأريها لهم . . ينبغى أن أريها أيضا لآل إيفانيتسكى، ولنتاليا إيفانوفنا، ولأنيسيم فاسيليتش! أنا ذاهب! وداعا!

وارتدى ميتيا العمرة ذات الشريط المعقود وانطلق إلى الشارع منتشيا فرحا.

وفاة موظف

ذات مساء رائع كان إيفان ديمتريفيتش تشرفياكوف، الموظف الذى لا يقل روعة، جالسا فى الصف الثانى من مقاعد الصالة، يتطلع فى المنظار إلى «أجراس كورنيفيل». وأخذ يتطلع وهو يشعر بنفسه فى قمة المتعة. وفجأة.. وكثيرا ما تقابلنا «وفجأة» هذه فى القصص. والكتّاب على حق، فما أحفل الحياة بالمفاجآت! وفجأة تقلص وجهه، وزاغ بصره، واحتبست أنفاسه.. وحول عينيه عن المنظار وانحنى و.. أتش!!! عطس كما ترون. والعطس ليس محظورا على أحد فى أى مكان. إذ يعطس الفلاحون، ورجال الشرطة، بل وحتى أحيانا المستشارون السريون. الجميع يعطس. ولم يشعر تشرفياكوف بأى حرج، ومسح أنفه بمنديله، وكشخص مهذب نظر حوله ليرى ما إذا كان قد أزعج أحدا بعطسه. وعلى الفور أحس بالحرج. فقد رأى العجوز الجالس أمامه فى الصف الأول يمسح صلعته ورقبته بقفازة بعناية ويدمدم بشىء ما. وعرف تشرفياكوف فى شخص العجوز الجنرال بريزجالوف الذى يعمل فى مصلحة السكك الحديدية.

وقال تشرفياكوف لنفسه: «لقد بللته. إنه ليس رئيسى، بل غريب، ومع ذلك فشىء محرج. ينبغى أن أعتذر». وتنحنح تشرفياكوف ومال بجسده إلى الأمام وهمس فى أذن الجنرال:

ـ عفوا يا صاحب السعادة، لقد بللتكم.. لم أقصد..

ـ لا شىء، لا شىء.

ـ أستحلفكم بالله العفو. إننى . . لم أكن أريد!

ـ أوه، اسكت من فضلك! دعنى أستمع! وأ حرج تشرفياكوف فابتسم ببلاهة، وراح ينظر إلى المسرح. كان ينظر ولكنه لم يعد يحس بالمتعة. لقد بدأ القلق يعذبه. وأثناء الاستراحة اقترب من بريزجالوف وتمشى قليلا بجواره، وبعد أن تغلب على وجله دمدم:

ـ لقد بللتكم يا صاحب السعادة. . اعذرونى . . إننى لم أكن أقصد أن. .

فقال الجنرال:

ـ أوه كفاك! . أنا قد نسيت وأنت مازلت تتحدث عن نفس الأمر!

وحرك شفته السفلى بنفاذ صبر.

وقال تشرفياكوف لنفسه وهو يتطلع إلى الجنرال بشك: «يقول نسيت بينما الخبث يطل من عينيه. ولا يريد أن يتحدث. ينبغى أن أوضح له أننى لم أكن أرغب على الإطلاق. . وأن هذا قانون الطبيعة، وإلا ظن أننى أردت أن أبصق عليه. فإذا لم يظن الآن فسيظن فيما بعد! . .»

وعندما عاد تشرفياكوف إلى المنزل روى لزوجته ما بدر عنه من سوء تصرف. وخيل إليه أن زوجته نظرت إلى الأمر باستخفاف، فقد جزعت فقط، ولكنها اطمأنت عندما علمت أن بريزجالوف ليس رئيسه

وقالت:

ـ ومع ذلك اذهب إليه واعتذر. وإلا ظن أنك لا تعرف كيف تتصرف فى المجتمعات!

ـ تلك هى المسألة! لقد اعتذرت له، ولكنه. . كان غريبا. . لم يقل كلمة مفهومة واحدة. ثم إنه لم يكن هناك متسع لحديث.

وفى اليوم التالى ارتدى تشرفياكوف حلة جديدة، وقص شعره، وذهب إلى بريزجالوف لتوضيح الأمر . . وعندما دخل غرفة استقبال الجنرال رأى هناك كثيرا من الزوار ورأى بينهم الجنرال نفسه الذى بدأ يستقبل الزوار . وبعد أن سأل عدة أشخاص رفع عينيه إلى تشرفياكوف . فراح الموظف يشرح له :

ـ بالأمس فى «أركاديا» لو تذكرون يا صاحب السعادة عطست و . . بللتكم عن غير قصد . . اعذر . .

ـ يا للتفاهات . . الله يعلم ما هذا! ـ وتوجه الجنرال إلى الزائر التالى ـ ماذا تريدون؟

وفكر تشرفياكوف ووجهه يشحب : «لا يريد أن يتحدث إذن فهو غاضب . . كلا، لا يمكن أن أدع الأمر هكذا . . سوف أشرح له . . »

وبعد أن أنهى الجنرال حديثه مع آخر زائر واتجه إلى الغرفة الداخلية، خطا تشرفياكوف خلفه ودمدم :

ـ يا صاحب السعادة! إذا كنت أتجاسر على إزعاج سعادتكم فإنما من واقع الإحساس بالندم! . لم أكن أقصد كما تعلمون سعادتكم!

فقال الجنرال وهو يختفى خلف الباب :

ـ إنك تسخر يا سيدى الكريم!

وفكر تشرفياكوف : «أية سخرية يمكن أن تكون؟ ليس هنا أية سخرية على الإطلاق! جنرال ومع ذلك لا يستطيع أن يفهم! إذا كان الأمر كذلك فلن أعتذر بعد لهذا المتغطرس . ليذهب إلى الشيطان! سأكتب له رسالة، ولكن لن آتى إليه . أقسم لن آتى! » .

هكذا فكر تشرفياكوف وهو عائد إلى المنزل . ولكنه لم يكتب للجنرال

رسالة. فقد فكر وفكر ولم يستطع أن يدبج الرسالة. واضطر فى اليوم التالى إلى الذهاب بنفسه لشرح الأمر.

ودمدم عندما رفع إليه الجنرال عينين متسائلتين:

ـ جئت بالأمس فأزعجتكم يا صاحب السعادة، لا لكى أسخر منكم كما تفضلتم سعادتكم فقلتم. بل كنت أعتذر لأنى عطست فبللتكم. . ولكنه لم يدر بخاطرى أبدا أن أسخر. وهل أجسر على السخرية؟ فلو رحنا نسخر، فلن يكون هناك احترام للشخصيات إذن. .

وفجأة زأر الجنرال وقد اربد وارتعد:

ـ اخرج من هنا!!

فسأل تشرفياكوف هامسا وهو يذوب رعبا:

ـ ماذا؟

فردد الجنرال ودق بقدمه:

ـ اخرج من هنا!!

وتمزق ما فى بطن تشرفياكوف. وتراجع إلى الباب وهو لا يرى ولا يسمع شيئا، وخرج إلى الشارع وهو يجرجر ساقيه. . وعندما وصل آليا إلى المنزل استلقى على الكنبه دون أن يخلع حلته. . ومات.

البدين والنحيف

فى محطة سكة حديد نيقولاى التقى صاحبان: أحدهما بدين والآخر نحيف. كان البدين قد تغدى لتوه فى المحطة ولمعت شفتاه من الدهن كما تلمع ثمار الكرز الناضجة. وفاحت منه رائحة النبيذ والحلويات المعطرة. أما النحيل فكان خارجا لتوه من عربة القطار محملا بالحقائب والصرر وعلب الكرتون. وفاحت منه رائحة لحم الخنزير والقهوة الرخيصة. ولاحت ،من وراء ظهره امرأة نحيفة طويلة الذقن. . زوجته، وتلميذ طويل بعين مزرورة. . ابنه.

وهتف البدين عندما رأى النحيف:

ـ بورفيرى! أهو أنت؟ يا عزيزى! كم مر من أعوام لم أرك!

ودهش النحيف:

ـ يا سلام! ميشا! يا صديق الطفولة! من أين جئت؟

وتبادل الصاحبان القبلات ثلاثا، وحدق كل منهما فى الآخر بعينين مغرورقتين بالدموع. وكانا كلاهما فى حالة من الذهول اللذيذ.

وقال النحيف بعد القبلات:

ـ يا عزيزى! لم أتوقع أبدا! يالها من مفاجأة! هلا نظرت إلىّ جيدا! جميل كما كنت! حبوب وغندور كما كنت! آه يا إلهى! كيف أحوالك؟ أصبحت غنيا؟ تزوجت؟ أنا تزوجت كما ترى. . وهذه زوجتى، لويزا. .

من عائلة، فانسنباخ . . بروتستانتية . . أما هذا فابنى، نفانائيل، تلميذ بالصف الثالث. يا نفانيا، هذا صديق طفولتى! درسنا معا فى المدرسة.

وفكر نفانائيل قليلا ثم نزع قبعته.

ومضى النحيف يقول:

ـ درسنا معا فى المدرسة! أتذكر كيف كانوا يغيظونك؟ بلقب هيروستراتوس لأنك أحرقت بالسيجارة كتاب عهدة، وكانوا يغيظوننى بلقب أفيالتوس لأننى كنت أحب النميمة. ها . . ها . . كم كنا صغارا! لا تخف يا نفانيا . . اقترب منه . . وهذه زوجتى، من عائلة فانسنباخ . . بروتستانتية. وفكر نفانائيل قليلا، ثم اختبأ خلف ظهر أبيه. وسأل البدين وهو ينظر بإعجاب إلى صديقه:

ـ كيف حالك يا صديقى؟ أين تخدم؟ وماذا بلغت فى الخدمة؟

ـ أخدم يا عزيزى! بلغت محكم هيئة [1] منذ سنة وأحمل وسام ستانسلاف. الراتب سيىء . . فليكن! زوجتى تعطى دروسا فى الموسيقى، وأنا أصنع علب سجائر من الخشب. علب ممتازة! أبيعها الواحدة بروبل. ومن يشترى عشر علب أو أكثر أقدم له خصما. ندبر أمورنا كيفما كان. أتدرى، كنت أخدم فى الإدارة، وقد نقلت إلى هنا الآن كرئيس قسم تبع نفس الوزارة . . سوف أخدم هنا . ، وأنت، كيف؟ أظنك بلغت مستشار دولة؟ هه؟

فقال البدين:

ـ لا يا عزيزى، بل أعلى . . لقد بلغت المستشار السرى [2] . . أحمل نجمتين.

---

(١) رتبة مدنية من الدرجة الثامنة فى روسيا القيصرية. (**المعرب**).

(٢) رتبة مدنية عالية فى روسيا القيصرية تعادل رتبة اللواء. (**المعرب**).

وفجأة امتقع النحيف، وتجمد، ولكن سرعان ما التوى فمه فى جميع الاتجاهات ليصنع ابتسامة عريضة للغاية. وبدا كأن الشرار قد تطاير من وجهه وعينيه.

أما هو فانكمش وتحدب وضاق. وانكمشت حقائبه وصرره وعلبه وتجعدت.. واستطال ذقن زوجته الطويل. وشد نفانائيل قامته وزرر جميع أزرار سترته..

ـ إننى يا صاحب السعادة.. مسرور جدا! صديق الطفولة، يعنى، وإذا به يصبح من السادة الأكابر! هئ.. هئ.

فامتعض البدين وقال:

ـ دعك من هذا! ما هذه النبرة؟ إننا أصدقاء الطفولة، فما معنى عبادة الألقاب هذه!

فضحك النحيف ضحكة صفراء وازداد انكماشا:

ـ العفو.. ماذا تقولون.. إن اهتمام سعادتكم الكريم.. هو كالبلسم الشافى.. هذا هو ابنى نفانائيل يا صاحب السعادة.. زوجتى لويزا، بروتستانتية إلى درجة ما..

وأراد البدين أن يعارض بشىء ما، ولكن وجه النحيف كان يطفح بالتبجيل والتعبير المعسول والخنوع إلى درجة أثارت الغثيان فى نفس المستشار السرى. فأشاح بوجهه عن النحيف ومد له يده مودعا.

وصافح النحيف ثلاث أصابع وانحنى بجسده كله وضحك كالصينى: «هئ.. هئ.. هئ». وابتسمت الزوجة. ومسح نفانائيل الأرض بقدمه وسقطت منه القبعة. وكانوا ثلاثتهم فى حالة من الذهول اللذيذ.

الحرباء

عبر ميدان السوق يسير مفتش الشرطة أتشوميلوف فى معطف جديد ويحمل فى يده لفافة. ومن خلفه يسير شرطى أحمر الشعر ومعه غربال مملوء لحافته بثمار عنب الثعلب المصادرة. والسكون مخيم. . ولا أحد فى السوق. . وتطل أبواب المتاجر والحانات المفتوحة على العالم بنظرة كابية كالأشداق الجائعة. ولا يوجد بجوارها حتى الشحاذون. وفجأة يسمع أتشوميلوف صوتا يقول:

ـ آه، إذن فأنت تعض أيها الملعون. . أمسكوه يا أولاد! العض الآن ممنوع! أمسك!. . آه!. .

ويتردد عويل كلب. ويلتفت أتشوميلوف فيرى كلبا يركض من مخزن الحطب التابع للتاجر بتشوجين وهو يقفز على ثلاث أرجل ويتلفت. ويطارده شخص فى قميص من الشيت المنشى وصديرى مفتوح. يركض وراء الكلب ثم يسقط على الأرض مادا جذعه إلى الأمام ويقبض على ساقى الكلب الخلفيتين. ويتردد من جديد عويل الكلب وصيحة: «امسكوه». وتطل من المتاجر سحن ناعسة، وسرعان ما يتجمع الناس بالقرب من مخزن الحطب وكأن الأرض انشقت عنهم.

ويقول الشرطى:

ـ يبدو هنا اضطراب يا صاحب المعالى!

ويستدير أتشوميلوف نصف دورة إلى اليسار متجها إلى الجمع. ويرى بجوار بوابة المخزن مباشرة الشخص المذكور فى الصديرى المفتوح وهو يرفع يده اليمنى ليرى الجمع إصبعه المدماة. وكأنما كتب على سحنته الثملة: «سوف أريك أيها الملعون»، وأصبعه نفسها تشبه علامة النصر. ويتعرف أتشوميلوف فى هذا الرجل الصائغ خريوكين. وفى وسط الجمع يجلس المتسبب فى هذه الضجة ـ جرو صيد أبيض ذو أنف حاد وبقعة صفراء على ظهره، مادا ساقيه الأماميتين، وجسده كله يرتعش. وفى عينيه الدامعتين نظرة حزن ورعب.

ويسأل أتشوميلوف وهو يقتحم الحشد:

ـ بأية مناسبة أنتم هنا؟ لماذا هنا؟ وأنت لماذا إصبعك؟.. من الذى صاح؟

ويشرع خريوكين فى الكلام وهو يتنحنح فى قبضته:

ـ كنت سائرا يا صاحب المعالى لا أمس أحدا.. بخصوص الحطب مع ميترى ميتريتش.. وفجأة إذا بهذا الوغد، ودون أى سبب ينهش إصبعى.. أرجو المعذرة، فأنا رجل، يعنى، من العاملين.. وعملى دقيق.. فليدفعوا لى، لأنى ربما لا أستطيع أن أحرك هذه الإصبع أسبوعا.. ولا يوجد فى القانون يا صاحب المعالى ما ينص على أن يتحمل الإنسان هذه المخلوقات.. فلو أن كل واحد أخذ يعض، فالأفضل ألا يعيش الإنسان على ظهر الأرض..

فيقول أتشوميلوف بصرامة وهو يسعل ويحرك حاجبيه:

ـ هم! حسنا.. حسنا.. كلب من هذا؟ أنا لن أدع ذلك هكذا! سأريكم كيف تطلقون كلابكم! آن أن ننتبه إلى أولئك السادة الذين لا يريدون أن يمتثلوا للقوانين! عندما يدفع الغرامة هذا الوغد سيعرف ما معنى الكلاب وغيرها من الدواب الضالة! سأريه العفاريت الزرق! ـ

ويخاطب الشرطى ـ يلديرين، اعرف كلب من هذا واكتب محضرا! أما الكلب فينبغى إعدامه. فورا! لا بد أنه مسعور. . إننى أسألكم كلب من هذا؟

ويقول شخص من الجمع:

ـ يبدو أنه كلب الجنرال جيجالوف!

ـ الجنرال جيجالوف؟ هم! انزع عنى المعطف يا يلديرين. . أف، يا للحر! يبدو أن المطر سيسقط. . شىء واحد لا أفهمه، كيف استطاع أن يعضك ـ يقول مخاطبا خريوكين ـ أمن المعقول أنه يطال إصبعك؟ إنه صغير أما أنت فانظر ما طولك! يبدو أنك جرحت إصبعك بمسمار، وخطرت لك فكرة أن تحصل على تعويض. . أنتم هكذا. . أعرفكم أيها الشياطين!

ـ يا صاحب المعالى، كان يلسعه بالسيجارة فى بوزه ليضحك عليه، فلم يكذب الكلب خبرا وعضه. . إنه شخص مشاكس يا صاحب المعالى!

ـ كذاب يا أحول! أنت لم تر شيئا فلماذا تكذب؟ إن معاليه سيد ذكى ويعرف من الكذاب ومن الشريف النقى الضمير أمام الله. . وإذا كنت أكذب فليحكم القاضى. . فلديه مكتوب فى القوانين. . الجميع الآن سواسية. . وأنا لى أخ فى الدرك، إذا أردت أن تعلم. .

ـ ممنوع الكلام!

ويقول الشرطى بنبرة تأمل عميق:

ـ كلا، هذا ليس كلب الجنرال. ليس لدى الجنرال كلاب كهذه. . كلابه أكثرها سلوقية. .

ـ هل أنت متأكد؟

ـ متأكد يا صاحب المعالى. .

ـ أنا نفسى أعرف ذلك. كلاب الجنرال غالية، أصيلة، أما هذا.. فالشيطان يعلم ما هو! لا شعر ولا هيئة.. مجرد حقارة لا غير. أهذا كلب يقتنى؟! أين عقولكم؟ لو أن كلبا كهذا ظهر فى بطرسبرج أو موسكو، أتعلمون ماذا كان يحدث؟ ما كان أحد ليلتفت إلى القانون، بل على الفور ولا كلمة! هس! أنت يا خريوكين قد تضررت ولا تدع الأمر يمر هكذا.. ينبغى أن نؤدبهم.. آن الأوان!

ويقول الشرطى وهو يفكر بصوت مسموع:

ـ وربما كان كلب الجنرال.. فليس مكتوبا على سحنته.. رأيت من مدة كلبا مثله في فناء منزله.

ويقول صوت من الحشد:

ـ واضح، كلب الجنرال!

ـ هم!. ألبسنى المعطف يا يلديرين.. يبدو أن النسيم يهب.. لقد بردت.. احمله إلى الجنرال واسأل هناك. قل لهم إننى وجدته وأرسلته.. وقل لهم أيضا ألا يخرجوه إلى الشارع.. فهو كلب ربما غال، وإذا أخذ كل خنزير يلسعه بالسيجارة فى وجهه فمن السهل إتلافه.. الكلب حيوان مهم.. وأنت أيها الغبى أنزل ذراعك! كفاك إبرازا لإصبعك الحمقاء! أنت المذنب!..

ـ ها هو ذا طباخ الجنرال قادم، فلنسأله.. إى، يا بروخور.. تعال هنا يا عزيزى.. انظر إلى هذا الكلب.. أهو كلبكم؟

ـ يا سلام! لم يكن لدينا أبدا كلاب مثله! فيقول أتشوميلوف:

ـ ليس هناك داع للسؤال.. هذا كلب ضال! لا داعى للكلام الكثير.. إذا قلت إنه ضال فهو ضال.. ينبغى إعدامه وكفى.

واستطرد الطباخ:

ـ ليس كلبنا، إنه كلب شقيق الجنرال الذى وصل من مدة. جنرالنا لا يحب كلاب الصيد. أما أخوه فيحبها.

ويسأل أتشوميلوف ويفيض وجهه بابتسامة تأثر:

ـ أحقا وصل شقيق الجنرال؟ فلاديمير إيفانتش؟ آه يا ربى! وأنا لا أعلم! هل جاء للزيارة؟

ـ للزيارة..

ـ آه ياربى.. أوحشه شقيقه.. وأنا لا أعلم؟ إذن فهذا كلبه؟ سعيد جدا.. خذه.. ياله من كلب! شقى.. هبش هذا من إصبعه.. ها.. ها ..ها..

مالك ترتعش؟.. أوه إنه غاضب هذا الماكر.. يالك من صغير..

ويدعو بروخور الكلب ويمضى معه مبتعدا عن مخزن الحطب.. ويقهقه الجمع سخرية بخريوكين.

ويقول له أتشوميلوف متوعدا:

ـ مهلا، سوف أفرغ لك!

ويمضى فى طريقه عبر ميدان السوق متدثرا بالمعطف.

حلة النقيب

عبست الشمس الصاعدة فوق المدينة الإقليمية، وبدأت الديوك تتمطى لتوها، بينما كان الزبائن جالسين فى حانة العم ريلكين. كانوا ثلاثة: الخياط ميركولوف، والشرطى جراتفا وساعى الخزينة سميخونوف. وكانوا ثلاثتهم سكارى.

وقال ميركولوف وهو يمسك بأحد أزرار سترة الشرطى: ـ لا تقل ذلك، لا تقل ذلك! المرتبة فى المؤسسات المدنية، إذا أخذنا العليا منها، تفوق رتبة الجنرال من ناحية الخياطة. خذ مثلا وصيف البلاط.. من هو هذا الشخص؟ من أى رتبة؟ لكن خذ احسب.. أربعة أذرع من أعلى أنواع الجوخ، إنتاج فابريقة بروندل وأبنائه، وأزرار، وياقة ذهبية، وسراويل بيضاء بأشرطة ذهبية، والصدر كله بالذهب، القبة والأكمام والعراوى.. كله يلمع! لو أنك الآن خيطت حللا لسادة كبار من مدراء المراسم ورجال البلاط ومختلف الوزراء.. كيف تظن؟ أذكر أننا خيطنا لواحد من هؤلاء السادة، الكونت أندريه سيميونيتش فونلياريفسكى. حلة لا تقترب منها! إذا أمسكتها بين يديك وجدت النبض فى عروقك ينفض تسيك! تسيك!

السادة الحقيقيون عندما تخيط لهم إياك أن تزعجهم. خذ المقاس وخيط على طول، أما أن تتردد عليهم لعمل بروفات وضبط التفصيل فهذا مستحيل. إن كنت خياطا قديرا فخيط بعد أخذ المقاس على طول.. اقفز من أعلى البرج بشرط أن تدخل بقدميك فى الحذاء مباشرة، أرأيت!

وكانت بجوارنا يا أخى كما أذكر الآن ثكنة شرطة . . فكان رئيسنا أوسيب باكليتش يختار من رجال الشرطة الرجال الذى تتفق أجسامهم مع أجسام الزبائن لكى نعمل البروفات عليهم. وبعدين، يعنى . . اخترنا يا أخى شرطيا مناسبا لحلة الكونت . استدعيناه . . هيا البس يا أحمق وتبختر! ولبس هذه الـ . . الحلة . . ويا له من منظر مضحك! ما إن نظر إلى صدره حتى ارتعش، أتعرف، سقط مغشيا عليه . .

واستفهم سيمخونوف :

ـ وهل فصلتم لمأمورى المراكز؟

ـ وهل هؤلاء شخصيات؟ فى بطرسبرج هؤلاء المأمورون كالكلاب الضالة . . هنا ينزعون أمامهم القبعات وينحنون، أما هنالك فيقولون لهم : «أفسح الطريق، لا تزاحم!». كنا نفصل الحلل للسادة العسكريين وللشخصيات من المراتب الأربع الأولى. وكل شخصية تختلف عن الأخرى . . فإذا كنت مثلا من الرتبة الخامسة فأنت تافه . . تعال بعد أسبوع وتكون البدلة جاهزة، لأنه ليس هناك ما تفعله غير الياقة والأساور . . أما إذا كنت من الرتبة الرابعة أو الثالثة، أو مثلا الثانية، عندئذ ينهال علينا صاحب المحل، ونسرع إلى ثكنة الشرطة . فى مرة فصلنا يا أخى بدلة للقنصل الفارسى. وطرزنا له على الصدر والظهر قصبا ذهبيا بألف وخمسمائة روبل . وظننا أنه لن يدفع، ولكن لا! لقد دفع . . فى بطرسبرج حتى التتر تجدهم نبلاء الطباع .

وظل ميركولوف يتحدث طويلا . وفى الساعة التاسعة، وتحت تأثير الذكريات، بكى وراح يشكو بحرقة حظه الذى رماه فى هذه المدينة الصغيرة المليئة بالتجار والبرجوازيين فقط . وكان الشرطى فى هذه الفترة قد ساق اثنين إلى قسم البوليس، وذهب الساعى مرتين إلى البريد والخزينة وعاد، بينما كان ميركولوف لا يزال يشكو . وفى الظهر وقف أمام الشماس وأخذ يضرب صدره بقبضته ويتذمر :

ـ لا أريد أن أفصل للأوغاد! أنا أرفض! فى بطرسبرج فصلت بنفسى للبارون شبوتسيل وللسادة الضباط! ابتعد عنى يا قفطان ولائم الموتى، إياك أن تراك عيناى! ابتعد!

فأكد الشماس للخياط:

ـ إنك تضع نفسك فى مكانة عالية يا تريفون بانتليتش. صحيح أنت فنان فى عملك، ولكن لا يجوز أن تنسى الله والدين. آرى أيضا وضع نفسه عاليا، مثلك، ولكنه مات من الإسهال. أوه، وأنت أيضا ستموت!

ـ سأموت! الأفضل أن أموت من أن أفصل معاطف فلاحية.

ـ هل شيطانى هنا؟ ـ تردد فجأة صوت نسائى خلف الباب، ودخلت الحانة أكسينيا زوجة ميركولوف، وهى امرأة كهلة، مشمرة الأكمام، ومحزومة البطن ـ أين هو هذا الصنم؟ ـ وطافت على الرواد بنظرة غاضبة. ـ اذهب إلى البيت، إن شاء الله تخطفك مصيبة. هناك ضابط يسأل عنك.

فدهش ميركولوف:

ـ أى ضابط؟

ـ وما أدرانى! يقول إنه جاء ليفصل بدلة.

حك ميركولوف أنفه الكبير براحته كلها، وهو ما كان يفعله دائما عندما يريد أن يعبر عن دهشته البالغة، ودمدم:

ـ هذه المرأة أصابتها لوثة.. منذ خمسة عشر عاما لم أر وجها نبيلا، وفجأة يأتى الآن، وفى يوم الصيام، ضابط ليفصل بدلة! هم!.. فلأذهب لأرى..

وخرج ميركولوف من الحانة ومضى إلى البيت وهو يترنح.. ولم تكذب عليه زوجته. فقد رأى أمام عتبة داره النقيب أورتشايف، سكرتير قائد الحامية المحلية.

وقال له النقيب :

ـ أين كنت تتسكع؟ أنتظرك منذ ساعة . . هل تستطيع أن تفصل لى بدلة؟

ـ يا صاحب المعال . . يا إلهى ! ـ دمدم ميركولوف وهو يتحشرج ، ونزع من على رأسه القبعة مع خصلة شعر . ـ يا صاحب المعالى ! وهل هذا جديد علىّ؟ آه يا إلهى ! فصلت للبارون شبوتسيل . . إدوارد كارليتش . . والسيد الملازم زيمبولاتوف مدين لى حتى الآن بعشرة روبلات . . آه ! يا امرأة ، هاتى لصاحب المعالى كرسيا ، آه يا ربى . . هل تأمرون بأخذ مقاسكم أم تسمحون أن أفصل بمجرد النظر؟

ـ طيب . . القماش من عندك ، وتكون جاهزة بعد أسبوع . . كم تريد؟

ـ العفو يا صاحب المعالى . . ماذا تقولون . ـ وضحك ميركولوف ضحكة ساخرة قصيرة . ـ وهل أنا تاجر؟ إننا نعرف كيف نتعامل مع السادة . . حتى عندما فصلنا للقنصل الفارسى فصلنا بدون كلام . .

وبعد أن أخذ ميركولوف مقاييس النقيب وودعه ، ظل واقفا ساعة كاملة فى وسط الغرفة وهو يحدق فى زوجته ببلاهة . لم يكن يصدق . .

وأخيرا تمتم :

ـ يا لها من مفاجأة ، يا سلام ! من أين أحصل على النقود للقماش؟ يا أكسينيا ، أقرضينى ، يا أختى ، ذلك المبلغ الذى حصلت عليه من بيع البقرة .

أخرجت له أكسينيا لسانها ثم بصقت . وبعد فترة وجيزة بدأت تتعامل مع زوجها بالبشكور وتكسر على رأسه الصحاف الفخارية وتسحبه من لحيته ، وتخرج إلى الشارع وتصيح : «انظروا يا عباد الله ! قتلنى ! . . » . ولكن هذه الاحتجاجات لم تأت بنتيجة . وفى اليوم التالى رقدت فى

الفراش وهى تخفى عن صبيان الخياط الكدمات الزرقاء، بينما كان ميركولوف يطوف بالدكاكين ويتشاجر مع التجار وهو ينتقى الجوخ المناسب.

وحل عهد جديد بالنسبة للخياط. فبعد أن يستيقظ ويطوف بنظراته الغائمة على عالمه الصغير لم يعد يبصق بحقد.. أما أغرب شيء فهو أنه كف عن الذهاب إلى الحانة وانهمك فى العمل. وبعد أن يصلى بصوت خافت، يضع النظارة الحديدية الكبيرة ويقطب جبينه، ويفرش القماش على الطاولة بخشوع.

وبعد أسبوع كانت الحلة جاهزة. وبعد أن كواها ميركولوف، خرج إلى الشارع وعلقها على السياج المجدول من الأغصان وراح ينظفها.. ينزع منها وبرة، ثم يبتعد لمسافة ذراع، ويحدق فى الحلة طويلا بعينين مزرورتين، ثم يعود فينزع وبرة أخرى، وهكذا لمدة ساعتين.

وكان يقول للمارة:

ـ ما أشق العمل مع هؤلاء السادة! لم أعد أطيق، خارت قواى! قوم مثقفون، مهذبون، فلتحاول أن تنال رضاهم!

وفى اليوم التالى، وبعد أن نظف ميركولوف الحلة، دهن رأسه بالزيت وصفف شعره، ولف البدلة فى قطعة من قماش شيت جديد، وتوجه إلى النقيب.

وكان يستوقف كل من يقابله قائلا:

ـ لا وقت عندى للكلام معك أيها الأحمق. ألا ترى أننى أحمل البدلة للنقيب؟

وبعد نصف ساعة عاد من عند النقيب.

واستقبلته أكسينيا وهى تبتسم ابتسامة عريضة، وقالت بخجل:

ـ مبروك المكسب يا تريفون بانتليفتش .

فأجابها زوجها :

ـ يا لك من حمقاء . أتظنين السادة الحقيقيين يدفعون فورا؟ ليسوا كالتجار الذين ما إن تعطيهم حتى يدفعوا فورا . يا لك من حمقاء ! . .

رقد ميركولوف يومين على الفرن ولم يشرب أو يأكل واستسلم لمشاعر الرضا عن النفس ، تماما مثل هرقل بعد أن انتهى من تحقيق كل بطولاته . وفى اليوم الثالث ذهب ليحصل على النقود .

وقال هامسا لجندى المراسلة وهو يتسلل زاحفا إلى المدخل :

ـ هل استيقظ صاحب المعالى؟

وعندما تلقى الإجابة بالنفى وقف كالعمود بجوار الباب وراح ينتظر .

ـ اطرده من هنا ! قل له يوم السبت . . ـ سمع ميركولوف بعد انتظار طويل صوت النقيب الأبح .

وسمع نفس الشىء يوم السبت ، وفى السبت الذى تلاه ، وفى السبت الثالث . . شهرا كاملا قضاه فى التردد على النقيب ، والانتظار فى المدخل ساعات طويلة ، وبدلا من النقود كان يحصل على دعوة بالذهاب إلى الشيطان والمجىء يوم السبت . ولكنه لم ييأس ولم يتذمر ، بالعكس . . لقد سمن . أعجبه الانتظار الطويل فى المدخل وكانت «اطرده من هنا» تنساب فى أذنيه كاللحن العذب .

وعندما يعود إلى البيت من عند النقيب كان يقول بإعجاب :

ـ هذا هو السيد النبيل ! عندنا فى بيتر [1] كانوا كلهم كذلك . .

---

(١) الاسم الدارج لمدينة بطرسبرج . (المعرب) .

وكان ميركولوف مستعدا حتى آخر أيام عمره أن يتردد على النقيب وينتظر فى المدخل لولا أكسينيا التى كانت تطالبه بإعادة النقود، ثمن البقرة.

كانت تلقاه كل مرة بالسؤال:

ـ هل جئت بالنقود؟ كلا؟ ما الذى تفعله بى أيها الوحش الكاسر؟ هه؟.. يا ميتكا، أين البشكور؟

وذات مساء كان ميركولوف عائدا من السوق، حاملا على ظهره جوال فحم. ومن خلفه سارت أكسينيا بعجلة. كانت تدمدم وهى تفكر فى النقود ثمن البقرة:

ـ مهلا! سوف أريك عندما نصل إلى البيت!

وفجأة توقف ميركولوف وتسمر فى مكانه وصاح بفرح. فمن حانة «المرح» التى كانا يمران بجوارها، انطلق مندفعا سيد ما فى قبعة أسطوانية، بوجه أحمر وعينين ثملتين. وجرى خلفه النقيب أورتشايف بلا قبعة، مشعث الشعر والثياب وفى يده عصا البلياردو. وكانت حلته الجديدة ملوثة بالطباشير، وإحدى الكتافيات قد مالت جانبا.

وصاح النقيب وهو يلوح بجنون بالعصا ويمسح العرق من جبينه:

ـ سأرغمك على اللعب أيها المحتال! سأعلمك أيها الغشاش كيف تلعب مع الشرفاء!

وهمس ميركولوف لزوجته وهو يلكزها فى كوعها ويهأهىء:

ـ انظرى يا حمقاء! هذا هو السيد النبيل. فالتاجر إذا فصل لسحنته الفلاحية بدلة فإنها لا تبلى، يلبسها عشر سنين، أما هذا فانظرى كيف جعل البدلة خرقة! ليس غريبا لو احتاج لواحدة جديدة!

فقالت أكسينيا :

ـ اذهب واطلب منه النقود .

ـ ماذا تقولين يا حمقاء! فى الشارع؟ لا يمكن أبدا . .

ورغم مقاومة ميركولوف فقد أرغمته زوجته على الذهاب إلى النقيب الهائج ومفاتحته فى أمر النقود .

فأجابه النقيب :

ـ امش من هنا! أضجرتنى!

ـ أنا فاهم يا صاحب المعالى . . فاهم . . أنا لا أريد . . لكن زوجتى . . حمقاء لا تفهم . . حضرتكم تعرفون أى عقل يمكن أن يكون فى رأس هؤلاء النسوة . .

فزأر النقيب وهو يحملق فيه بعينين ثملتين زائغتين :

ـ قلت لك أضجرتنى !امش من هنا!

ـ مفهوم يا صاحب المعالى! ولكنى بخصوص زوجتى . . لأن النقود، إذا أردتم سيادتكم أن تعرفوا، هى نقود البقرة . . بعنا البقرة للأب يهوذا . .

ـ آه . . وتجسر على الكلام أيها الحشرة!

وطوح النقيب ذراعه و . . طراخ! وتساقط الفحم من على ظهر ميركولوف، ومن عينيه تطاير الشرار، ومن يديه سقطت القبعة . . وتملك الذهول أكسينيا . ووقفت متصلبة حوالى دقيقة، مثل زوجة لوط عندما تحولت إلى عمود ملح، ثم خطت إلى الأمام ونظرت بوجل إلى وجه زوجها . . ولدهشتها البالغة كان وجه ميركولوف يتهلل بابتسامة غبطة، بينما اغرورقت عيناه الضاحكتان بالدموع . .

ودمدم :

ـ هؤلاء هم السادة الحقيقيون! أناس مهذبون، مثقفون. . بالضبط كما حدث. . وفى نفس المكان. . عندما حملت المعطف إلى البارون شبوتسيل، إدوارد كارليتش. . طوح يده و. . طراخ! والسيد الملازم زيمبولاتوف أيضا. . جئت إليه فهب واقفا وبكل قوته. . أوه راح ذلك الزمن يا زوجتى! أنت لا تفهمين شيئا! راح زمنى! وأشاح ميركولوف بيده، ثم جمع الفحم، ومضى إلى البيت.

المصيبة

يحمل الخراط جريجورى بتروف، المعروف منذ زمن بعيد كأسطى رائع، وفى الوقت نفسه كواحد من أكثر الرجال ضلالا فى مقاطعة جالتشينسك كلها، زوجته العجوز المريضة إلى المستشفي المحلي. كان عليه أن يقطع حوالى ثلاثين فرسخا، بينما الطريق فظيع لا يقوى عليه حتى حوذى البريد الحكومى، لا هذا الكسول، الخراط جريجورى. ففى الوجه مباشرة تضرب ريح حادة باردة. وفى الهواء، حيثما نظرت تدور سحب كاملة من ندف الثلج، حتى إن الناظر لا يعرف هل يسقط الثلج من السماء أم يصعد من الأرض. ومن خلف الضباب الثلجى لا يبين الحقل ولا أعمدة البرق ولا الغابة، وعندما تهب على جريجورى دفقة ريح قوية بشكل خاص لا يعود يرى حتى قوس الحصان. والفرس العجوز المتهالكة تجر قوائمها بالكاد. فقد تبددت كل طاقتها فى سحب القوائم من الثلج العميق وفى هز الرأس. كان الخراط متعجلا. وراح يقفز فوق مقعده بقلق وينهال بالسوط كثيرا على ظهر الفرس، وهو يدمدم:

- لا تبكى يا متريونا.. اصبرى قليلا. إن شاء الله نصل إلى المستشفى، وعلى الفور يذهب منك هذا الـ.. سيعطيك بافل إيفانيتش قطرات، أو يأمر بحجمك، أو ربما يتفضل فيدلكونك بالكحول، وعندئذ يذهب عن جنبك هذا الـ.. سيبذل بافل إيفانيتش جهده.. سيصيح بنا، ويضرب الأرض بقدميه، لكنه سيبذل جهده.. إنه سيد عظيم، عطوف، ربنا يعطيه الصحة.. عندما نصل سيخرج على الفور من مسكنه ويبدأ قبل كل شيء

فى السباب والصياح: «كيف؟ ما هذا؟ لماذا؟ لماذا لم تأت فى الوقت المناسب؟ وهل أنا كلب حتى أضيع اليوم كله فى مشاكلكم أيها الشياطين؟ لماذا لم تأت فى الصباح؟ امش من هنا! إياك أن تراك عيناى. تعال غدا». فأقول له: «ياحضرة الدكتور! يا بافل إيفانيتش! يا صاحب السعادة!». هيا سيرى، سيرى عليك اللعنة! هيا!

وينهال الخراط على الفرس، ودون أن ينظر إلى زوجته العجوز يستطرد وهو يدمدم لنفسه:

ـ «يا صاحب السعادة! الله شاهد على ما أقول.. بحق الصليب. لقد خرجت مع الفجر.. ولكن كيف تصل فى الموعد إذا كان الرب.. قد غضب وأرسل هذه العاصفة؟ ها أنتم ترون بأنفسكم.. حتى الفرس الأصيلة لا تقوى على السير، أما أنا فكما ترون ليس ما عندى فرس بل مصيبة!». فيعبس بافل إيفانيتش ويصيح: «أنا أعرفكم! دائما تجدون لكم مخرجا! خاصة أنت يا جريشكا! أعرفك من زمان! تراك عرجت على الحانة خمس مرات!» فأقول له «يا صحاب السعادة! هل تظنوننى عربيدا أم كافرا! العجوز تلفظ أنفاسها، تموت، وأنا أعرج على الحانات! ماذا تقولون! فليحل بها الخراب هذه الحانات!». عندئذ يأمر بافل إيفانيتش بنقلك إلى المستشفى. أما أنا فأرتمى على قدميه.. «يا بافل إيفانيتش! يا صاحب السعادة! نشكركم من صميم القلب! سامحنا نحن الحمقى، الملاعين، لا تؤاخذنا نحن الفلاحين! نستحق منكم الطرد، وبدلا من ذلك تهتمون بنا وتلوثون أقدامكم فى الثلج». وينظر بافل إيفانيتش إلىّ وكأنه يريد أن يضربنى، ويقول: «بدلا من الارتماء على قدمىّ كان من الأفضل، أيها الأحمق، ألا تشرب الفودكا، وتعطف على عجوزك. إنك تستحق الجلد!» ـ عين الحقيقة يا بافل إيفانيتش، أستحق الجلد، أى والله استحقه! وكيف لا نرتمى على قدميكم إذا كنت راعينا وأبانا؟ يا صاحب السعادة! أقول لكم الحق.. والله شاهد.. أبصقوا فى عينى لو كنت أكذب عليكم:

بمجرد أن تشفى زوجتى متريونا، وتقف يعنى على قدميها سأفعل كل ما أمرتم، جنابكم، به! لو أردتم صنعت لكم علبة سجاير من خشب البتولا الكاريلية.. أو كرات للكروكيت، وأستطيع أن أخرط كيلا مثل الأجنبية بالضبط.. سأصنع من أجلكم أى شىء! ولن آخذ منكم كوبيكا! فى موسكو يأخذون أربعة روبلات مقابل مثل هذه العلبة، أما أنا فلن آخذ كوبيكا». فيضحك الدكتور ويقول: «طيب، طيب.. مفهوم! إنما من المؤسف أنك سكير».. إننى أعرف يا أختى العجوز كيف أتعامل مع السادة. لا يوجد سيد لا أستطيع التفاهم معه. المهم أن يلطف ربنا ولا نضل الطريق. أوه يا للعاصفة! تعمى العيون!

ويمضى الخراط فى دمدمته بلا توقف. يتحرك لسانه آليا لكى يكبت ولو إلى حد ما إحساسه المرهق. والكلمات على طرف اللسان كثيرة، ولكن الأفكار والتساؤلات فى الرأس أكثر. لقد دهمته المصيبة على غرة، بلا توقع أو انتظار، وها هو ذا الآن لا يستطيع أن يفيق ويثوب إلى رشده ويفهم. كان يعيش حتى الآن بلا هموم، عيشة ساكنة، فى غيبوبة ثملة، لا يدرى ما الحزن وما الفرحة، وفجأة أصبح يحس الآن فى صدره بألم رهيب. لقد وجد هذا الكسول اللامكترث والسكير نفسه فجأة وبلا مقدمات فى وضع رجل مشغول، مهموم، متعجل، بل رجل يصارع الطبيعة.

ويذكر الخراط أن مصيبته بدأت بالأمس مساء. فعندما عاد مساء الأمس إلى البيت، ثملا كالعادة، وراح بحكم العادة القديمة يسب ويلوح بقبضته، نظرت العجوز إلى زوجها الهائج كما لم تنظر إليه أبدا من قبل. كانت نظرة عينيها الهرمتين فى العادة معذبة، مستكينة، كنظرة الكلب الذى يضربونه كثيرا ويطعمونه قليلا، أما الآن فكانت نظرتها صارمة وثابتة كنظرة القديسين فى الأيقونات أو الأموات. ومن هاتين العينين الغريبتين اللتين لا تبشران بخير بدأت المصيبة. وأسرع الخراط المصعوق إلى جاره

يسأله حصانه، وها هو ذا الآن يحملها إلى المستشفى، على أمل أن يعيد بافل إيفانيتش بمساحيقه ومراهمه إلى العجوز نظرتها السابقة. ويدمدم الخراط:

ـ اسمعي يا متريونا.. إذا سألك بافل إيفانيتش هل ضربتك أم لا، قولي: أبدا! ولن أضربك بعد..

أقسم لك بالصليب. وهل كنت أضربك عمدًا؟ أبدا، هكذا، بلا داع. أنا أعطف عليك يا متريونا. ولو كان غيري في مكاني لما اهتم، أما أنا فها أنا ذا أحملك.. وأبذل جهدي. أوه، يا لها من عاصفة! حكمتك يا رب! اللهم الطف بنا حتى لا نضل الطريق.. ماذا هل جنبك يؤلمك؟ لماذا لا تردين يا متريونا؟.. إنني أسألك: هل جنبك يؤلمك؟

ويبدو له غريبًا أن الثلج لا يذوب على وجه العجوز، والغريب أيضا أن وجهها ذاته قد استطال بصورة خاصة واكتسب لونا رماديا شاحبا عكرا كالشمع، وأصبح صارما، جادا.

ويدمدم الخراط:

ـ يا لك من حمقاء! أنا أحدثك من صميم قلبي، يشهد الله، وأنت.. هذا.. يا لك من حمقاء! اسمعي وإلا فلن أحملك إلى بافل إيفانيتش!

ويرخي الخراط اللجام ويستغرق في التفكير. ولا يجرؤ على النظر إلى العجوز هذا مخيف! ومن المخيف أيضا أن يوجه إليها سؤالا فلا يتلقى الجواب. وأخيرا، ولكي يقطع الشك باليقين، يتلمس ذراع العجوز الباردة دون أن يلتفت إليها. وتسقط الذراع المرفوع كجلدة السوط.

ـ إذن فقد ماتت! يا للمصيبة!

ويبكي الخراط. لا من الأسى بقدر ما هو من الحنق. ويفكر: ما أسرع ما يجري كل شيء في هذه الدنيا! ما إن بدأت مصيبته حتى حلت النهاية.

لم يكد يعيش مع عجوزه، ويصارحها بما فى قلبه، ويعطف عليها حتى ماتت. . لقد عاش معها أربعين عاما، ولكن هذه الأعوام الأربعين مرت وكأنها ملفعة بالضباب. ومن خلف سحب السكر والعراك والفاقة لم يكن ثمة إحساس بالحياة. وكأنما نكاية به ماتت العجوز فى تلك اللحظة التى أحس فيها أنه يعطف عليها، ولا يقوى على العيش بدونها، ومخطئ فى حقها بصورة رهيبة.

ويتذكر الخراط:

ـ لقد كانت تتسول! أنا الذى أرسلتها تسأل الناس خبزا، يا للمصيبة. هذه الحمقاء كان ينبغى أن تعيش عشر سنوات أخرى، وإلا فربما تظن أننى هكذا بالفعل. يا إلهى، إلى أى شيطان أمضى الآن؟ ينبغى الآن دفنها لا علاجها. هيا، دورى!

ويدير الخراط الزحافة عائدا بها، وينهال بكل قوته على الفرس بالسوط. ومع كل لحظة يزداد الطريق سوءا. الآن لم يعد قوس الحصان مرئيا على الإطلاق. وأحيانا تدوس الزحافة على شجرة شوح صغيرة، فيخدش هذا الشيء المظلم أيدى الخراط، ويمرق أمام عينيه، ثم يصبح مجال الرؤية من جديد أبيض مدوّما.

ويفكر الخراط: «آه لو تبدأ الحياة من جديد». .

ويتذكر أن متريونا كانت منذ أربعين عاما شابة جميلة مرحة، من بيت غنى. وقد زوجوها منه إذ أغرتهم مهارته كأسطى. وكانت كل المقومات متوفرة لحياة طيبة، ولكن المصيبة أنه منذ أن شرب حتى ثمل بعد حفلة العرس، وتمدد فوق الفرن، فكأنما لم يستيقظ حتى الآن. إنه يذكر حفلة العرس، أما ما حدث بعد العرس فلا يذكر منه شيئا على الإطلاق، اللهم إلا أنه كان يشرب ويرقد ويتعارك. وهكذا ضاعت الأعوام الأربعون.

وتبدأ السحب الثلجية البيضاء فى التحول شيئا فشيئا إلى اللون الرمادى. ويحل الغسق.

وفجأة يستدرك الخراط :

ـ إلى أين أنا ذاهب؟ ينبغى دفنها بينما أذهب بها إلى المستشفى . . كأنما جننت!

ويدير الخراط الزحافة مرة أخرى، وينهال من جديد على الفرس . وتستجمع الفرس كل قواها، وتركض بخبب قصير وهى تشخر . ويضربها الخراط بالسوط على ظهرها المرة تلو المرة . . ومن خلفه تتردد دقات ما، ورغم أنه لا يتلفت إلا أنه يعرف أن ذلك صوت ارتطام رأس المرحومة بالزحافة . بينما الجو يزداد ظلاما، وتصبح الريح أكثر حدة وبرودة . .

ويفكر الخراط : «لو تبدأ الحياة من جديد . . لحصلت على عدة جديدة، ولتلقيت الطلبات . . ولأعطيت النقود للعجوز . . نعم!»

وها هو يفلت اللجام من يديه . ويبحث عنه، ويريد أن يرفعه، ولكنه لا يستطيع . يداه لا تستجيبان له . .

ويفكر : «سيان . . ستمضى الفرس بنفسها، فهى تعرف الطريق . . فلأنم قليلا . . فإلى أن تحين الجنازة والقداس، فلأنم قليلا» .

ويغمض الخراط عينيه وينعس . وبعد قليل يسمع أن الفرس توقفت . ويفتح عينيه فيرى أمامه شيئا مظلما يشبه المنزل أو كوم الدريس . .

ومن المفروض أن ينزل من الزحاقة ليعرف ما الأمر، ولكن خدرا شديدا يستولى على جسده كله، حتى إنه يفضل أن يتجمد على أن يتحرك من مكانه . . ويغيب فى سبات قرير .

ويستيقظ فى غرفة كبيرة، بجدران مطلية . من النوافذ ينساب ضوء الشمس الساطع . ويرى الخراط أمامه أناسا، وأول ما يفكر فيها أن يبدو أمامهم رجلا رزينا، حصيفا، فيقول :

ـ ينبغى إقامة قداس العجوز يا إخوان! فلتخبروا أبانا . .

ولكن صوتا ما يقاطعه :

ـ طيب ، طيب ! ارقد .

فيدهش الخراط حين يرى الدكتور أمامه :

ـ يا مولانا ! بافل إيفانيتش ! يا صاحب السعادة ! يا راعينا !

ويود أن يقفز ويرتمى على قدمى الطبيب ، ولكنه يشعر أن ساقيه ويديه لا تستجيب له .

ـ يا صاحب السعادة ! أين ساقاى؟ أين يداى؟

ـ ودِّع يديك وساقيك . . تجمدت ! مهلا ، مهلا . . لمَ تبكى؟ عشت حياتك فاحمد الله ، تراك عشت ستين سَنة . . يكفيك هذاَ !

ـ مصيبة ! . . مصيبة يا صاحب السعادة ! أرجو المعذرة والسماح ! لو خمس أو ست سنوات أخرى . .

ـ لماذا؟

ـ الفرس ليست لى ، يجب أن أردها . . وأدفن العجوز . . ما أسرع ما يجرى كل شىء فى هذه الدنيا ! يا صاحب السعادة ! بافل إيفانيتش ! علبة سجاير ممتازة من خشب البتولا الكاريلية ! كرة كوركيت أخرطها . . ويشيح الدكتور بيده ويخرج من الغرفة . وعلى الخراط السلام !

جهاز العروس

رأيت فى حياتى بيوتا كثيرة، كبيرة وصغيرة، حجرية وخشبية، قديمة وجديدة، ولكن واحدا منها هو الذى انطبع فى ذاكرتى بصفة خاصة. كان منزلا صغيرا، من طابق صغير واحد وثلاث نوافذ، يشبه إلى حد كبير عجوزا حدباء صغيرة بقلنسوة. كان مطليا بالجير الأبيض، بسطح قرميدى ومدخنة متساقطة الطلاء، وكان غارقا كله فى خضرة أشجار التوت والأكاسيا والحور التى غرسها أسلاف وأجداد أصحابه الحاليين. لم يكن يرى من وراء الخضرة. وعموما فلم تمنعه وفرة الخضرة هذه من أن يكون بيتا حضريا. ويقف فناؤه الواسع فى صف واحد مع الأفنية الأخرى، الواسعة والخضراء أيضا، ويدخل فى نطاق شارع موسكوفسكايا. وفى هذا الشارع لا تمر العربات أبدا، ومن النادر أن يسير به أحد.

وشيش النوافذ فى هذا البيت مغلق دائما، فسكانه لا يحتاجون إلى الضوء. إنهم فى غنى عنه. والنوافذ لا تفتح أبدا، لأن سكان البيت لا يحبون الهواء المنعش. فالناس المقيمون دائما وسط أشجار التوت والأكاسيا وأحراش الأرقطيون لا مبالون تجاه الطبيعة. المصطافون وحدهم هم الذين حباهم الله القدرة على فهم جمال الطبيعة، أما بقية البشرية فتغط فى جهل عميق فيما يخص هذا الجمال. لا يقدر الناس ما لديهم من ثروة. ما نملكه لا نحافظ عليه، بل والأكثر من ذلك أن ما تملكه اليد تزهده النفس. وحول المنزل جنة دنيوية: خضرة، وطيور مغردة، أما فى المنزل فيا

للأسف! فى الصيف يكون الجو فيه قائظا خانقا، وفى الشتاء حارا كما فى الحمام، مكتوما، ومملا، مملا . .

زرت هذا المنزل أول مرة منذ زمن بعيد، زيارة واجب . . فقد جئت حاملا التحية من صاحب البيت العقيد تشيكماسوف إلى زوجته وابنته . وأذكر جيدا تلك الزيارة الأولى، إذ يستحيل أن أنساها .

تصوروا امرأة صغيرة رخوة، فى حوالى الأربعين، تنظر إليك برعب ودهشة وأنت تدلف من المدخل إلى الصالة . فأنت «غريب»، ضيف، «شاب» . . وفى هذا الكفاية لكى تثير الدهشة والرعب . وليس فى يدك هراوة أو فأس أو مسدس بل تبتسم بود، ولكنهم يلقونك بارتياب .

وتسألك بصوت متهدج امرأة كهلة، فتعرف صاحبة البيت تشيكماسوفا :

- من الذى يشرفنى ويسرنى أن أراه؟

فتقول لها من أنت، وتشرح سبب مجيئك، فتحل صيحة «آه» الفرحة المدوية واتساع العيون محل الرعب والدهشة . وتنتقل هذه «الآه» كالصدى من المدخل إلى الصالة، ومن الصالة إلى غرفة الجلوس، ومن غرفة الجلوس إلى المطبخ . . وهكذا حتى القبو نفسه . وسرعان ما يمتلئ البيت الصغير «بالآهات» الفرحة المتعددة النبرات . وبعد حوالى خمس دقائق تجد نفسك جالسا فى غرفة الجلوس، على كنبة كبيرة وثيرة ساخنة، وتسمع شارع موسكوفسكايا وقد راح يتأوه كله .

فاحت رائحة مسحوق العثة وحذاء جديد من جلد العنز كان ملفوفا فى منديل وموضوعا على مقعد بجوارى . وعلى النوافذ نبات الجيرانيوم وستائر حقيرة من قماش الموسلين . وعليها ذباب شبعان . وعلى الحائط صورة مطران مرسومة بالزيت ومغطاة بزجاج إحدى زواياه مكسورة . ومن المطران يمتد عدد من الأجداد بوجوه غجرية صفراء ليمونية . وعلى

الطاولة كستبان وبكرة خيط وجورب حريمى لم تكتمل حياكته، وعلى الأرض بترونات تفصيل وبلوزة سوداء بخيوط تسريج. وفى الغرفة المجاورة امرأتان عجوزان بدا عليهما الاضطراب والذهول وهما تلتقطان من الأرض البترونات وقطع الأقمشة القطنية . .

وقالت تشيكماسوفا :

ـ عفوا، عندنا فوضى فظيعة!

كانت تشيكماسوفا تتحدث معى وهى تتطلع شزرا وبحرج إلى الباب الذى كانوا لا يزالون خلفه يرفعون البترونات. وكان الباب أيضا تارة ينفرج بحرج مقدار شبر، وتارة يوصد.

وقالت تشيكماسوفا مخاطبة الباب :

ـ حسنا، وماذا تريدين؟

فسأل صوت نسائى من وراء الباب :

_ OU est mon cravatte, lequel mon pére m'avait envoyé de koursk?(١)

_ Ah, est ce que, Marie, que..(٢)

آه، هل يمكن . .

nous avons donc chez nous un homme trés peu connu par nous ...(٣)

اسألى لوكيريا.

وقرأت فى عينى تشيكماسوفا المتضرجة من المتعة :

«انظر كيف نتحدث الفرنسية جيدا!».

---

(١) أين رابطة عنقى التى أرسلها لى أبى من كورسك؟ (بالفرنسية فى الأصل). **(المعرب)**.
(٢) آه، هل يا ماريا . . . (بالفرنسية فى الأصل). **(المعرب)**.
(٣) عندنا شخص لا نعرفه إلا قليلا جدا . . . (بالفرنسية فى الأصل). **(المعرب)**.

وسرعان ما فتح الباب فرأيت فتاة طويلة نحيلة، فى حوالى التاسعة عشرة، فى فستان طويل من الموسلين وحزام مذهب، أذكر أنه كانت تتدلى منه مروحة صدفية. دخلت الغرفة، وجلست وتضرجت. فى البداية تضرج أنفها الطويل المجدور قليلا، ومن أنفها انتقلت الحمرة إلى عينيها، ومن عينيها إلى صدغيها.

وقالت تشيكماسوفا بصوت منغم:

ـ ابنتى! وهذا يا مانيتشكا هو الشاب الذى..

وتعرفت بها وأعربت عن دهشتى بصدد البترونات الكثيرة. وخفضت الأم وابنتها بصرهما.

وقالت الأم:

ـ فى عيد الصعود أقيمت هنا سوق. ونحن دائما نشترى من السوق قماشا، ونقضى السنة كلها فى خياطته حتى السوق التالية. إننا لا نخيط عند أحد أبدا. فزوجى بيوتر سيميونتش لا يكسب كثيرا، لذلك لا نسمح لأنفسنا بالبذخ. نضطر إلى الخياطة بأنفسنا.

ـ ولكن من لديكم يلبس كل هذه الثياب؟ ألستما اثنتين فقط؟

ـ آه.. وهل هذا يمكن لبسه؟ هذا ليس للبس! إنه جهاز العروس!

فقالت الابنة وهى تتضرج:

ـ آه يا maman ماذا تقولين؟ حضرته قد يظن بالفعل.. لن أتزوج أبدا! أبدا!

قالت ذلك، بينما توقدت عيناها وهى تنطق كلمة «أتزوج».

ثم جاءوا بالشاى والخبز المقدد والمربى والزبد، وبعد ذلك أطعمونى توت العليق بالقشدة. وفى الساعة السابعة مساء قدموا العشاء من ستة

أطباق. وأثناء العشاء سمعت تثاؤبا عاليا. . ففى الغرفة المجاورة تثاءب أحد ما بصوت عال. ونظرت إلى الباب بدهشة، إذ لا يمكن أن يتثاءب هكذا إلا رجل.

وأوضحت تشيكماسوفا وقد لا حظت دهشتى:

ـ هذا أخو بيوتر سيميونتش. . يجور سيميونتش. . إنه يعيش معنا من العام الماضى. اعذره، فهو لا يستطيع الخروج لمقابلتك. . إنه خجول. . يتجنب الغرباء. . ينوى الاعتزال فى دير. . اساءوا إليه فى الخدمة. . ولهذا قرر من الأسى. .

وبعد العشاء أرتنى تشيكماسوفا وشاحا طرزه يجور سيميونتش بنفسه، لكى يتبرع به للكنيسة. وطرحت مانيتشكا عنها الخجل لحظة وأرتنى كيس تبغ طرزته لأبيها. وعندما تظاهرت بأننى مبهور بمهارتها تضرجت وهمست فى أذن أمها بشيء ما. فتهللت أسارير الأم وعرضت علىّ أن أذهب معها إلى غرفة المخزن. وهناك رأيت حوالى خمسة صناديق كبيرة وكثرة من الصناديق الصغيرة والعلب.

وهمست لى الأم:

ـ إنه. . جهاز العروس! خيطناه بأنفسنا.

وبعد أن تفرجت على هذه الصناديق الجهمة رحت أودع أصحاب الدار الكرماء. وأخذو علىّ عهدا بأن أزورهم مرة أخرى فى وقت ما.

وقد وفيت بعهدى هذا بعد حوالى سبع سنوات من زيارتى الأولى، عندما أرسلت إلى هذه المدينة كخبير قانونى فى إحدى القضايا. وعندما دلفت إلى البيت المألوف سمعت نفس الآهات. . وعرفونى. . وكيف لا! لقد كانت زيارتى الأولى حدثا كبيرا فى حياتهم، وحيث تكون الأحداث قليلة تبقى فى الذاكرة طويلا. وعندما دخلت قاعة الجلوس رأيت الأم،

التى أصبحت أكثر بدانة وأبيضّ شعرها، تزحف على الأرض وهى تفصّل قماشا أزرق، وكانت الابنة جالسة على الكنبة تطرز. نفس البترونات، ونفس رائحة مسحوق العتة، ونفس اللوحة بزاويتها المكسورة. ومع ذلك كان هناك بعض التغيير. فبجوار صورة المطران علقت صورة بيوتر سيميونتش، وارتدت السيدات ثياب الحداد. لقد مات بيوتر سيميونتش بعد أسبوع من ترقيته إلى رتبة جنرال.

وبدأت الذكريات.. وأجهشت زوجة الجنرال وهى تقول:

- حلت بنا فاجعة كبيرة! بيوتر سيميونتش - هل تعلم؟ - لم يعد على قيد الحياة. أصبحنا أنا وهى يتامى، وعلينا أن نعنى بشئوننا بأنفسنا. أما يجور سيميونتش فلا نستطيع أن نقول عنه أى شىء طيب. لم يقبلوه فى الدير بسبب.. مشروباته القوية. والآن أصبح يشرب أكثر من جراء الحزن. إننى أنوى الذهاب إلى رئيس النبلاء للشكوى. تصور! إنه فتح الصناديق عدة مرات و.. استولى على جهاز مانيتشكا وتبرع به للسائلين. بدد محتويات صندوقين! وإذا استمر الحال هكذا فستبقى ابنتى مانيتشكا بدون جهاز اطلاقا..

فقالت مانيتشكا وهى تشعر بالخجل:

- ماذا تقولين يا maman! حضرته قد يتصور الله يعلم ماذا.. أنا لن أتزوج أبدا، أبدا!

وتطلعت مانيتشكا إلى السقف بإلهام وأمل، ويبدو أنها لم تكن تؤمن بما تقوله.

وفى المدخل مرق ظل لرجل صغير بصلعة كبيرة وفى سترة بنية، ينتعل خفا بدلا من الحذاء، وخشخش هناك كالفأر.

وقلت لنفسى: «لابد أنه يجور سيميونتش».

ونظرت إلى الأم وابنتها معا . . لقد هرمتا كلتاهما بشدة وهزلتا . وتموج رأس الأم بلون فضى ، أما ابنتها فانطفأ لونها وذبلت ، وبدا وكأن الأم لا تكبرها إلا بخمس سنوات لا أكثر .

ـ إننى أنوى الذهاب إلى رئيس النبلاء ـ قالت العجوز وقد نسيت أنها تحدثت عن ذلك من قبل ـ أريد أن أشتكى له ! يجور سيميونتش يستولى منا عل كل ما نخيطه ، ويتبرع به فى مكان ما للتكفير عن ذنوبه . ابنتى مانيتشكا أصبحت بدون جهاز !

وتضرجت ما نيتشكا ولكنها لم تنبس بكلمة .

ـ نضطر إلى خياطة كل شىء من جديد ، ونحن والله يعلم لسنا أغنياء . أنا وهى يتامى !

ورددت مانيتشكا :

ـ نحن يتامى !

فى العام الماضى ألقت بى المقادير مرة أخرى إلى البيت المعهود وعندما دلفت إلى غرفة الجلوس رأيت العجوز تشيكماسوف . كانت جالسة على الكنبة تخيط شيئا ما ، وكانت ترتدى فستانا أسود بحواشى الحداد . وجلس بجوارها رجل عجوز فى سترة بنية وخف بدلا من الحذاء . وعندما رآنى قفز واقفا وركض خارجا من الغرفة .

وابتسمت العجوز ردا على تحيتى وقالت :

_ je suis charmée de vous revoir, monsieur . (١)

وسألتها بعد قليل :

ـ ماذا تخيطين؟

فقالت هامسة :

---

(١) سعيدة جدا برؤيتكم ثانية ياسيدى بالفرنسية فى الأصل) . **(المعرب)** .

ـ هذا قميص. سأخيطه وأحمله إلى أبينا لأخبئه عنده، وإلا أخذه يجور سيميونتش. أصبحت الآن أخبئ كل شيء عند أبينا..

ثم نظرت إلى صورة ابنتها الموضوعة أمامها على الطاولة، وتنهدت ثم قالت:

ـ إننا يتامى!

ولكن أين ابنتها؟ أين مانيتشكا؟ لم أسألها. لم أشأ أن أسأل هذه العجوز المجللة بسواد الحداد. وطوال مكوثي في البيت ولأثناء انصرافي لم تخرج مانيتشكا للقائي، ولم أسمع لا صوتها ولا خطواتها الخافتة الوجلة.. كان كل شيء واضحا، وتملكني انقباض شديد.

دموع لا يراها العالم

ـ آه يا سادة يا كرام لو نتعشى الآن . .

قال القائد العسكرى المقدم ريبروتيوسوف، وهو رجل طويل نحيف كعمود البرق، وكان خارجا من النادى مع جماعة من أصحابه ذات ليلة مظلمة من شهر أغسطس. ومضى يقول :

ـ فى المدن المحترمة، مثل ساراتوف، يمكنك دائما أن تتعشى فى النادى، أما هنا، فى مدينتنا العفنة تشيرفيانسك، فبخلاف الفودكا والشاى بالذباب لا تحصل على شىء. ليس هناك ما هو أسوأ من أن تشرب ولا تجد ما تمز به!

ـ نعم، لا بأس الآن بشىء ما، هكذا يعنى . . ـ أمَّن مفتش المعهد الدينى إيفان إيفانيتش دفويتوتشيف وهو يلتف بمعطفه الأصفر اتقاء للريح ـ الساعة الآن الثانية، والحانات مغلقة، آه لو يعنى فسيخة مملحة . . أو فطر مخلل . . أو يعنى شىء ما هكذا . .

وحرك المفتش أصابعه فى الهواء، ورسم على وجهه أكلة، يبدو أنها شهية جدا، لأن كل من نظروا إلى وجهه لعقوا شفاههم. وتوقفت الجماعة عن السير وأخذت تفكر. وفكرت طويلا، ولكن تفكيرها لم يتفتق عن شىء يؤكل. واضطرت إلى الاكتفاء بالأحلام فقط.

وتنهد نائب مأمور المركز بروجينا ـ بروجينسكى وقال :

ـ ياله من ديك رومى عظيم ذلك الذى أكلتــــه بالأمس عند جولوبيسوف . . بالمناسبة يا سادة، ألم يزر أحد منكم وارسو؟ هناك يفعلون هكذا . . يأخذون سمك الشبوط العادى، وهو حى . . يتلوى، ويلقون به فى اللبن . . ويظل هذا الوغد يعوم فى اللبن يوما، وبعد ذلك يغمسونه فى القشدة ويقلونه فى مقلاة تطشطش . . وعند ذلك لا حاجة يا أخى لأناناسك! أى والله . . خاصة إذا شربت كأسا أو كأسين . . تأكل ولا تحس . كأنك فى غيبوبة . . الرائحة وحدها تجنن! . .

فأردف ريبروتيوسوف بنبرة مشاركة قلبية :

ـ فإذا أضفت إليه خيارا مملحا . . عندما كنا معسكرين فى بولندا كان يحدث أن تحشر فى جوفك حوالى المائتين من البيلمينى مرة واحدة . . تملأ بها طبقا كاملا، وترش عليها الفلفل والشبت والبقدونس و . . لا أستطيع أن أعبر لكم!

وتوقف ريبروتيوسوف فجأة واستغرق فى التفكير . تذكر حساء السمك الذى أكله عام ١٨٥٦ فى دير الثالوث الأقدس . وكانت ذكرى هذا الحساء لذيذة إلى درجة أن القائد العسكرى شم فجأة رائحة السمك وحرك فكيه لا إراديا ولم يلحظ تسرب الوحل إلى خف حذائه .

وقال :

ـ كلا، لا أستطيع، لا أستطيع أن أصبر أكثر!

سأذهب إلى البيت وأمتع نفسى . اسمعوا يا سادة، فلتأتوا معى! أى والله! لنشرب كأسا، ونمز بما رزقنا به الله . خيار، مرتدلة . . ونشعل السماور . . هه؟ لنمز، ونتحدث عن الكوليرا، ونتذكر ما مضى . . زوجتى نائمة الآن، لن نوقظها . . سنجلس فى هدوء . . هيا بنا!

ولا حاجة لوصف الإعجاب الذى قوبل به هذا العرض . يكفى فقط أن أقول إنه لم يكن لدى ريبروتيوسوف فى أى وقت مضى مثل هذه الكثرة من الخيِّرين كما كان لديه فى هذه الليلة .

ـ سأقطع أذنيك . . ـ قال القائد العسكرى لجندى المراسلة وهو يدخل بالضيوف إلى غرفة الجلوس المظلمة ـ قلت لك ألف مرة يا حيوان أن تشعل البخور عندما تنام فى المدخل . اذهب يا غبى وأشعل السماور، وقل لإيرينا أن تحضر الـ . . أن تحضر من القبو خيارا وفجلا . . ونظف بعض الفسيخ . . وقطِّع البطاطس دوائر . . والبنجر أيضا . . وكل هذا صب عليه الخل والزيت، يعنى، والمسطردة أيضا . . ورش الفلفل فوقه . . باختصار طبق مزة . . مفهوم؟

وحرك ريبروتيوسوف أصابعه مصوراً الخلطة، وأضاف إلى المزة بتعابير وجهه ما لم يستطع أن يضيفه بالكلمات . . وخلع الضيوف أخفافهم ودلفوا إلى القاعة المظلمة . وأشعل صاحب البيت عود ثقاب ففاحت رائحة الكبريت، وأضاء الجدران المزينة بهدايا مجلة «نيفا» ومناظر البندقية وصورتين للكاتب لاجيتشنيكوف وجنرال ما بعينين مدهوشتين للغاية .

ـ حالا، حالا . . ـ همس رب الدار وهو يوسع المنضدة بهدوء . ـ سأعد المائدة ثم نجلس . . ماشا زوجتى مريضة اليوم . . ارجو المعذرة إذن . . عندها مرض نسائى ما . . الدكتور جوسين يقول إن ذلك بسبب أكل الصيام . . جائز جدا! ولكنى أقول لها : «يا روحى، ليست المسألة فى الأكل! ليست المسألة فيما يدخل الفم بل فيما يخرج من الفم . . فأنت تأكلين أكل الصيام، ولكنك عصبية كما كنت . . وبدلا من أن تتعبى جسدك، الأفضل ألا تغضبى، وألا تتفوهى بكلمات . . » ولكنها لا تريد حتى أن تسمع! تقول : «لقد تعودنا على ذلك منذ الصغر» .

ودخل جندى المراسلة، ومد عنقه وأسر بشىء ما فى أذن رب الدار . . ولعَّب ريبروتيوسوف حاجبيه . .

ودمدم بصوت كالخوار :

ـ هم . . نعم . . هم . . هكذا . . عموما بسيطة . . حالا سأعود . .

دقيقة واحدة . . ماشا أوصدت القبو والخزائن فى وجه الخدم وأخذت المفاتيح . ينبغى أن أذهب لإحضارها . .

وصعد ريبروتيوسوف على أطراف أصابعه، وفتح الباب بهدوء، ودخل على زوجته . . كانت نائمة .

وقال وهو يقترب بحذر من السرير :

ـ يا ماشا ! استيقظى دقيقة واحدة يا ماشا !

ـ من؟ أهو أنت؟ ماذا تريد؟

ـ أنا يا ماشنكا بخصوص الـ . . أعطينى يا ملاكى المفاتيح ولا تقلقى . . نامى مطمئنة . . أنا سأهتم بهم . . سأعطى كلا منهم خيارة، ولن أبدد أكثر من ذلك شيئا . . أقسم لك . . هناك دفويتوتشيف، أتدرين، وبروجينا ـ بروجينسكى وآخرون . . كلهم أشخاص رائعون . . محترمون فى المجتمع . . أتدرين بروجينسكى يحمل وسام فلاديمير من الطبقة الرابعة . . أوه، كم يحترمك . .

ـ أين سكرت إلى هذا الحد؟

ـ ها أنت ذى تغضبين . . يا سلام عليك . . سأعطى كلا منهم خيارة، وهذا كل شىء . . وسينصرفون . . أنا سأهتم بهم ولن نزعجك أبدا . . نامى يا لعبتى . . هه، وكيف صحتك؟ هل جاء جوسين فى غيابى؟ انظرى، ها أنا ذا أقبل يدك . . والضيوف كلهم، كم يحترمونك . . دفويتوتشيف رجل متدين، أتدرين . . وبروجينا، والصراف أيضا . . كلهم يكنون لك أطيب المشاعر . . يقولون : «ماريا بتروفنا ليست امرأة بل شىء عسير على الفهم . . إنها كوكب إقليمنا» .

ـ ارقد! كفاك هذرا! يسكر هناك فى النادى مع صعاليكه ثم يروح يغلى طول الليل! ألا تخجل! عندك أولاد! ٠

ـ أنا. . عندى أولاد، ولكن أرجوك ألا تغضبى يا ماشا. . لا تحزنى. . إننى أقدرك وأحبك. . والأولاد إن شاء الله سأدبر أمورهم. ميتيا سأدخله المدرسة. . لا أستطيع أن أطردهم. . لا يليق. . جاءوا ورائى وطلبوا أن يتعشوا. قالوا: «نريد أن نأكل، أطعمنا». . دفويتوتشيف وبروجينا ـ بروجينسكى. . ناس ظرفاء جدا. . كم يقدرونك ويعطفون عليك. . فلنعط كلا منهم خيارة، وكأسا، وليمضوا فى سبيلهم. . أنا سأتكفل بهم. .

ـ اللعنة! ماذا، هل جننت؟ أى ضيوف فى هذه الساعة؟ ألا يخجلون، هؤلاء الشياطين المتسولون، يزعجون الناس فى الليالى! من سمع بضيوف يأتون فى الليل؟ هل يظنون بيتنا حانة؟ سأكون حمقاء لو أعطيتك المفاتيح! فليفيقوا وليعودوا غدا!

ـ هم. . هلا قلت هذا من البداية. . إذن لما تذللت أمامك. . إذن فأنت لست بشريكة العمر، لست سلوى زوجك كما جاء فى الكتاب، بل. . من العيب أن أقول. . كنت أفعى وظللت أفعى. .

ـ آه. . وتشتم أيضا يا وغد؟

ونهضت الزوجة. . حكّ القائد العسكرى خده، ومضى يقول:

ـ ميرسى. . صحيح ما قرأته فى إحدى المجلات: «بين الناس قديس، ومع زوجها إبليس». . عين الحقيقة. . كنت إبليس، وظللت إبليس. .

ـ خذ، خذ!

ـ اضربى، اضربى. . اضربى زوجك الوحيد! ولكنى أرجوك، أتوسل إليك. . يا ماشا. . سامحينى! أعطينى المفاتيح! ماشا، يا ملاكى! يا معذبتى الشريرة، لا تفضحينى أمام الناس! أيتها المتوحشة، إلى متى ستعذبيننى؟ اضربى. . اضربى. . أرجوك. . بل أتوسل إليك!

واستمر حديث الزوجين بهذه الصورة طويلا . . ركع ريبروتيوسوف على ركبتيه، وبكى مرتين، وسب وهو يحك خده بين الحين والحين . . وانتهى الأمر بأن نهضت زوجته وبصقت وقالت :

- يبدو لن تكون نهاية لعذابى! أعطنى فستانى من على المقعد أيها الكافر!

وقدم لها ريبوتيوسوف الفستان بحرص، وسوى شعره، وذهب إلى ضيوفه. كان الضيوف واقفين أمام صورة الجنرال يتطلعون إلى عينيه المندهشتين وهم يقررون مسألة : من الأكبر، الجنرال أم الكاتب لاجيتشنيكوف؟ وكان دفويتوتشيف في صف لاجيتشنيكوف، مشددا على الخلود. أما بروجينسكى فقد قال :

- بالطبع هو كاتب جيد، لا شك في هذا . . ويكتب فيثير الضحك والشفقة، ولكن لو أرسلته إلى الجبهة فلن يستطيع قيادة حتى سرية، أما الجنرال فلتعطه ولو فيلقا كاملا، لن يهمه . .

وقال رب الدار وهو يدخل مقاطعا :

- زوجتى ماشا ستأتى الآن . . حالا . .

- لقد أزعجناكم حقا . . يا فيودر أكيميتش، ماذا حدث لخدك؟ يا إلهى، وتحت عينك كدمة! أين حصلت على هذا؟

فقال رب الدار محرجا :

- خدى؟ أين خدى؟ آه، نعم . . لقد ذهبت الآن إلى ماشا متسللا، أردت أن أخيفها، وإذا بى اصطدم فى الظلام بالسرير! ها . . ها . . ها هى ذى ماشا . . أوه كم أنت مشعثة يا عزيزتنى! مثل لويزا ميشيل تماما!

دخلت ماريا بتروفنا إلى القاعة، مشعثة الشعر، نعسانة، ولكنها متهللة ومرحة. وقالت :

ـ هذا لطيف منكم إذ جئتم إلينا! إذا كنتم لا تأتون إلينا فى النهار فشكراً لزوجى الذى جاء بكم ولو ليلا. كنت نائمة، وإذا بى أسمع أصواتا.. فقلت لنفسى: «ياترى من هؤلاء؟».. لقد أمرنى فيديا أن أرقد وألا أخرج، ولكنى لم أطق..

وهرولت الزوجة إلى المطبخ، وبدأ العشاء..

وعندما خرجوا بعد ساعة من دار القائد العسكرى قال بروجينا ـ بروجينسكى وهو يتنهد:

ـ ما أطيب أن تكون متزوجا! تأكل عندما تريد، وتشرب وقتما تشاء.. وتعلم أن هناك مخلوقا يحبك.. ويلعب لك على البيانو شيئا ما، هكذا.. ما أسعد ريبروتيوسوف!

أما دفويتوتشيف فلزم الصمت. كان يتنهد ويفكر. وعندما وصل إلى البيت وراح يخلع ملابسه، تنهد بصوت عال حتى أنه أيقظ زوجته.

ـ لا تدق بحذائك أيها الرحى! ـ قالت زوجته ـ تمنعنى من النوم. يشرب حتى السكر فى النادى ثم يثير الضجة، هذا المسخ!

فتنهد المفتش قائلا:

ـ لا تعرفين سوى السباب! لوأنك رأيت كيف يعيش آل ريبروتيوسوف! ما أروع حياتهم! عندما ينظر المرء إليهم يود لو يبكى من التأثر. أنا وحدى التعيس إذ بليت بشمطاء مثلك. أفسحى!

وتغطى المفتش بالبطانية، ونام وهو يشكو فى سره حظه البائس.

مع سبق الإصرار

أمام المحقق يقف فلاح صغير، نحيف للغاية، فى قميص مخطط وسروال مرقع. ويبدو على وجهه الذى غطاه الشعر وأكله النمش، وعينيه اللتين لا تكادان تظهران من تحت حاجبيه الكثيفين المتهدلين، تعبير صرامة عابسة. وعلى رأسه كومة من الشعر الملبد الذى لم يمشط منذ زمن طويل، مما يضفى عليه مزيدا من الصرامة العنكبوتية. وهو حافى القدمين.

ويبدأ المحقق:

ـ دينيس جريجوريف! اقترب وأجب عن أسئلتى. فى السابع من يوليو الجارى كان حارس السكة الحديدية إيفان سيميونوف أكينفوف يقوم بالتفتيش صباحا على الخط، فوجدك عند الكيلو ١٤١ متلبسا بفك صامولة من الصواميل التى تثبت بها القضبان على الفلنكات. وها هى ذى الصامولة! وقد قبض عليك ومعك هذه الصامولة. هل هذا هو ما حدث؟

ـ آه؟

ـ هل حدث هذا كما ذكر أكينفوف؟

ـ معلوم، حصل.

ـ طيب، ولأى غرض فككت الصامولة؟

ـ آه؟

ـ دعك من «آهك» هذه وأجب عن السؤال : لأى غرض فككت الصامولة؟

يقول دينيس بصوت أبح وهو يتطلع إلى السقف :

ـ لو لم أكن بحاجة إليها ما فككتها .

ـ وما حاجتك إلى الصامولة؟

ـ الصامولة؟ نحن نصنع منها ثقالات السنانير . .

ـ ومن هؤلاء «نحن»؟

ـ نحن، الناس . . فلاحو الناحية يعنى .

ـ اسمع يا أخانا، لا تتظاهر بالغباء وتكلم بصراحة . كفاك كذبا بخصوص الثقالات!

فيدمدم دينيس وهو يطرف بعينيه :

ـ أنا عمرى ما كذبت، فلماذا أكذب الآن . . وهل يمكن يا صاحب السعادة أن تصيد بدون ثقالة؟ لو وضعت حشرة أو دودة فى السنارة فهل يمكن أن تغوص إلى القاع بدون ثقالة؟ ـ ويضحك دينيس ضحكة قصيرة . ـ أكذب قال . . وأى فائدة من الطعم إذا بقى طافيا على سطح الماء؟ الفرخ والكراكى والبربوط دائما تعوم قرب القاع، وإذا عام شىء عند السطح فليس إلا الشيليشبيور وحتى هذا نادر . . الشيليشبيور لا يعيش فى نهرنا . . هذه السمكة تحب الوسع . .

ـ ولماذا تحدثنى عن الشيليشبيور؟

ـ أه؟ طيب، حضرتك سألتنى! السادة أيضا عندنا يصطادون بهذه

الطريقة. حتى أصغر عيل لن يصطاد بدون ثقالة. طبعا الذى لا يفهم هو الذى سيصطاد بدون ثقالة. العبيط لا عتب عليه..

ـ إذن أنت تعترف بأنك فككت هذه الصامولة لكى تصنع منها ثقالة؟

ـ مضبوط! وهل لألعب بها!

ـ ولكنك تستطيع أن تستخدم للثقالة الرصاص، أو الرش.. أو أى مسمار..

ـ الرصاص لن تجده ملقى على الطريق، لازم تشتريه، والمسمار لا ينفع. ليس هناك أحسن من الصامولة.. فهى ثقيلة وبها خرم.

ـ كيف يتظاهر بالغباء كأنه ولد بالأمس أو هبط من السماء. ألا تفهم أيها الأحمق إلى أى شىء يؤدى فك الصواميل؟ لو لم يكتشف الحارس ذلك لكان من الممكن أن يخرج القطار عن القضبان ولمات الناس! كنت ستتسبب فى قتل الناس!

ـ أعوذ بالله يا صاحب السعادة! لماذا أقتلهم؟ وهل نحن لا نعرف ربنا أم أننا أشرار؟ الحمد لله يا صاحب السعادة، أنا عشت حياتى ولم أقتل أحدًا ولم أفكر حتى فى ذلك.. يا ساتر يارب ارحمنا.. كيف تقول ذلك!

ـ وما رأيك، لماذا تقع حوادث انقلاب القطارات؟ إذا فككت صامولتين أو ثلاثا وقع الحادث!

ويضحك دينيس ضحكة سخرية قصيرة ويزر عينيه محدقا فى المحقق بارتياب.

ـ لا! من سنين وكل أهل القرية يفكون الصواميل، وربنا سترها، وحضرتك تقول: انقلاب القطارات!..

قتل الناس.. لو أنى خلعت القضيب، أو وضعت مثلا جذع شجرة بعرض القضبان فيمكن ساعتها ينقلب القطار..

ولكن هذه مجرد صامولة! شىء بسيط!

ـ ألا تفهم أن الصواميل تثبت بها القضبان فى الفلنكات!

ـ نحن نفهم هذا . . إننا لا نفك كل الصواميل . . نأخذ البعض ونترك الباقى . . عندنا نظر . . فاهمين طبعا . . ويتثاءب دينيس ويرسم علامة الصليب على فمه . ويقول المحقق:

ـ فى العام الماضى خرج قطار عن القضبان هنا . . مفهوم الآن لماذا . .

ـ ماذا تقول حضرتك؟

ـ أقول مفهوم الآن لماذا خرج قطار عن القضبان فى العام الماضى . . الآن فهمت أنا السبب!

ـ سعادتكم من أهل العلم ولذلك تفهمون . . ربنا أعلم لمن يعطى المفهومية . . حضرتك عرفت وقدرت، لكن الحارس مثله مثل الفلاح، ليس عنده أى مفهومية، يمسك الواحد من قفاه ويشده . . طيب الأول اعرف وبعدين شد! الفلاح فلاح، ومخه فلاحى . . اكتب أيضا يا صاحب السعادة، إنه ضربنى مرتين فى وجهى وفى صدرى .

ـ عند إجراء التفتيش وجد عندك صامولة أخرى . .

فأين ومتى فككت هذه الصامولة؟

ـ حضرتك تقصد الصامولة التى كانت تحت الصندوق الأحمر؟

ـ لا أعرف أين كانت هذه الصامولة، لكنهم وجدوها لديك . متى فككتها؟

ـ أنا لم أفككها . أعطانى اياها إيجناشكا، ابن سيميون الأعور . أنا أقصد الصامولة التى تحت الصندوق، أما تلك فى الزحافة، فى الحوش، فككتها أنا ومتروفان .

ـ أى متروفان؟

ـ متروفان بتروف . . ألم تسمع عنه؟ إنه يصنع الشباك ويبيعها للسادة . وهو يحتاج إلى صواميل كثيرة مثل هذه . كل شبكة تحتاج إلى حوالى عشر صواميل . .

ـ اسمع . . المادة ١٠٨١ من قانون العقوبات تنص على أن كل تخريب متعمد للسكك الحديدية يكون من شأنه تعريض سلامة وسيلة النقل المارة بها للخطر ، وفى حالة معرفة الجانى بالعواقب الوخيمة التى سيؤدى إليها فعله . . فاهم؟ ولابد أنك تعرف إلى أى شىء يؤدى فك الصواميل . . يعاقب مرتكبه بالنفى والأشغال الشاقة .

ـ طبعا حضرتك أدرى . . نحن ناس جهلة . . وهل نحن نفهم؟

ـ أنت فاهم كل شىء! لكنك تكذب ، وتتظاهر بالغباء!

ـ ولماذا أكذب؟ اسأل أهل القرية إن كنت لا تصدقنى . . بدون الثقالة لا يصطاد إلا السمك الأبيض ، وهل هناك أسوأ من القوبيون ، ومع ذلك فلا يمكن صيده بدون الثقالة .

فيبتسم المحقق قائلا :

ـ أظنك ستحدثنى الآن عن الشيلشبيور .

ـ الشليشبيور لا يعيش فى نواحينا . . نرمى الخيط بدون ثقالة على سطح الماء ، والطعم فراشة ، ونصطاد الشبوط ، وحتى هذا نادر . .

ـ طيب ، اسكت . .

ويسود الصمت . يقف دينيس متململا ، ويحدق فى الطاولة ذات المفرش من الجوخ الأخضر ويطرف بشدة وكأنه لا يرى أمامه جوخا بل شمسا . والمحقق يدون بسرعة .

وبعد فترة صمت يسأل دينيس :

ـ هل أنصرف؟

ـ لا ، ينبغى أن أرسلك تحت الحراسة إلى السجن . يكف دينيس عن الطرف ، ويرفع حاجبيه الكثيفين ، وينظر إلى المحقق متسائلا :

ـ كيف إلى السجن؟ يا صاحب السعادة! أنا مستعجل ، لازم أروح للسوق . ولى عند يجور ثلاثة روبلات ثمن الشحم لازم أستلمها .

ـ اسكت ، لا تشوش علىّ .

ـ إلى السجن . . لو كنت فعلت ما يستحق السجن لذهبت ، ولكن هكذا . . بدون ذنب . . ماذا فعلت؟ لم أسرق ، وأظن لم أتعارك . . أما إذا كنت تشك فىّ بخصوص الدين ، فلا تصدق العمدة يا صاحب السعادة . . أرجوك اسأل السيد عضو اللجنة . . العمدة لا يعرف ربنا . .

ـ اسكت!

فيدمدم دينيس :

ـ أنا ساكت . . طيب أنا مستعد أحلف اليمين إن العمدة يغالط فى الحساب . . نحن ثلاثة إخوة : كوزما جريجوريف ، وبعدين يجور جريجوريف ، وأنا دينيس جريجوريف . .

ـ أنت تشوش علىّ . . ـ ويصيح المحقق : يا سيميون! خذه!

ويدمدم دينيس بينما يقتاده جنديان قويان خارج غرفة التحقيق :

ـ نحن ثلاثة إخوة . . والأخ لا يحاسب على ذنب أخيه . . كوزما لا يدفع وأنا المسئول! يا لكم من قضاة! مات السيد الجنرال ، عليه الرحمة ، وإلا لأراكم الويل ، أيها القضاة . . إذا حكمتم فلتحكموا بالعدل ، بالمفهومية . . وليس هكذا بلا ذنب . . حتى لو حكمتم بالجلد فليكن المهم بالحق ، بالأمانة . .

الكبش والآنسة

(مشهد قصير من حياة «السادة المحترمين»)

كانت سحنة السيد المحترم الشبعانة اللامعة تنطق بالملل القاتل. كان قد غادر لتوه أحضان مورفيوس [١] بعد الظهر ولا يدرى ماذا يفعل. لم تكن به رغبة فى التفكير أو التثاؤب.. أما القراءة فملها منذ عهد سحيق، وكان الوقت لا يزال مبكرا للذهاب إلى المسرح، ومنعه الكسل من الذهاب للتزحلق. فما العمل؟ بم يسلى نفسه؟

وأبلغه الخادم يجور:

- هناك آنسة جاءت! تسأل عنكم.

- آنسة؟ هم.. ترى من هى؟ على العموم سيان، ادعها..

ودخلت غرفة المكتب بهدوء فتاة وسيمة، سوداء الشعر، ترتدى ملابس بسيطة.. بل وبسيطة جدا. وعندما دخلت حيت بانحناءة. وأخذت تقول بصوت مرتعش:

- أرجو المعذرة. أنا.. قالوا لى إن حضرتكم.. إنه من الممكن أن أجدكم فى الساعة السادسة فقط..

أنا.. أنا.. ابنة مستشار القصر [٢] بالتسيف..

---

(١) إله الأحلام عند الإغريق القدماء. **(المعرب)**.

(٢) رتبة مدنية فى الدرجة السابعة فى روسيا القيصرية تعادل رتبة المقدم العسكرية. **(المعرب)**.

ـ تشرفنا . . تفضلى اجلسى ! أية خدمة؟ اجلسى لا تخجلى !

ـ لقد جئتكم فى طلب . . ـ مضت الآنسة تقول وهى تجلس فى ارتباك وتعبث بأزرارها بيدين مرتعشتين ـ لقد جئت . . لكى أطلب منكم بطاقة سفر مجانية إلى موطنى . سمعت أنكم تعطون . . وأنا أريد أن أسافر ، وليس معى . . أنا لست غنية . . بطاقة من بطرسبرج إلى كورسك . .

ـ هم . . هكذا . . ولماذا تريدين السفر إلى كورسك؟ ألا يعجبك الحال هنا؟

ـ لا ، هنا يعجبنى ، ولكن . . أهلى . أريد أن أسافر إلى أهلى . لم أرهم منذ مدة طويلة . . كتبوا لى أن ماما مريضة . .

ـ هم . . وأنت هنا موظفة أم طالبة؟

وأخبرته الآنسة بالمكان الذى كانت تعمل فيه وعند مَن ، وكم كانت تتقاضى ، وبحجم العمل الذى كانت تؤديه . .

ـ هكذا . . كنت تعملين . . نعم ، لا يمكن القول إن مرتبك كان كبيرا . . لا يمكن القول . . ليس من الإنسانية ألا تصرف لك بطاقة مجانية . . هم . . إذن فأنت مسافرة إلى أهلك . . حسنا ، وربما كان لديك فى كورسك حبيب ، هه؟ حبّوب ، هىء ، هىء ، هوء . . خطيب؟ آه ، تخجلين؟ أوه ، لا داعى ! هذا شىء محمود . . فلتسافرى . . حان الوقت لكى تتزوجى . . ومن هو؟

ـ موظف . .

ـ شىء محمود . . سافرى إلى كورسك . . يقال إنه على بعد مائة فرسخ من كورسك تنتشر رائحة حساء الكرنب وتزحف الصراصير . . هىء ، هىء ، هوء . . لا بد أن الحياة مملة فى كورسك هذه؟ لا تخجلى ، انزعى القبعة ! نعم ، هكذا ! يا يجور ، هات شايا . لا بد أن الحياة مملة فى

هذه الـ. . أم. . ما اسمها. . كورسك؟

لم تكن الآنسة تتوقع مثل هذا الاستقبال الرقيق فشع وجهها بالسرور، ووصفت للسيد المحترم كل ما فى كورسك من ألوان التسلية. . وأخبرته أن لديها أخا موظفا، وعمها مدرس، وأبناء أخيها تلاميذ. . وقدم يجور الشاى. . وتناولت الآنسة الكوب بوجل، وراحت ترشفه دون صوت وهى تخشى أن تصدر عنها مصمصة. . وكان السيد المحترم يتطلع إليها وهو يبتسم بسخرية. . ولم يعد يشعر بالملل. .

وسألها:

ـ هل خطيبك وسيم؟ وكيف تعرفتما ببعض؟

وأجابت الآنسة بخجل على هذين السؤالين. واقتربت بمجلسها من السيد المحترم فى ثقة، وروت له وهى تبتسم كيف تقدم الخطاب هنا فى بطرسبرج لخطبتها فرفضتهم. . تحدثت طويلا. وأنهت حديثها بأن أخرجت من جيبها رسالة من والديها وقرأتها على السيد المحترم. ودقت الساعة الثامنة.

ـ والدك خطه لا بأس به. . بأية زخارف ينمق الحروف! هئ، هئ. . حسنا، لقد حان وقت انصرافى. . لا بد أن المسرح بدأ عرضه. . وداعا يا ماريا يفيموفنا.

فسألت الآنسة وهى تنهض:

ـ إذن أستطيع أن آمل؟

ـ بماذا؟

ـ بأن تعطونى بطاقة مجانية. .

ـ بطاقة؟ هم. . ليس لدىّ بطاقات. يبدو أنك أخطأت يا سيدتى. .

هئ . . هئ، هئ . . أخطأت العنوان، دخلت غير المدخل . . بالقرب منى يسكن، حقا، أحد العاملين فى السكك الحديدية . أما أنا فأعمل فى بنك! يا يجور، مرهم أن يعدو العربة! وداعا يا ma chére [1] ماريا سيميونوفنا! سعيد جدا . . سعيد جدا . .

ارتدت الآنسة معطفها وخرجت . . وعند المدخل الآخر قيل لها إنه سافر إلى موسكو فى السابعة والنصف .

---

(١) يا عزيزتى (بالفرنسية فى الأصل) . (المعرب) .

ابنة ألبيون [1]

اقتربت من دار الإقطاعى جريابوف عربة رائعة ذات عجلات من المطاط وحوذى سمين ومقعد من المخمل. وقفز من العربة رئيس نبلاء الناحية فيودور أندريتش أتسوف. وفى المدخل استقبله خادم نعسان.

وسأل رئيس النبلاء:

ـ السادة فى البيت؟

ـ لا يا سيدى. السيدة ذهبت مع الأولاد فى زيارة، أما السيد فذهب مع المزموزيل المربية لصيد السمك. منذ الصباح.

وقف أتسوف قليلا وفكر، ثم توجه إلى النهر ليبحث عن جريابوف. ووجده على بعد فرسخين من البيت حين اقترب من النهر. وعندما تطلع أتسوف من الشاطئ المرتفع إلى أسفل ورأى جريابوف ندت عنه ضحكة.. فقد كان جريابوف، وهو رجل ضخم، ذو رأس كبير جدا، جالسا على الرمل متربعا على الطريقة التركية، يصطاد السمك.

وكانت قبعته منزلقة على قفاه، ومالت رابطة عنقه جانبا. وبجواره وقفت إنجليزية طويلة نحيفة بعينين جاحظتين كعينى سرطان البحر وأنف كبير كمنقار الطيور، يبدو أشبه بالشص منه بالأنف. وكانت ترتدى فستانا أبيض من الموسلين بدت من خلال نسيجه الشفاف بوضوح كتفاها

(١) ألبيون ـ اسم قديم لإنجلترا. (المعرب).

الصفراوان النحيلتان. ومن حزامها الذهبى تدلت ساعة ذهبية. وكانت هى أيضا تصطاد. ومن حولهما خيم صمت كصمت القبور. كانا كلاهما ساكنين كالنهر الذى طفت عليه عوامتا سنارتيهما.

وضحك أتسوف قائلا:

ـ الرغبة كبيرة والنتيجة مريرة.. مرحبا يا إيفان كوزمتش. فقال جريابوف دون أن يحول عينيه عن الماء:

ـ آه.. أهو أنت؟ وصلت؟

ـ كما ترى.. وأنت مازلت تزاول التفاهات! لم تتخل عنها بعد؟

ـ يا للشيطان.. طول النهار أصيد، منذ الصباح. الصيد اليوم سيئ لا أدرى لماذا. لم أصطد شيئا لا أنا ولا هذه البعبع. نجلس ونجلس ولا نمسك حتى بشيطان واحد.. كارثة!

ـ ابصق على ذلك، هيا نشرب فودكا!

ـ انتظر.. ربما اصطدنا شيئا. قرب المساء يتحسن الصيد.. إننى جالس هنا يا أخى منذ الصباح! ملل فظيع لا أستطيع أن أصفه لك. يا للشيطان الذى جعلنى أتعلق بهذا الصيد! إننى أعرف إنه هراء، ومع ذلك أجلس! أجلس مثل أحد الأوغاد، مثل المحكوم بالأشغال الشاقة، وأحدق فى الماء كالأحمق! ينبغى أن أذهب للمحصد ولكنى أصيد السمك. بالأمس فى خابونيفو أقام البطريرك قداسا ولم أذهب، بل جلست هنا مع هذه الحفشة.. مع هذه الشيطانة..

ـ ما هذا.. هل جننت؟ ـ قال أتسوف بخجل وهو ينظر ناحية الإنجليزية. ـ تسب فى حضرة سيدة.. بل تسبها هى..

ـ فلتذهب إلى الشيطان! سيان، فهى لا تفقه حرفا بالروسية. سواء بالنسبة لها أن تمدحها أم تسبها! انظر إلى أنفها! إنه وحده يجعلك تسقط

فاقد الوعى! نجلس أياما طويلة معا فلا تتفوه بكلمة! تقف كفزاعة الطيور، وتبحلق فى الماء بعيونها الجاحظة.

تثاءبت الإنجليزية وغيرت الطعم، ثم ألقت بالسنارة فى الماء.

ومضى جريابوف يقول:

ـ إننى أدهش كثيرا يا أخى. تعيش فى روسيا منذ عشر سنوات ولا تعرف كلمة واحدة بالروسية!. . بينما يذهب أى إقطاعى صغير من عندنا إليهم وعلى الفور يبدأ يرطن بلغتهم. . أما هم فالشيطان يدرى ما هذا! انظر إلى أنفها! إلى أنفها انظر!

ـ حسنا، كفاك. . هذا محرج. . ماذا فعلت هذه المرأة حتى تنهال عليها؟

ـ إنها ليست امرأة بل آنسة. . لا بد أنها تحلم بالعرسان هذه الدمية الملعونة. . وتفوح منها رائحة عطن. . كم أمقتها يا أخى! لا أستطيع أن أنظر إليها دون انفعال! ما إن تحدق فىّ بعينيها الكبيرتين حتى ينتفض بدنى كله كأن مرفقى ارتطم بالدرابزين. إنها أيضا تحب صيد السمك. انظر: إنها تصطاد وتتعبد! وتنظر إلى كل شىء باحتقار. . تقف هذه الماكرة وتحس نفسها إنسانا، أى سيد الطبيعة. فهل تدرى ما اسمها؟ ويلكا تشارلزوفنا تفايس! تفو. . لا يمكن نطقه!

وعندما سمعت الإنجليزية اسمها حولت أنفها ببطء صوب جريابوف وقاسته بنظرة احتقار. ورفعت عينيها عن جريابوف إلى أتسوف وغمرته بالاحتقار أيضا. وجرى كل ذلك فى صمت وعظمة وبطء.

فقال جريابوف وهو يقهقه:

ـ هل رأيت؟ كأنها تقول: ها كم! آه أيتها البعبع! إننى لا أبقى على هذه الدودة إلا من أجل الأطفال. ولولاهم لما سمحت لها بالاقتراب من

ضيعتى لعشرة فراسخ. . أنفها بالضبط كمنقار الصقر. . وخصرها؟ هذه الدمية تذكرنى بمسمار طويل. أود لو أمسكتها ودققتها فى الأرض. مهلا. . يبدو أن سنارتى تغمز. .

وقفز جريابوف وشد السنارة. وتوتر الخيط. . وشدها جريابوف مرة أخرى فلم يخرج الشص.

فقال وهو يتأفف:

ـ يا للشيطان! اشتبكت! يبدو اشتبكت بحجر. . وارتسمت المعاناة على وجه جريابوف. وراح يزفر ويتحرك بقلق وهو يدمدم باللعنات ويشد الخيط. ولكن الشد لم يعد بنتيجة. وامتقع جريابوف، وقال:

ـ يا للأسف! ينبغى أن أنزل إلى الماء.

ـ دعك من هذا!

ـ لا يمكن. . قرب المساء يتحسن الصيد. . يا لها من مهزلة، فليسامحنى الله. سأضطر إلى نزول الماء، سأضطر! وآه لو تعلم كم أننى لا أود نزع ثيابى! يجب أن نطرد الإنجليزية. . من المحرج أن أخلع ملابسى أمامها. فهى مع ذلك سيدة!

ونزع جريابوف القبعة ورابطة العنق. وقال مخاطبا الإنجليزية:

ـ يا ميس، إـ إـ إ. . يا ميس تفايس. . جو فو برى [1] . . كيف أوضح لها؟ كيف أقول لك لكى تفهمى؟ اسمعى. . إلى هناك! اذهبى إلى هناك! أتسمعين؟

وغمرت ميس تفايس جريابوف بالاحتقار وصدر عنها صوت أنفى.

ـ ماذا؟ لا تفهمين؟ أقول لك امشى من هنا! أريد أن أخلع ملابسى أيتها المصيبة! امشى إلى هناك إلى هناك!

---

(١) من الفرنسية: Je vous pris ـ أرجوك. (المعرب).

وشد جريابوف الميس من ذراعها وأشار لها إلى الخمائل وجلس، يريد بذلك أن يقول لها: اذهبى إلى الخمائل واختبئى هناك.. ولعَّبت الإنجليزية حاجبيها بحيوية وقالت بسرعة جملة إنجليزية طويلة. وانفجر الإقطاعيان ضاحكين.

ـ هذه أول مرة فى حياتى أسمع صوتها.. يا له من صوت! إنها لا تفهم! ماذا أفعل معها؟

ـ دعك منها! هيا بنا نشرب فودكا!

ـ لا يمكن.. الصيد الآن سيكون أحسن.. فى المساء.. ولكن ما العمل؟ يالها من مهزلة! سأضطر أن أخلع ملابسى فى حضورها..

وألقى جريابوف بالسترة والصديرى، وجلس على الرمل ليخلع حذاءه.

فقال رئيس النبلاء وهو يكتم ضحكة فى قبضته:

ـ اسمع يا إيفان كوزميتش، إن هذا يا صديقى تهكم. امتهان.

ـ لم يطلب منها أحد ألا تفهم. فليكن درسا لهم، لهؤلاء الأجانب!

نزع جريابوف حذاءه، وتجرد من ملابسه الداخلية وأصبح كما ولدته أمه. وأمسك أتسوف ببطنه واحمر من الضحك والخجل. ولعّبت الإنجليزية حاجبيها وطرفت عيناها.. وعلى وجهها الأصفر طافت ابتسامة احتقار متعالية.

وقال جريابوف وهو يربت على فخذيه:

ـ ينبغى أن أبرد جسمى قليلا. قل لى يا فيودور أندريتش من فضلك، لماذا يظهر الطفح على صدرى كل صيف؟

ـ أسرع بالنزول يا حيوان، أو استر نفسك بشيء، فقال جريابوف وهو ينزل إلى الماء راسما علامة الصليب:

ـ لو أنها تخجل هذه الفاجرة!.. برر.. الماء بارد.. انظر كيف تلعّب حاجبيها! ولا تبتعد.. تتعالى على الغوغاء! هئ.. هئ.. هئ.. ولا تعتبرنا بشرا!

وعندما غاص فى الماء إلى ركبتيه، شد قامته الهائلة وغمز بعينه قائلا:

ـ دعها تعلم يا أخى أننا لسنا فى إنجلترا!

وغيرت ميس تفايس الطعم ببرود، وتثاءبت، وألقت بالسنارة. وحول أتسوف نظره. وفك جريابوف الشص المشتبك وغطس فى الماء، ثم خرج وهو يشهق، وبعد دقيقتين كان جالسا على الرمل يصطاد من جديد.

المغفلة

منذ أيام دعوت إلى غرفة مكتبى مربية أولادى يوليا فاسيلفنا لكى أدفع لها حسابها.

قلت لها:

ـ اجلسى يا يوليا فاسيليفنا. هيا نتحاسب. أنت فى الغالب بحاجة إلى النقود، ولكنك خجولة إلى درجة أنك لن تطلبيها بنفسك.. حسنا.. لقد اتفقنا على أن أدفع لك ثلاثين روبلا فى الشهر..

ـ أربعين..

ـ كلا، ثلاثين. هذا مسجل عندى.. كنت دائما أدفع للمربيات ثلاثين روبلا. حسنا، لقد عملت لدينا شهرين..

ـ شهرين وخمسة أيام..

ـ شهرين بالضبط.. هكذا مسجل عندى.. إذن تستحقين ستين روبلا.. نخصم منها تسعة أيام آحاد.. فأنت لم تعلمى كوليا فى أيام الآحاد بل كنت تتنزهين معه فقط.. ثم ثلاثة أيام أعياد.

تضرج وجه يوليا فاسيليفنا، وعبثت أصباعها بأهداب الفستان ولكن.. لم تنبس بكلمة!

ـ نخصم ثلاثة أعياد، إذن المجموع اثنا عشر روبلا.. وكان كوليا

مريضا أربعة أيام ولم تكن دروس . . كنت تدرسين لفاريا فقط . . وثلاثة أيام كانت أسنانك تؤلمك فسمحت لك زوجتى بعدم التدريس بعد الغداء . . إذن اثنا عشر زائد سبعة ـ تسعة عشر . . نخصم، الباقى . . هم . . واحد واربعون روبلا . . مضبوط؟

احمرت عين يوليا فاسيليفنا اليسرى وامتلأت بالدمع، وارتعش ذقنها. وسعلت بعصبية وتمخطت، ولكن . . لم تنبس بكلمة!

ـ قبيل رأس السنة كسرت فنجانا وطبقا. نخصم روبلين . . الفنجان أغلى من ذلك، فهو موروث، ولكن فليسامحك الله! علينا العوض . . نعم، وبسبب تقصيرك تسلق كوليا الشجرة ومزق سترته . . نخصم عشرة . . وبسبب تقصيرك أيضا سرقت الخادمة من فاريا حذاء. ومن واجبك أن ترعى كل شىء، فأنت تتقاضين مرتبا. وهكذا نخصم أيضا خمسة . . وفى ١٠ يناير أخذت منى عشرة روبلات. فهمست يوليا فاسيليفنا:

ـ لم آخذ!

ـ ولكن ذلك مسجل عندى!

ـ طيب، ليكن . .

ـ من واحد وأربعين نخصم سبعة وعشرين . . الباقى أربعة عشر . .

امتلأت عيناها الاثنتان بالدموع . . وطفرت حبات العرق على أنفها الطويل الجميل. يا للفتاة المسكينة!

وقالت بصوت متهدج:

ـ أخذت مرة واحدة . . أخذت من حرمكم ثلاثة روبلات . . لم آخذ غيرها . .

ـ حقا؟ انظر، وأنا لم أسجل ذلك! نخصم من الأربعة عشر ثلاثة، الباقي أحد عشر. . ها هى ذى نقودك يا عزيزتى! ثلاثة. . ثلاثة. . ثلاثة. . واحد، واحد. . تفضلى!

ومددت لها أحد عشر روبلا. . فتناولتها ووضعتها فى جيبها بأصابع مرتعشة. وهمست:

ـ Merci[1].

فانتفضت واقفا وأخذت أروح وأجىء فى الغرفة. واستولى علىّ الغضب.

سألتها:

ـ Merci على ماذا؟

ـ على النقود. .

ـ يا للشيطان، ولكنى نهبتك، سلبتك! لقد سرقت منك! فعلام تقولين Merci؟

ـ فى أماكن أخرى لم يعطونى شيئا. .

ـ لم يعطوك؟! ليس هذا غريبا! لقد مزحت معك، لقنتك درسا قاسيا. سأعطيك نقودك، الثمانين روبلا كلها! ها هى ذى فى المظروف جهزتها لك! ولكن هل يمكن أن تكونى عاجزة إلى هذه الدرجة؟ لماذا لا تحتجين؟ لماذا تسكتين؟ هل يمكن فى هذه الدنيا ألا تكونى حادة الأنياب؟ هل يمكن أن تكونى مغفلة إلى هذه الدرجة؟

ابتسَمَتْ بعجز فقرأتُ على وجهها: «يمكن!».

---

(١) مرسى، شكرا. (المعرب).

سألتها الصفح عن هذا الدرس القاسى وسلمتها، لدهشتها البالغة، الثمانين روبلا كلها. فشكرتنى بخجل وخرجت.. وتطلعت فى إثرها وفكرت: ما أسهل أن تكون قويا فى هذه الدنيا!

القنــاع

أقيم فى نادى «س» الاجتماعى حفل تنكرى لغرض خيرى .

كانت الساعة الثانية عشرة ليلا . وجلس المثقفون غير الراقصين ـ وكانوا خمسة ـ فى قاعة المطالعة إلى طاولة كبيرة ودسوا أنوفهم ولحاهم فى الجرائد وراحوا يقرأون وينعسون ، و«يفكرون» على حد تعبير المراسل المحلى لجرائد العاصمة ، وهو سيد ليبرالى جدا .

وتناهت من الصالة العامة أنغام رقصة «فيوشكى» . ومن حين لآخر كان الخدم يهرولون بجوار الباب وهم يدقون عاليا بأقدامهم ويثيرون رنين الأوانى . بينما كان الصمت العميق يسود قاعة المطالعة .

وفجأة تردد صوت غليظ مكتوم بدا وكأنه صادر من المدفأة .

ـ يبدو أن المكان هنا سيكون مناسبا . تعالوا هنا يا أولاد! تعالوا ، تعالوا!

وفتح الباب ، ودخل قاعة المطالعة رجل عريض ، ربعة ، يرتدى حلة حوذى وقبعة بريش طاووس وقناعا . وتبعته سيدتان مقنعتان وخادم يحمل صينية . وكان على الصينية زجاجة ليكير منبعجة وثلاث زجاجات نبيذ أحمر وبضعة أكواب .

وقال الرجل :

ـ تعالوا! الجو هنا أبرد . . ضع الصينية على الطاولة . . اجلسن

يا موزمزيلات! جى فو برى[1]، أما أنتم يا سادة فلتفسحوا. . هيا من هنا!

وتمايل الرجل وأزاح بيده عدة مجلات من على الطاولة.

ـ ضع هنا! أما أنتم أيها السادة القراء. فلتفسحوا. لا وقت هنا لقراءة الجرائد والسياسة. . دعوا عنكم هذا! فقال أحد المثقفين وهو ينظر إلى صاحب القناع من خلال نظارته:

ـ الزم الهدوء من فضلك. هذه قاعة مطالعة وليس بوفيه. . ليس هذا مكانا للشرب.

ـ ولماذا ليس مكانا؟ هل الطاولة تتأرجح أم ربما السقف يتساقط؟ شيء عجيب! حسنا. . لا وقت عندى للحديث! اتركوا الجرائد. . يكفيكم ما قرأتم. . أنتم هكذا أذكياء أكثر من اللازم، كما أنكم تتلفون أبصاركم. وأهم ما فى الأمر أننى لا أريد. انتهينا.

ووضع الخادم الصينية على الطاولة، وطوى الفوطة على ذراعه ووقف بجوار الباب. وشرعت السيدتان فورا فى تناول النبيذ الأحمر.

وقال الرجل ذو ريش الطاووس وهو يصب لنفسه ليكيرا:

ـ كيف يوجد أناس أذكياء يعتبرون الجرائد أفضل من هذه المشروبات. أما أنا فأرى أيها السادة المحترمون أنكم تحبون الجرائد لأنكم لا تملكون ما تشربون به، أليس كذلك؟ ها. . ها!. . إنهم يقرأون! حسنا وما هو المكتوب هناك؟ أيها السيد ذو النظارة، أية وقائع تقرأ؟ ها. . ها! دعك من ذلك! كفاك تمنعا. اشرب أفضل.

ونهض الرجل ذو ريش الطاووس وانتزع الجريدة من يدى السيد ذى النظارة، فامتقع هذا، ثم تضرج ونظر بدهشة إلى بقية المثقفين، ونظر هؤلاء إليه.

---

(١) جو فو برى (Je vous pris) ـ أرجوكم، من فضلكم (بالفرنسية). (المعرب).

وانفجر قائلا :

ـ إنك تتجاوز حدودك يا سيدى المحترم . إنك تحول قاعة المطالعة إلى حانة . . أنك تسمح لنفسك بالعربدة واختطاف الجرائد من الأيدى ! لن أسمح لك !أنت لا تعرف مع من تتحدث يا حضرة المحترم ! أنا جيستياكوف ، مدير البنك !

ـ طظ ، فلتكن جيستياكوف ! أما جريدتك فها هى ذى قيمتها . .

ورفع الرجل الجريدة ومزقها قطعا .

ودمدم جيستياكوف مصعوقا :

ـ ما هذا يا سادة؟ هذا شىء غريب . . هذا . . هذا غير معقول . .

فضحك الرجل قائلا :

ـ سيادته زعلان ! آى ، آى ، أخفتنى ! أقدامى ترتعش ، اسمعوا أيها السادة المحترمون ! كفى مزاحا . .

أنا لا أرغب فى الحديث معكم . . ولما كنت أريد أن أبقى هنا مع المزموزيلات على انفراد وأريد أن أمتع نفسى ، لذلك أرجوكم ألا تحزنوا ولتخرجوا . . تفضلوا من هنا ! يا سيد بيليبوخين اخرج من هنا فى ألف داهية ! ما لك تقلب سحنتك؟ أقول لك اخرج يعنى تخرج ! هيا عجِّل وإلا أهويت على قفاك !

فتساءل بيليبوخين صراف المحكمة وهو يحمر ويهز كتفيه :

ـ كيف ! ما معنى هذا؟ ! أنا حتى لا أفهم . . شخص وقح يقتحم علينا المكان . . وفجأة يتفوه بهذه الأشياء !

فصاح الرجل ذو ريش الطاووس غاضبا ، ودق بقبضته على المائدة حتى تراقصت الأكواب على الصينية : .

ـ ماذا تقول؟ وقح؟ لمن تقولها؟ أتظن أننى ما دمت فى القناع فبوسعك أن توجه لى مختلف الكلمات؟ يالك من مشاغب! اخرج من هنا أقول لك! يا مدير البنك، انكشح من هنا بالمعروف! اخرجوا جميعا. إياكم أن يبقى منكم لئيم هنا! غوروا فى ألف داهية!

فقال جيستياكوف الذى غامت نظارته من شدة الانفعال:

ـ حسنا، سنرى الآن! سأريك! إيه، استدع الشاويش المناوب!

وبعد دقيقة دخل شاويش صغير أحمر الشعر بشريط أزرق على ياقة سترته وهو يلهث من الرقص، وقال:

ـ تفضلوا بالخروج. ليس هذا مكانا للشرب! تفضلوا فى البوفيه

وسأل الرجل ذو القناع:

ـ من أين جئت أنت؟ هل أنا دعوتك؟

ـ أرجو أن تخاطبنى باحترام، وتفضل بالخروج!

ـ اسمع يا عزيزى.. سأمهلك دقيقة.. وطالما أنت شاويش وشخصية مهمة، فلتسحب هؤلاء الممثلين من أيديهم. مزموزيلاتى لا يعجبهن وجود غرباء هنا.. يشعرن بالخجل، وأنا أريد مقابل نقودى أن يكُنَّ فى حالتهن الطبيعية.

وصاح جيستياكوف:

ـ يبدو أن هذا المأفون لا يفهم أنه ليس فى حظيرة. استدعوا يفسترات سبيريدونتش!

وترددت فى النادى:

ـ يفسترات سبيريدونتش! أين يفسترات سبيريدرنتش؟

وسرعان ما ظهر يفسترات سبيريدونتش، وهو عجوز يرتدى حلة شرطى. وصاح بصوت مبحوح وهو يبحلق بعينيه المرعبتين ويحرك شواربه المصبوغة:

- تفضل بالخروج من هنا!

فقال الرجل وهو يقهقه من المتعة:

- آه، لقد أرعبتنى! أى والله أرعبتنى! أقسم لكم إننى لم أر شيئا رهيبا كهذا! شواربه كشوارب القط، وعيناه جاحظتان.. ها.. ها.. ها! ها.. ها.. ها!

فصاح يفسترات سبيريدونتش بكل قوته واهتز بدنه:

- ممنوع الكلام! اخرج من هنا! سآمر بطردك! وارتفع فى قاعة المطالعة صخب لا مثيل له. كان يفسترات سبيريدونتش يصرخ ويدق بقدميه وقد احمرَّ كسرطان البحر. وكان جسيتياكوف يصرخ. وكان يبلويبوخين يصرخ. كان جميع المثقفين يصرخون، ولكن غطى على أصواتهم جميعا صوت الرجل ذى القناع، الغليظ الأجش. وبسبب الهرج العام توقف الرقص، وتقاطر الناس من الصالة إلى قاعة المطالعة.

ولكى يظهر يفسترات سبيريدونتش هيبته استدعى جميع رجال الشرطة الموجودين فى النادى، وجلس ليكتب محضرا.

فقال ذو القناع وهو يدس أصبعه تحت القلم:

- اكتب، اكتب. يالى من مسكين، ترى ماذا سيحدث لى الآن؟ يالحظى البائس! حرام عليكم ما تفعلونه بيتيم مثلى! ها.. ها.. ها! حسنا، ماذا؟ هل محضرك جاهز؟ هل وقع الجميع؟ فلتنظروا الآن إذن!.. واحد.. اثنان.. ثلاثة!..

ونهض الرجل ومد قامته بطولها ونزع القناع عن وجهه. وبعد أن

كشف وجهه الثمل وطاف بنظرة على الجميع مستمتعا بما أحدثه من تأثير، تهاوى على الكرسى وقهقه بفرح. وبالفعل كان التأثير الذى أحدثه غير عادى. تبادل المثقفون النظرات فى ارتباك وامتقعت وجوههم، وحك بعضهم قفاه. وتحشرج يفسترات سبيريدونتش كالشخص الذى ارتكب عفوا حماقة كبيرة.

لقد عرف الجميع فى هذا الرجل الهائج المليونير المحلى صاحب المصانع والمواطن العريق المحترم بيتيجوروف، المعروف بفضائحه وبأعماله الخيرية، وكما ذكرت الجريدة المحلية غير مرة، بحبه للمعرفة.

وبعد دقيقة من الصمت سأل بيتيجوروف:

ـ حسنا هل ستنصرفون أم لا؟

وخرج المثقفون من غرفة المطالعة على أطراف أصابعهم فى صمت، دون أن يتفوهوا بكلمة، فأوصد بيتيجوروف الباب خلفهم.

وبعد دقيقة كان يفسترات سبيرويدونتش يفح هامسا وهو يهز كتف الخادم الذى حمل الخمر إلى قاعة المطالعة:

ـ لقد كنت تعلم أنه بيتيجوروف، لماذ سكتَّ؟

ـ أمرنى ألا أقول!

ـ أمره ألا يقول. . سأسجنك أيها الملعون شهرا وعندئذ ستعرف ما معنى «أمرنى ألا أقول»، اخرج! . . ـ وقال مخاطبا المثقفين ـ وأنتم أيضا يا سادة ما أحلاكم. . أعلنوا العصيان! لم يكن فى استطاعتكم أن تخرجوا من قاعة المطالعة لعشرة دقائق! حسنا، تحملوا إذن مسئولية ما صنعتم! آه يا سادة، يا سادة. . هذا لا يجوز. .

وسار المثقفون فى النادى مقهورين، ضائعين، مذنبين يتهامسون ويتوقعون شرا. . وعندما عرفت زوجاتهم وبناتهم بالحادث أخلدن إلى

السكون وتفرقن عائدات إلى بيوتهن. وتوقف الرقص.

وفى الساعة الثانية خرج بيتيجوروف من قاعة المطالعة؛ كان ثملا يترنح. وعندما دخل الصالة جلس بقرب الأوركسترا ونعس على أنغام الموسيقى. ثم أمال رأسه بحزن وعلا شخيره.

وأشاح الشاويشيه بأيديهم للعازفين:

ـ لا تعزفوا! هس!.. يجور نيليتش نائم.

وسأل بيليبوخين وهو ينحنى على أذن المليونير:

ـ هل تأمرون بتوصيلكم إلى البيت يا يجور نيليتش؟

وندت عن شفتى بيتيجوروف حركة وكأنه يريد أن ينفخ ذبابة عن خده.

وعاد يبليبوخين يسأل:

ـ هلا تأمرون بتوصيلكم إلى البيت؟ أم باستدعاء العربة؟

ـ هه؟ من؟ أنت.. ماذا تريد؟

ـ أريد أن أوصلكم.. حان وقت النوم..

ـ أريد أن أذهب.. أوصلنى!

وتهلل بيليبوخين من الرضا وشرع ينهض بيتيجوروف. وأسرع إليه بقية المثقفين، وأنهضوا المواطن الأصيل المحترم وهم يبتسمون بسرور، وساروا به بحذر إلى العربة.

وقال جيستياكوف بمرح وهو يجلسه:

ـ لا يستطيع أن يضحك على جماعة كاملة إلا ممثل موهوب. أنا مأخوذ حقا يا يجور نيليتش! حتى الآن مازلت أضحك.. ها.. ها.. كنا نغلى ونتلمظ! ها.. ها! هل تصدقون؟ لم أضحك أبدا فى المسرح مثلما

ضحكت اليوم. فكاهة بلا حدود! سأظل طول عمرى أذكر هذه الأمسية التى لا تنسى!

وبعد أن أوصّل المثقفون بيتيجوروف عاودهم المرح والاطمئنان.

وقال جيستياكوف وهو سعيد جدا:

ـ لقد مد لى يده عند الوداع. إذن فليس غاضبا. فتنهد يفسترات سبيرويدونتش:

ـ يسمع منك ربنا! إنه رجل وغد، حقير، ولكنه محسن!.. لا يصح!..

الصول بريشيبييف

ـ الصول بريشيبييف! أنت متهم بأنك فى الثالث من سبتمبر الجارى أهنت بالقول والفعل الدركى جيغين وشيخ الناحية أليابوف وشيخ الخفراء بفيموف، والشاهدين إيفانوف وجافريلوف، وستة آخرين من الفلاحين، علما بأنك اعتديت على الثلاثة الأول أثناء قيامهم بأداء مهامهم الرسمية. مذنب أم غير مذنب؟

يقف الصول بريشيبييف، وهو رجل مكرمش، بوجه شائك، شادا يديه إلى جنبيه فى وقفة انتباه، ويجيب بصوت أبح مخنوق، مشددا على كل كلمة وكأنما يصدر الأوامر:

ـ يا صاحب السعادة، يا سيادة قاضى الناحية! معلوم أن القانون فى جميع مواده ينظر فى تكييفه للحوادث انطلاقا من حجج الطرفين. لست أنا المذنب بل هم جميعا. وكل ذلك حدث بسبب تلك الجثة الميتة، عليها الرحمة. كنت سائرا فى الثالث من الشهر مع زوجتى أنفيسا فى هدوء ووقار وإذا بى أرى مجموعة من مختلف الناس متجمهرة على الشاطئ. فتساءلت: بأى حق اجتمع الناس هنا؟ لأى غرض؟ وهل ينص القانون على أن يسير الناس كالقطيع؟ وصحت: تفرقوا! وأخذت أدفع الناس لكى ينصرفوا إلى بيوتهم، وأمرت شيخ الخفراء أن يفرقهم بالقوة..

ـ عفوا، ولكنك لست الدركى ولا العمدة . . فهل من شأنك تفريق الناس؟

وتردد أصوات من شتى أنحاء القاعة :

ـ ليس شأنه! ليس شأنه! سمّم علينا حياتنا يا صاحب السعادة! خمس عشرة سنة ونحن نتحمله! من يوم أن جاء من الخدمة والحياة لا تطاق! عذب الجميع!

ويقول الشاهد العمدة :

ـ صحيح يا صاحب السعادة، كل الناس يشكون منه. الحياة معه مستحيلة! سواء فى الأعياد الدينية، أم فى الأعراس، أم عندما يحدث حادث ما، تجده دائما يصيح ويزمجر ويفرض علينا نظامه. ويشد الأولاد من آذانهم، ويتلصص على النساء خشية أن يحدث شيء وكأنه حمو كل زوجة . . منذ فترة قريبة طاف بالبيوت وأمرنا بألا نغنى الأغانى أو نشعل الضوء. ويقول إنه لا يوجد قانون ينص على غناء الأغانى.

فيقول قاضى الناحية :

ـ انتظر، سيأتى دورك فى الشهادة، أما الآن فليكمل بريشيبييف. أكمل يا بريشيبييف!

فيقول الصول بصوته الأبح :

ـ حاضر يا أفندم! حضرتك تقول إنه ليس من شأنى تفريق الناس . . طيب . . وإذا حدث اضطراب؟ هل من المعقول أن نسمح للناس بالعبث؟ أين هو القانون الذى ينص على إطلاق أيدى الناس؟ أنا لا أستطيع أن أسمح بذلك. وإذا لم أقم أنا بتفريقهم وتغريمهم فمن الذى سيفعل ذلك؟ لا أحد يعرف النظام المضبوط. أنا وحدى فى القرية كلها يا صاحب السعادة الذى يعرف كيف يتعامل مع الناس البسطاء، أنا وحدى أستطيع

أن أفهم كل الأمور يا صاحب السعادة. أنا لست فلاحا، أنا صف ضابط، صول متقاعد، كنت أخدم فى وارسو، فى هيئة الأركان، وبعد ذلك، لما أحالونى إلى التقاعد، عملت فى المطافئ، ثم عملت بوابا لمدة سنتين فى مدرسة ثانوية للبنين. . أنا أعرف كل النظم. أما الفلاح فشخص بسيط، لا يفهم شيئا وينبغى أن يطيعنى، لأن ذلك من مصلحته. خذ مثلا هذه القضية. . كنت أفرق الناس، وعلى الشاطئ، على الرمال، جثة غريق ميت. إنى أتساءل بأى حق ترقد هذه الجثة هنا؟ وهل هذا يتفق والنظام؟ لماذا لم يتحرك الدركى؟ قلت له: لماذا لم تخطر الرؤساء؟ ربما كان المرحوم الغريق غريقا، وربما تفوح فى الجو رائحة سيبيريا. ربما كانت هذه جريمة قتل. . ولكن الدركى جيغين لا يبالى أبدا، بل يدخن فقط. ويقول: «مَنْ هذا الآمر عندكم؟ من أين جئتم به؟ أم إننا بدونه لا نعرف كيف نؤدى عملنا؟» فقلت له: إذن فأنت لا تعرف أيها الأحمق طالما تقف هكذا ولا تبالى. فقال: «منذ أمس أخطرت رئيس الشرطة المحلية». فسألته: ولماذا أخطرت رئيس الشرطة المحلية؟ حسب أية مادة فى القوانين؟ ألا تعرف أنه فى مثل هذه الأحوال، فى حالة الغرق أو الخنق وغيرها من الأحوال لا يستطيع رئيس الشرطة المحلية أن يتصرف؟ القضية هنا جريمة. . قانون مدنى. . القضية هنا تستدعى إخطار السيد وكيل النيابة والقضاة. وقبل كل شيء عليك أن تكتب محضرا وترسله إلى السيد قاضى الناحية. ولكنه أخذ يسمع ويضحك. والفلاحون أيضا. كلهم ضحكوا ياصاحب السعادة. أقسم على ذلك. هذا ضحك أيضا، وذلك الواقف هناك، وجيغين ضحك. فقلت لهم: ما لكم تسخرون؟ فقال الدركى: «قاضى الناحية لا يفصل فى هذه القضايا». هذه الكلمات جعلتنى أرتعش كالمحموم. ـ وقال الصول مخاطبا الدركى: ألم تقل ذلك؟

ـ قلت.

ـ الجميع سمعك وأنت تقول أمام العامة: «قاضى الناحية لا يفصل

فى هذه القضايا». سمعك الجميع وأنت تقولها. . ارتعشت كالمحموم يا صاحب السعادة، بل إنى تجمدت رعبا. قلت له: أعد أيها الوغد ما قلت! فأعاد هذه الكلمات نفسها. . فاقتربت منه وقلت له: كيف تجرؤ على قول هذا عن حضرة قاضى الناحية؟ أنت دركى شرطة وتقف ضد السلطة؟ هه؟ ألا تعرف أن سيادة قاضى الناحية إذا شاء يستطيع أن يحيلك إلى إدارة شرطة المحافظة جزاء على هذه الكلمات وبسبب عدم ولائك؟ ألا تعرف إلى أين يستطيع سيادة قاضى الناحية أن يرسل بك جزاء على مثل هذا الكلام السياسى؟ فإذا العمدة يقول: «قاضى الناحية لا يستطيع أن يتجاوز حدوده. هو يفصل فى القضايا الصغيرة فقط». هكذا قال، وقد سمعه الجميع. . فقلت له: كيف تجرؤ على تحقير السلطة؟ إياك أن تمزح معى وإلا كانت عاقبتك سيئة. فأيام كنت أخدم فى وارسو، وأيضا عندما كنت بوابا فى مدرسة البنين الثانوية، كنت ما إن أسمع كلمات غير مناسبة حتى أتطلع إلى الشارع بحثا عن شرطى ثم أدعوه: «تعال هنا يا فارس»، وأخبره بكل شىء. أما هنا فى القرية فمن الذى تقول له؟ . . استبد بى الغضب. أحنقنى أن ناس هذه الأيام تمادو فى التصرف على هواهم والخروج عن الطاعة فرفعت قبضتى و. . ضربته طبعا ليس بقوة، بل هكذا، على خفيف، حتى لا يجرؤ على التفوه بهذه الكلمات عن معاليكم. . وتدخل الدركى دفاعا عن العمدة. وطبعا ضربت الدركى. . ثم تطورت الأمور. . لم أضبط أعصابى يا صاحب السعادة. . ولكن كيف يمكن للمرء ألا يضرب؟ إذا لم تضرب الشخص الغبى فأنت ترتكب ذنبا. خاصة إذا كان يستحق. . إذا كان هناك اضطراب. .

ـ عفوا، هناك أشخاص مسئولون عن منع الاضطرابات. هناك الدركى والعمدة وشيخ الخفراء.

ـ الدركى لا يستطيع أن يحيط بكل شىء، كما أنه لا يفهم ما أفهمه أنا. .

ـ فلتفهم أن هذا ليس من شأنك!

ـ ماذا؟ كيف ليس من شأنى؟ غريب! . .

الناس يثيرون الفوضى وهذا ليس من شأنى! حسنا، هل أمتدحهم على ذلك؟ ها هم يشكون لكم من أننى منعت الغناء. . أى فائدة من هذه الأغانى؟ بدلا من القيام بعمل مفيد يغنون الأغانى. . ثم هذه الموضة التى ساروا عليها: الجلوس فى المساء وإشعال الضوء. ينبغى أن يناموا ولكنهم يجلسون وهم يتحدثون ويتضاحكون. لقد سجلت عندى!

ـ ماذا سجلت عندك؟

ـ أسماء الذين يجلسون مشعلين الضوء.

ويخرج بريشبييف من جيبه ورقة مجعدة، ويضع النظارة على عينيه ويقرأ:

ـ الفلاحون الذين يجلسون مشعلين الضوء: إيفان بروخروف، سافا ميكيفوروف، بيوتر بتروف. زوجة الجندى شوستروفا، أرملة، تعاشر فى الحرام سيميون كيسلوف. أجنات سفيرتشوك يزاول السحر، وزوجته مافرا ساحرة، تحلب فى الليل أبقار الجيران».

ـ كفى!

يقول القاضى ويشرع فى استجواب الشهود.

فيرفع الصول بريشيبييف نظارته إلى جبينه ويتطلع بدهشة إلى قاضى الناحية الذى يبدو واضحا أنه لا يقف فى صفه. وتبرق عينا الصول الجاحظتان، ويصطبغ أنفه بلون أحمر قان. يتطلع إلى قاضى الناحية، وإلى الشهود ولا يستطيع أبدا أن يفهم لماذا يبدو القاضى منفعلا إلى هذا الحد، ولماذا يتردد من كل زوايا القاعة الهمهمات تارة، والضحك المكتوم تارة أخرى. والحكم أيضا يبدو له غير مفهوم: الحبس شهرا. فيقول مشيحا بذراعيه فى استغراب:

ـ لماذا؟ بأى قانون؟

ويبدو له واضحا أن الدنيا تغيرت، وأن الحياة فيها أصبحت مستحيلة. وتنتابه أفكار سوداء مقبضة. ولكن عندما يخرج من القاعة ويرى الفلاحين المتجمهرين يتحدثون عن شيء ما، يشد يديه إلى جنبيه فى وضع انتباه بحكم العادة المتسلطة عليه، ويصرخ بصوت أبح غاضب:

تفرقوا جميعا! ممنوع التجمهر! انصراف!

الصبى الشرير

هبط إيفان إيفانيتش لابكين، الشاب اللطيف الهيئة، وآنا سيميونوفنا زامبليتسكايا، الشابة ذات الأنف الصغير المقعى، على الشاطىء المنحدر، وجلسا على أريكة. وكانت هذه الأريكة تقوم قرب الماء تماما وسط خمائل الصفصاف اليافعة الكثيفة. مكان ساحر! ما إن تجلس هنا حتى تختفى عن العالم، فلا تراك إلا الأسماك والعناكب المائية الراكضة كالبرق فوق صفحة المياه. وكان الشاب والشابة مزودين بالسنانير والشباك وعلب ديدان الطعم وغيرها من أدوات الصيد. وما إن جلسا حتى شرعا على الفور فى صيد السمك.

وبدأ لابكين يقول وهو يتلفت:

ـ كم أنا سعيد بأننا أخيرا أصبحنا وحدنا. أريد أن أقول لك الكثير يا آنا سيميونوفنا.. الكثير جدا.. عندما رأيتك أول مرة.. سنارتك تغمز.. أدركت عندها لأى غرض أحيا، أدركت أين معبودى الذى ينبغى أن أكرس له كل حياتى الكادحة الشريفة.. يبدو أنها سمكة كبيرة تغمز.. ما إن رأيتك حتى أحببتك، لأول مرة، أحببت حبا جارفا! انتظرى لا تجذبى، دعيها تغمز.. خبرينى ياعزيزتى، أستحلفك، هل أستطيع أن آمل ـ لا بأن تبادلينى الحب، كلا ـ فأنا لا أستحق، أنا حتى لا أجرؤ على التفكير فى ذلك.. هل أستطيع أن أطمع فى.. اسحبى!

رفعت آنا سيميونوفنا يدها عاليا بالسنارة وشدتها وصرخت. ولمعت

فى الهواء سمكة فضية خضراء.

يا إلهى، فرخ! آى، آه.. أسرع! أفلتت! أفلتت السمكة من السنارة، وتلوت على العشب قافزة نحو محيطها و.. غاصت فى الماء!

وبينما كان لابكين يطارد السمكة أمسك عفوا بذراع آنا سيميونوفنا بدلا من السمكة، وعفوا ضمها إلى شفتيه.. وشدت هى ذراعها، ولكن بعد فوات الأوان: فقد اطبقت الشفتان عفوا فى قبلة. حدث ذلك عفوا. وتلت القبلة قبلة أخرى، ثم الأيمان والتأكيدات.. يا لها من لحظات سعيدة! ولكن ليس هناك شىء سعيد بصورة مطلقة فى هذه الحياة الدنيوية. فالشىء السعيد عادة يحمل فى طياته السم، أو يسممه شىء ما خارجى. وهذا ما كان فى هذه المرة أيضا. فبينما كان الشاب والشابة يتبادلان القبلات سمعا فجأة ضحكا. نظرا إلى النهر وأصابهما الذهول: فقد كان هناك صبى يقف فى الماء عاريا مغمورا حتى وسطه. كان ذاك هو التلميذ كوليا، شقيق آنا سيميونوفنا. كان واقفا فى الماء ينظر إلى الشاب والشابة وهو يبتسم بخبث.

وقال:

ـ آه.. تتبادلان القبل؟ طيب! سأقول لماما. فدمدم لابكين وهو يتضرج بالحمرة:

ـ آمل بأنك كإنسان شريف.. إن التلصص شىء وضيع، والوشاية شىء منحط، حقير، كريه.. أعتقد أنك كإنسان شريف ونبيل..

فقال الإنسان النبيل:

ـ هات روبلا وعندئذ لن أقول! وإلا فسأقول.

وأخرج لابكين من جيبه روبلا وأعطاه لكوليا، وضم هذا قبضته المبللة على الروبل، وصفّر، ثم سبح مبتعدا. ولم يعد العاشقان الشابان إلى

تبادل القبل بعد ذلك فى هذا اليوم .

وفى اليوم التالى جلب لابكين أصباغا وكرة من المدينة لكوليا ، وأهدته أخته كل علب الأدوية الفارغة التى كانت تمتلكها . ثم اضطرا إلى إهدائه أزرار أكمام قميص بسحن كلاب . ويبدو أن هذا كله أعجب الصبى الشرير ، ولكى يحصل على المزيد مضى يراقبها . وأينما ذهب لابكين وآنا سيميونوفنا كان يذهب . ولم يتركهما دقيقة واحدة .

وصر لابكين على أسنانه وقال :

ـ وغد ! ما أصغره ومع ذلك فياله من وغد كبير ! ترى كيف سيصبح فيما بعد ؟ !

وطوال شهر يونيو نغص كوليا على العاشقين المسكينين حياتهما . كان يهددهما بالوشاية ، ويراقبهما ويطالب بالهدايا . ولم يكن يكفيه ما يحصل عليه ، وفى آخر الأمر بدأ يتحدث عن ساعة جيب . فماذا؟ اضطرا إلى أن يعداه بساعة .

وذات مرة ، أثناء الغداء ، عندما قدموا البسكوت المحشو بالحلوى ، قهقه كوليا فجأة ، وغمز بعينه وسأل لابكين :

ـ أقول ؟ هه؟

واحمر لابكين بشدة ، وبدلا من البسكوت راح يمضغ الفوطة . وهبت آنا سيميونوفنا واقفة من أمام المائدة وركضت إلى غرفة أخرى .

وظل العاشقان فى هذا الوضع حتى آخر أغسطس ، حتى ذلك اليوم الذى طلب فيه لابكين أخيرا يد آنا سيميونوفنا . أوه ، كم كان يوما سعيدا ! فبعد أن تحدث لابكين مع والدى العروس وحصل على موافقتهما ، كان أول ما فعله أن انطلق إلى الحديقة ومضى يبحث عن كوليا . وعندما وجده كاد يعول من الفرحة وأمسك بهذا الولد الشرير من أذنه . وجاءت آنا

سيميونوفنا ركضا، فقد كانت هى الأخرى تبحث عن كوليا، وأمسكت بأذنه الثانية. كان ينبغى أن تروا أيه متعة ارتسمت على وجهى العاشقين عندما راح كوليا يبكى ويضرع إليهما:

ـ يا أحبائى، يا أعزائى، لن أعود إلى ذلك. آى، آى، سامحانى.

وبعد ذلك اعترفا بأنهما لم يشعرا أبدا طوال فترة حبهما بمثل هذه السعادة، بمثل هذه المتعة الغامرة، التى أحسا بها عندما كان يشدان أذنى هذا الولد الشرير.

وحشة

لمن أشكو حزنى؟ . .

غسق المساء. ندف الثلج الكبيرة الرطبة تدور بكسل حول مصابيح الشارع التى أضيئت لتوها، وتترسب طبقة رقيقة لينة على أسطح المنازل وظهور الخيل، وعلى الأكتاف والقبعات. والحوذى أيونا بوتابوف أبيض تماما كالشبح. انحنى متقوسا بقدر ما يستطيع الجسد الحى أن يتقوس وهو جالس على المقعد بلا حراك. ويبدو أنه لو سقط عليه كوم كامل من الثلج فربما ما وجد ضرورة لنفضه. . وفرسه أيضا بيضاء، تقف بلا حراك. وتبدو بوقفتها الجامدة، وعدم تناسق بدنها، وقوائمها المستقيمة كالعصىّ حتى عن قرب أشبه بحصان الحلوى الرخيص. وهى على الأرجح مستغرقة فى التفكير. فمن انتزع من المحراث، من المشاهد الريفية المألوفة وألقى به هنا فى هذه الدوامة المليئة بالأضواء الخرافية، والصخب المتواصل والناس الراكضين، لا يمكن إلا أن يفكر. .

لم يتحرك أيونا وفرسه من مكانهما منذ وقت طويل. كان قد خرجا من الدار قبل الغداء ولكنهما لم يستفتحا حتى الآن. وها هو ذا ظلام السماء يهبط على المدينة. ويتراجع شحوب أضواء المصابيح مفسحا مكانه للألوان الحية، وتعلو ضوضاء الشارع.

ويسمع أيونا:

ـ يا حوذى! إلى فيبورجسكايا! يا حوذى!

ينتفض أيونا، ويرى من خلال رموشه المكللة بالثلج رجلا عسكريا فى

معطف بقلنسوة.

ويردد العسكري:

- إلى فيبورجسكايا، ماذا، هل أنت نائم؟ إلى فيبورجسكايا!

ويشد أيونا اللجام علامة الموافقة، فتتساقط أثر ذلك طبقات الثلج من على ظهر الفرس ومن على كتفيه.. ويجلس العسكري في الزحافة. ويطقطق الحوذي بشفتيه، ويمد عنقه كالبجعة، وينهض قليلا، ويلوح بالسوط بحكم العادة أكثر مما هو بدافع الحاجة. وتمد الفرس أيضا عنقها، وتعوج قوائمها العصوية وتتحرك من مكانها بتردد..

وما إن يمضي أيونا بالزحافة حتى يسمع صيحات من الحشد المظلم المتحرك جيئة وذهابا:

- إلى أين تندفع أيها الأحمق! أي شيطان ألقى بك؟ الزم يمينك!

ويقول العسكري بانزعاج:

- أنت لا تعرف كيف تسوق! الزم يمينك!

ويسب حوذي عربة حنطور، ويحدق بغضب أحد المارة، وكان يعبر الطريق فاصطدمت كتفه بعنق الفرس، وينفض الثلج عن كمه. ويتململ أيونا فوق المقعد وكأنه جالس على جمر، ويضرب بمرفقيه في كلا الجانبين، ويدور بنظراته كالممسوس، وكأنما لا يفهم أين هو ولماذا هو هنا.

ويسخر العسكري:

- يا لهم جميعا من أوغاد! كلهم يسعون إلى الاصطدام بك أو الوقوع تحت أرجل الفرس. إنهم متآمرون ضدك.

يتطلع أيونا إلى الراكب ويحرك شفتيه.. يبدو أنه يريد أن يقول شيئا ما، ولكن لا يخرج من حلقه شيء سوى الفحيح.

فيسأله العسكرى :

ـ ماذا؟

يلوى أيونا فمه بابتسامة ويوتّر حنجرته ويفح :

ـ أنا يا سيدى . . هذا الأسبوع يعنى . . ابنى مات .

ـ إم! . . ومم مات إذن؟

يستدير أيونا بجسده كله نحو الراكب ويقول :

ـ ومن يدرى؟ الظاهر من الحمى . . رقد فى المستشفى ثلاثة أيام ومات . . مشيئة الله .

ويتردد فى الظلام :

ـ حاسب يا ملعون! هل عميت أيها الكلب العجوز؟ افتح عينيك!

ويقول الراكب :

ـ هيا، هيا سر . . بهذه الطريقة لن نصل ولا غدا . عجّل!

ويمد الحوذى عنقه من جديد، وينهض قليلا ويلوح بالسوط بحركة رشيقة متثاقلة . ويلتفت إلى الراكب عدة مرات، ولكن الأخير كان قد أغمض عينيه ويبدو غير راغب فى الإنصات . وبعد أن ينزله فى فيبورجسكايا يتوقف عند إحدى الحانات، وينحنى متقوسا وهو جالس على مقعد الحوذى، ويجمد بلا حراك مرة أخرى . . ومن جديد يصبغه الثلج الرطب هو وفرسه باللون الأبيض . وتمر ساعة، وأخرى . .

على الرصيف يسير ثلاثة شبان وهم يقرقعون بأحذيتهم فى صخب ويتبادلون السباب . اثنان منهم طويلان نحيفان، والثالث قصير أحدب .

ويصيح الأحدب بصوت مرتعش :

ـ يا حوذى، إلى جسر الشرطة! ثلاثة ركاب.. بعشرين كوبيكا!

يشد أيونا اللجام ويطقطق بشفتيه. ليست العشرون كوبيكا بسعر مناسب، ولكنه فى شغل عن السعر.. فسواء لديه روبل أم خمسة كوبيكات.. المهم أن يكون هناك ركاب.. يقترب الشبان من الزحافة وهم يتدافعون بألفاظ نابية، ويرتمى ثلاثتهم على المقاعد دفعة واحدة. وتبدأ مناقشة قضية: من الاثنان اللذان سيجلسان، ومن الثالث الذى سيقف؟ وبعد سباب طويل ونزق وعتاب يصلون إلى حل: الأحدب هو الذى ينبغى أن يقف باعتباره الأصغر.

فيقول الأحدب بصوته المرتعش وهو يثبت أقدامه ويتنفس فى قفا أيونا:

ـ هيا عجّل! اضربها بالسوط! يا لها من قبعة لديك يا أخى! لن تجد فى بطرسبرج كلها أسوأ منها.. فيقهقه أيونا:

ـ هئ.. هئ.. هئ.. هئ. هذا هو الموجود..

اسمع أنت، أيها الموجود، عجّل! هل ستسير هكذا طول الطريق؟ نعم؟ ألا تريد صفعة على قفاك؟..

ويقول أحد الطويلين:

ـ رأسى يكاد ينفجر.. بالأمس شربت أنا وفاسكا عند آل دوكماسوف أربع زجاجات كونياك نحن الاثنان.

ويقول الطويل الآخر بغضب:

ـ لا أدرى ما الداعى للكذب! يكذب كالحيوان.

ـ علىّ اللعنة إن لم يكن حقيقة

ـ أنها حقيقة مثلما أن القملة تسعل. فيضحك أيونا:

ـ هئ.. هئ.. سادة ظرفاء!

ويقول الأحدب بسخط :

ـ فلتخطفك الشياطين! هل ستعجل أيها الوباء العجوز أم لا؟ هل هذا سير؟ ناولها بالسوط! هيا أيها الشيطان! هيا! ناولها جيدا!

ويحس أيونا خلف ظهره بجسد الأحدب المتململ ورعشة صوته. ويسمع السباب الموجه إليه، ويرى الناس فيبدأ الشعور بالوحدة ينزاح عن صدره شيئا فشيئا. ويظل الأحدب يسب حتى يغص بسباب منتقى فاحش وينفجر في السعال. ويشرع الطويلان في الحديث عمن تدعى ناديجدا بتروفنا. ويتطلع أيونا نحوهم. وينتهز فرصة الصمت فيتطلع نحوهم ثانية ويدمدم :

ـ أصل أنا . . هذا الأسبوع يعني . . ابني مات!

فيتنهد الأحدب وهو يمسح شفتيه بعد السعال :

ـ كلنا سنموت . . هيا عجّل، عجّل! يا سادة، أنا لا يمكن أن أمضي بهذه الطريقة! متى سيوصلنا؟

ـ حسنا، فلتشجعه قليلا . . في قفاه!

ـ هل سمعت أيها الوباء العجوز؟ سأكسر لك عنقك! التلطف مع جماعتكم معناه السير على الأقدام . . هل تسمع أيها الثعبان الشرير؟ أم أنك تبصق على كلماتنا؟ ويسمع أيونا أكثر مما يحس بصوت الصفعة على قفاه. فيضحك :

ـ هئ . . هئ . . سادة ظرفاء . . ربنا يعطيكم الصحة! ويسأل أحد الطويلين :

ـ يا حوذي، هل أنت متزوج؟

ـ أنا؟ هئ . . هئ . . سادة ظرفاء! لم يعد لديّ الآن إلا زوجة واحدة :

الأرض الرطبة . . هئ . . هوء . . هوء . . القبر يعنى ! . . ها هو ذا ابنى قد مات وأنا أعيش . . حاجة غريبة ، الموت غلط فى الباب . . بدلا من أن يأتينى ذهب إلى ابنى . .

ويلتفت أيونا لكى يروى كيف مات ابنه ، ولكن الأحدب يتنهد بارتياح ويعلن أنهم أخيرا ، والحمد لله ، وصلوا . ويحصل أيونا على العشرين كوبيكا ويظل ينظر طويلا فى أثر العابثين وهم يختفون فى ظلام المدخل . وها هو ذا وحيد ثانية ، ومن جديد يشمله السكون . . والوحشة التى هدأت قليلا تعود تطبق على صدره بأقوى مما كان . وتدور عينا أيونا بقلق وعذاب على الجموع المهرولة على جانبى الشارع : ألن يجد فى هذه الآلاف واحدا يصغى إليه؟ ولكن الجموع تسرع دون أن تلاحظه أو تلاحظ وحشته . . وحشة هائلة ، لا حدود لها . لو أن صدر أيونا انفجر ، وسالت منه الوحشة فربما أغرقت الدنيا كلها ، ومع ذلك لا أحد يراها . لقد استطاعت أن تختبئ فى صدفة ضئيلة فلن تُرى حتى فى وضح النهار . .

ويلمح أيونا بوابا يحمل قرطاسا فينوى أن يتحدث إليه . ويسأله :

ـ كم الساعة الآن يا ولدى؟

ـ التاسعة . . لماذا تقف هنا؟ امش !

يتحرك أيونا عدة أمتار ، ثم ينحنى متقوسا ، ويستسلم للوحشة . . ويرى أنه لا فائدة بعد من مخاطبة الناس . ولكن ما إن تمر بضع دقائق حتى يعتدل ، وينفض رأسه كأنما أحس بوخزة ألم حادة ، ويشد اللجام . . لم يعد قادرا على التحمل .

ويقول لنفسه : «إلى البيت ! إلى البيت !»

وكأنما فهمت الفرس أفكاره فتبدأ فى الركض بخبب . وبعد حوالى ساعة ونصف يكون أيونا جالسا بجوار فرن كبير قذر . وفوق الفرن ، وعلى

الأرض، وعلى الأرائك يتمدد أناس يشخرون. والجو مكتوم خانق.. يتطلع أيونا إلى النائمين ويحك جلده ويأسف لعودته المبكرة إلى البيت..

ويقول لنفسه: «لم أكسب حتى حق الشعير.. ولهذا أشعر بالوحشة. الرجل الذى يعرف عمله.. الذى هو نفسه شبعان وفرسه شبعى، وهو دائما مطمئن البال..»

فى إحدى الزوايا ينهض حوذى شاب، ويزحر بصوت ناعس، ويمد يديه إلى الدلو.

فيسأله أيونا:

ـ أردت أن تشرب؟

ـ كما ترى!

ـ طيب.. بالهنا والشفا.. أما أنا يا أخى فقد مات ابنى.. هل سمعت؟ هذا الأسبوع، فى المستشفى.. حكاية!

ويتطلع أيونا ليرى أى تأثير تركته كلماته، ولكنه لا يرى شيئا. فقد تغطى الحوذى الشاب حتى رأسه وغط فى النوم. ويتنهد العجوز ويحك جلده.. فمثلما رغب الحوذى الشاب فى الشرب يرغب هو فى الحديث. عما قريب يمر أسبوع منذ أن مات ابنه، بينما لم يتمكن حتى الآن من الحديث عن ذلك مع أحد كما يجب.. ضرورى أن يتحدث بوضوح، على مهل.. ينبغى أن يروى كيف مرض ابنه، وكيف تعذب، وماذا قال قبل وفاته، وكيف مات.. ينبغى أن يصف جنازته وذهابه إلى المستشفى ليتسلم ثياب المرحوم. وفى القرية بقيت ابنته أنيسيا.. ينبغى أن يتحدث عنها أيضا.. وعموما، فما أكثر ما يستطيع أن يرويه الآن! ولا بد أن يتأوه السامع ويتنهد، ويرثى.. والأفضل أن يتحدث مع النساء. فهؤلاء وإن كنَّ حمقاوات، يعولن من كلمتين.

ويقول أيونا لنفسه: «فلأذهب لأتفقد الفرس.. أما النوم فبعدين.. سأشبع نوما..»

يرتدى ملابسه ويذهب إلى الإصطبل حيث تقف فرسه. ويفكر فى الشعير، والدريس والجو.. فعندما يكون وحده لا يستطيع أن يفكر فى ابنه.. يستطيع أن يتحدث عنه مع أحد ما، أما أن يفكر فيه ويرسم لنفسه صورته فشىء رهيب لا يطاق..

ويسأل أيونا فرسه عندما يرى عينيها البراقتين:

تمضغين؟ حسنا، امضغى، امضغى.. ما دمنا لم نكسب حق الشعير فسنأكل الدريس.. نعم.. أنا كبرت على السواقة.. كان المفروض أن يسوق ابنى لا أنا.. كان حوذيا أصيلا.. لو أنه فقط عاش..

ويصمت أيونا بعض الوقت ثم يواصل:

ـ هكذا يا أختى الفرس.. لم يعد كوزما أيونيتش موجودا.. رحل عنا.. فجأة مات، خسارة.. فلنفرض مثلا أن عندك مهرا، وأنت أم لهذا المهر.. ولنفرض أن هذا المهر رحل فجأة.. أليس مؤسفا؟

وتمضغ الفرس وتنصت وتزفر على يدى صاحبها.. ويندمج أيونا فيحكى لها كل شىء..

مزحة

ساعة الظهر فى يوم شتائى صحو . . الصقيع شديد قارس ، وحبات الجليد الفضية تكسو خصلات فودى «نادنكا»[1] والزغب فوق شفتها العليا . إنها تتأبط ذراعى ، ونحن واقفان فوق تل مرتفع . ويمتد من أقدامنا حتى الأرض شريط منحدر تشرق عليه الشمس كأنما تطل فى مرآة . وبجوارنا زحافة صغيرة ، مكسوة بالجوخ الأحمر القانى .

وأتوسل إليها :

ـ فلنتزحلق إلى أسفل يا ناديجدا بتروفنا ! مرة واحدة أرجوك ! أؤكد لك أننا سنصل سالمين دون أذى !

ولكن نادنكا خائفة . وتبدو لها المسافة من قدميها الصغيرتين حتى نهاية التل الجليدى هوةً مرعبة لا قرار لها . وتحتبس أنفاسها وتلهث بمجرد أن تنظر إلى أسفل ، بمجرد أن أعرض عليها الجلوس فى الزحافة ، فماذا سيحدث إذن لو أنها غامرت بالقفز إلى الهوة ! ستموت فورا أو تُجن .

وأقول لها :

ـ أتوسل إليك ! لا داعى للخوف ! فلتفهمى ، إن هذا ضعف ، جبن !

وأخيرا ترضخ نادنكا ، فأرى فى وجهها أنها ترضخ مخاطرةً بحياتها .

---

(١) «نادنكا» و«ناديا» تدليل من الاسم الكامل «ناديجدا» . **(المعرب)** .

وأجلسها فى الزحافة وهى شاحبة مرتجفة، وأطوقها بذراعى، وأرتمى معها فى الهوة.

تطير الزحافة كالرصاصة. ونشق الهواء فيلفحنا فى وجهينا، ويعول، ويصفر فى آذاننا ويعربد، ويخزنا بألم من شدة الغضب، ويريد أن ينتزع رأسينا من أكتافنا. ومن شدة ضغط الريح لا نقوى على التنفس. يبدو وكأن الشيطان نفسه قد طوقنا بيديه وأخذ يشدنا إلى الجحيم وهو يزأر. وتندمج الأشياء المحيطة بنا فى شريط طويل سريع راكض.. ويخيل إلينا أننا الآن، بعد لحظة، سنلقى حتفنا! وأقول بصوت خافت:

ـ أحبك يا ناديا!

وتقل سرعة الزحافة شيئا فشيئا، ولا يعود زئير الريح وأزيز قضبان الزحافة يبدوان مخيفين، وتكف الأنفاس عن الاحتباس، وأخيرا نجد أنفسنا عند أسفل التل. أما نادنكا فبين الحياة والموت. إنها شاحبة، لا تكاد تتنفس.. وأساعدها على النهوض.

ـ لن أتزحلق مرة أخرى أبدا، ـ تقول وهى تتطلع إلىّ بعينين واسعتين ملؤهما الرعب. ـ أبدا، أبدا! كدت أموت!

وبعد قليل تعود إلى حالتها الطبيعية، وترمقنى بنظرات متسائلة: أهو أنا الذى قلت تلك الكلمات الثلاث، أم خيل إليها أنها سمعتها فى صخب الإعصار؟ أما أنا فأقف بجوارها أدخن، وأتفحص قفازى باهتمام.

وتتأبط ذراعى، ونتنزه طويلا بجوار التل. يبدو أن اللغز يحيرها. هل قيلت تلك الكلمات أم لا؟ نعم أم لا؟ نعم أم لا؟ إنها قضية كرامة، شرف، حياة، سعادة، قضية مهمة جدا، أهم قضية فى الدنيا. وتتطلع نادنكا إلى وجهى بلهفة، وحزن، بنظرة ثاقبة، وترد بغير ما أسأل، وتنتظر هل سأبدأ أنا الحديث. أوه، ياله من صراع يرتسم على هذا الوجه الرقيق، ياله من صراع! وأرى كيف تغالب نفسها، تريد أن تقول شيئا ما، تريد أن

تسأل عن شيء ما، لكنها لا تجد الكلمات المناسبة، وتشعر بالحرج، والرهبة، وتعوقها الفرحة. . وتقول دون أن تنظر إلىّ:

ـ أتدرى؟

فأسألها:

ـ ماذا؟

ـ هيا مرة أخرى. . نتزحلق.

نصعد سلما إلى التل. ومن جديد أجلس نادنكا الشاحبة المرتجفة فى الزحافة، ومن جديد نطير إلى الهوة الرهيبة، ومن جديد تزأر الريح وتئز القضبان، ومن جديد، وفى قمة طيران الزحافة وصخبها، أقول بصوت خافت:

ـ أحبك يا نادنكا!

وحينما تتوقف الزحافة تلقى نادنكا نظرة على التل الذى انحدرنا من فوقه لتونا، ثم تتفحص وجهى طويلا، وتصغى إلى صوتى اللامبالى المحايد، وتنطق كلها، حتى موفتها وقلنسوتها، وهيأتها كلها، بالدهشة البالغة. وعلى وجهها قد كتب:

«ما الأمر؟ من الذى تفوه بتلك الكلمات؟ هو، أم أن ذلك خيل إلىّ؟»

ويقلقها هذا المجهول ويخرجها عن صبرها. ولا ترد الفتاة المسكينة على اسئلتى، وتعبس وهى توشك على البكاء. وأسألها:

ـ هلا عدنا إلى البيت؟

فتقول وهى تتضرج:

ـ ولكنى. . أنا يعجبنى هذا التزحلق. ألا نتزحلق مرة أخرى؟

«يعجبها» هذا التزحلق، بينما يشحب وجهها وترتعش، وتحتبس أنفاسها خوفا كما فى المرتين السابقتين عندما تجلس فى الزحافة.

نهبط للمرة الثالثة، وأراها تحدق فى وجهى وتراقب شفتىّ. فأضع منديلا على فمى وأسعل، وعندما نبلغ منتصف التل أتمكن من الهمس:

ـ أحبك يا ناديا!

ويظل اللغز لغزا! وتصمت نادنكا وهى تفكر فى شىء ما.. وأمضى لأوصلها من ميدان التزحلق إلى بيتها، فتتعمد هى أن تسير على مهل، وتبطىء من خطواتها، وطوال الوقت تنتظر أن أقول لها تلك الكلمات. وأرى كيف تتعذب روحها، وكيف تغالب نفسها لكى لا تقول:

«لا يمكن أن تكون الريح هى التى قالتها! كما أننى لا أريد أن تكون الريح هى التى قالتها!»

وفى صباح اليوم التالى أتلقى رسالة قصيرة: «إذا كنت تنوى الذهاب اليوم إلى ميدان التزحلق، مر علىّ. ـ ن». ومنذ ذلك اليوم وأنا أذهب مع نادنكا يوميا إلى ميدان التزحلق، وعندما نهوى بالزحافة إلى أسفل، أقول فى كل مرة بصوت خافت نفس الكلمات:

ـ أحبك يا ناديا!

وسرعان ماتتعود نادنكا هذه الجملة، كما يتعود المرء الخمر أو المورفين. ولا تستطيع أن تحيا بدونها. صحيح أنها ظلت تخاف الهبوط من التل، ولكن الخوف والخطر أصبحا يضفيان سحرا خاصا على كلمات الحب، هذه الكلمات التى بقيت كما كانت لغزا يثير الأشجان. والشك مازال محصورا فى اثنين: أنا والريح.. من منا الذى يبوح لها بحبه.. إنها لا تعرف، ولكن يبدو أن الأمر أصبح بالنسبة لها سيان. لا يهم من أى وعاء تشرب، المهم أن تصبح ثملا.

وذات مرة، ذهبت في الظهر إلى ميدان التزحلق وحدى. وعندما اختلطت بالحشد، رأيت نادنكا تقترب من التل وهى تبحث عنى بعينيها.. ثم ارتقت السلم في وجل.. كم هو مرعب أن تتزحلق وحدها، أوه كم هو مرعب! إنها شاحبة بلون الثلج، وترتجف، تمضى وكأنما تساق إلى ساحة الإعدام، ولكنها تمضى، بإقدام وحزم. يبدو أنها قررت أخيرا أن تجرب: ترى هل ستسمع تلك الكلمات الحلوة المدهشة وأنا غير موجود؟ وأراها وهى تركب الزحافة، شاحبة، مفغورة الفم من الرعب، وتغمض عينيها، وتودع الأرض إلى الأبد، وتنطلق من مكانها.. وتئز قضبان الزحافة: «ز.. ز.. ز». ترى هل تسمع نادنكا تلك الكلمات؟ لست أدرى.. أرى فقط أنها تنهض من الزحافة منهكة، خائرة. ويبدو من وجهها أنها هى نفسها لا تدرى هل سمعت شيئا أم لا. فقد سلبها الخوف وهى تهوى إلى أسفل القدرة على السمع وتمييز الأصوات والفهم..

وها هو ذا شهر مارس، شهر الربيع، يأتى.. وتصبح الشمس أكثر رقة. ويميل لون تلنا الجليدى إلى القتامة، ويفقد بريقه، وأخيرا يذوب. ونكف عن التزحلق. ولا يعود لدى نادنكا المسكينة مكان تسمع فيه تلك الكلمات، بل وليس هناك من يقولها، لأن الريح لم تعد تسمع، أما أنا فأستعد للسفر إلى بطرسبرج لمدة طويلة، وربما إلى الأبد.

وذات مرة، قبل سفرى بحوالى يومين، كنت جالسا في الحديقة ساعة الغسق. وكان هناك سور مرتفع بمسامير يفصل هذه الحديقة عن الفناء الذى يقع فيه بيت نادنكا.. كان الجو لا يزال باردا، والثلج لم يذب كله تحت السماد، والأشجار ميتة، ولكن روائح الربيع انتشرت في الجو، والغربان تصيح بصخب وهى تأوى إلى النوم. اقتربت من السور وأخذت أنظر طويلا في الشق. ورأيت نادنكا تخرج إلى درج المدخل، وتتطلع إلى السماء بنظرة حزينة ملتاعة.. وتلفح رياح الربيع وجهها الشاحب المكتئب.. وتذكرها بتلك الريح التى كانت تزأر آنذاك في وجهينا فوق

التل حينما سمعت تلك الكلمات الثلاث ، فيصبح وجهها حزينا حزينا ، وتتدحرج على خدها دمعة . . وتمد الفتاة المسكينة ذراعيها ، كأنما تسأل هذه الريح أن تحمل إليها مرة أخرى تلك الكلمات . فأنتظر دفقة ريح وأقول بصوت خافت :

ـ أحبك يا ناديا !

يا إلهى ، ماذا جرى لنادنكا ! إنها تصرخ وتبتسم بوجهها كله ، وتمد ذراعيها لملاقاة الريح ، متهللة ، سعيدة ، فى غاية الجمال .

وأنصرف لأرتب حقائبى . .

كان ذلك منذ زمن بعيد . أما الآن فنادنكا متزوجة . زوجوها أو تزوجت ـ هذا سيان ـ من سكرتير مجلس وصاية النبلاء ، ولديها ثلاثة أطفال . ولكنها لم تنس كيف كنا نذهب فى الماضى إلى ميدان التزحلق ، وكيف حملت الريح إليها كلمات «أحبك يا ناديا» . أصبح هذا بالنسبة لها الآن أسعد وأرق وأروع ذكرى فى الحياة . .

أما أنا الآن ، وبعد أن صرت أكبر ، فلا أفهم لماذا قلت تلك الكلمات ، ولأى غرض كنت أمزح . .

فانكا

فى ليلة عيد الميلاد لم ينم الصبى فانكا جوكوف ابن الأعوام التسعة والذى أعطوه منذ ثلاثة أشهر للإسكافى ألياخين ليعمل صبيا لديه. وانتظر حتى انصرف أصحاب البيت والأسطوات إلى الصلاة فأخرج من صوان الإسكافى محبرة وقلما بسن صدئ، وفرش أمامه ورقة مجعدة وراح يكتب. وقبل أن يخط أول حرف نظر إلى الباب والنوافذ بحذر، وتطلع بطرف عينه إلى الأيقونة الداكنة التى امتدت عن جانبيها أرفف محملة بالنعال، وزفر زفيرا متقطعا. كانت الورقة مبسوطة على الأريكة، أما هو فقد جثا على ركبتيه أمامها. وكتب:

«جدى العزيز قسطنطين مكاريتش! أنا أكتب إليك خطابا. أهنئكم بعيد الميلاد وأرجو لك من الله كل الخير. أنا ليس لدىّ أب أو أم، ولم يبق لى غيرك وحدك».

وحوّل فانكا بصره إلى النافذة المظلمة التى عكست ضوء شمعته المتذبذب، وتخيل بوضوح جده قسطنطين مكاريتش الذى يعمل حارسا ليليا لدى السادة آل جيفارف. هو عجوز صغير نحيل إلا أنه خفيف الحركة بصورة غير عادية، وفى حوالى الخامسة والستين، ذو وجه باسم دائما وعينين ثملتين. كان نهارا ينام فى مطبخ الخدم أو يثرثر مع الطاهيات، أما فى الليل فيطوف حول بيت السادة متدثرا بمعطف فضفاض من جلد الحمل ويدق على صفيحة. ومن خلفه.يسير مطأطئى الرأسين الكلبة العجوز

«كـاشتـانكا»، والكلب «فيـون» الذى سمى هكذا للونه الأسـود وجسـده الطويل كالنمس. كان هذا الـ «فيون» مهذبا ورقيقا بصورة غير عادية، وكان ينظر بنفس الدرجة من التأثر سواء لأصحابه أم للغرباء، ولكنه لم يكن يحظى بالثقة. كان يخفى تحت تهذيبه واستكانته خبثا غادرا إلى أقصى حد. فلم يكن هناك من هو أحسن منه فى التلصص فى الوقت المناسب ليعض الساق، أو التسلل إلى المخزن، أوسرقة دجاجة من بيت فلاح. وقد حطموا له ساقيه الخلفيتين غير مرة، وعلقوه مرتين، وكانوا يضربونه كل أسبوع حتى الموت، ولكنه كان يبعث من جديد.

وربما يقف الجد الآن أمام البوابة ويزر عينيه وهو يتطلع إلى نوافذ كنيسة القرية الساطعة الحمرة، ويثرثر مع الخدم وهو يدق الأرض بحذائه اللباد. والصفيحة التى يدق عليها معلقة إلى خصره. ويشيح بيديه ثم يتململ من البرد، ويضحك ضحكة عجوز ويقرص الخادم تارة والطاهية تارة أخرى.

ويقول وهو يقدم للفلاحات كيس تبغه:

ـ ألا ترغبن فى استنشاق التبغ؟

وتستنشق الفلاحات ويعطسن، ويستولى على الجد إعجاب لا يوصف ويقهقه بمرح ويصيح:

ـ بقوة وإلا لزقت!

ويقدمون التبغ للكلاب لتشمه. وتعطس «كاشتانكا»، وتلوى بوزها، وتبتعد مغضبة. أما «فيون» فلا يعطس تأدبًا، بل يهز ذيله. والجو رائع. الهواء هادئ وشفاف ومنعش. والليل حالك ومع ذلك تلوح القرية كلها بأسقف منازلها البيضاء وأعمدة الدخان المنبعثة من المداخن، والأشجار وقد كساها الثلج ثوبا فضيًا، وأكوام الثلج، والسماء كلها مرصعة بنجوم تتراقص بمرح، ويبدو درب التبانة واضحا كأنما غسلوه قبل العيد ودعكوه بالثلج . .

وتنهد فانكا، وغمس الريشة فى الحبر ومضى يكتب:

«بالأمس ضربونى علقة. شدّنى المعلم من شعرى إلى الحوش وضربنى بقالب الأحذية لأنى كنت أهز ابنه فى المهد فنعست غصبا عنى. وفى هذا الأسبوع أمرتنى المعلمة أن أقشر فسيخة، فبدأت أقشرها من ذيلها فشدت منى الفسيخة وأخذت تحك رأسها فى وجهى. والأسطوات يسخرون منى ويرسلوننى إلى الخمارة لشراء الفودكا ويأمروننى أن أسرق الخيار من بيت المعلم، والمعلم يضربنى بكل ما يقع فى يده. وليس هناك أى طعام. فى الصباح يعطوننى خبزًا، وفى الغداء عصيدة، وفى المساء أيضا خبزًا، أما الشاى أو الحساء فالسادة وحدهم يشربونه. ويأمروننى أن أنام فى المدخل، وعندما يبكى ابنهم لا أنام أبدا وأهز المهد. يا جدى العزيز، اعمل معروفًا لله وخذنى من هنا إلى البيت فى القرية لم أعد أحتمل أبدًا. . . أتوسل إليك وسوف أصلى لله دائما، خذنى من هنا وإلا سأموت. . »

وقلص فانكا شفتيه ومسح عينيه بقبضته السوداء وأجهش.

ومضى يكتب: «سأطحن لك التبغ، وأصلى لله، وإذا بدر منى شىء اضربنى كما يضرب الكلب. وإذا كنت تظن أنه ليس لى عمل فسأرجو الخولى بحق المسيح أن يأخذنى ولو لتنظيف حذائه، أو أعمل راعيا بدلا من فيدكا. يا جدى العزيز، لم أعد أحتمل أبدا، لا شىء سوى الموت. أردت أن أهرب إلى القرية ماشيا ولكن ليس لدىّ حذاء وأخشى الصقيع. وعندما أصبح كبيرا فسوف أطعمك مقابل هذا ولن أسمح لأحد أن يمسك، وإذا مُتَّ يا جدى فسأصلى من أجل روحك كما أصلى من أجل أمى بلاجيا.

وموسكو مدينة كبيرة. والبيوت كلها بيوت أكابر، والخيول كثيرة، وليس هناك غنم، والكلاب ليست شريرة. والأولاد فى العيد لا يطوفون بالبيوت منشدين ولا يسمح لأحد بالذهاب للترتيل فى الكنيسة. ومرة

رأيت فى أحد الدكاكين، فى الشباك، صنانير تباع بخيوطها لصيد كل أنواع السمك، عظيمة جدا، بل وتوجد صنارة تتحمل قرموطا وزنه بود[1]. ورأيت دكاكين فيها مختلف أنواع البنادق التى تشبه بنادق السادة، ويمكن الواحدة منها أن تساوى مائة روبل. . وفى دكاكين اللحوم يوجد دجاج الغابة وأرانب، ولكن الباعة لا يقولون أين يصطادونها.

يا جدى العزيز، عندما يقيم السادة شجرة عيد الميلاد خذ لى جوزة مذهبة وخبئها فى الصندوق. قل للآنسة أولجا أجناتيفنا إنها من أجل فانكا».

وتنهد فانكا وسمر عينيه فى النافذة من جديد. وتذكر أن جده كان دائما يذهب للغابة لإحضار شجرة عيد الميلاد ويصحب معه حفيده. ياله من عهد سعيد! كان الجد يتنحنح والثلج يتنحنح وفانكا يتنحنح مثلهما. وكان يحدث أن الجد، قبل أن يقطع الشجرة، يجلس ليدخن الغليون، ويشم التبغ طويلا وهو يضحك من فانكا المقرور. . وشجيرات عيد الميلاد الشابة تقف ملفعة بالثلج وساكنة وهى تنتظر أيها التى ستموت؟ وفجأة يمرق أرنب كالسهم عبر أكوام الثلج. . ولا يستطيع الجد أن يمسك نفسه عن الصياح:

ـ أمسك، أمسك. . أمسك! آه، يا شيطان يا ملعون!

ثم يسحب الجد الشجرة المقطوعة إلى منزل السادة، حيث يشرعون فى تزيينها. . وكانت الآنسة أولجا أجناتيفنا التى يحبها فانكا، هى التى تنشغل أكثر الجميع. وعندما كانت أم فانكا بيلاجيا على قيد الحياة وتعمل خادما لدى السادة، كانت أولجا أجناتيفنا تعطى لفانكا الحلوى، ولما لم يكن لديها ما تعمله فقد علمته القراءة والكتابة والعد حتى مائة، بل وحتى رقصة الكادريل. ولما ماتت بيلاجيا، أرسلوا فانكا اليتيم إلى جده فى المطبخ مع

(١) البود ـ وحدة وزن روسية تساوى ١٦,٣٨ كيلوجراما. (المعرب).

الخدم، ومن المطبخ إلى موسكو عند الإسكافى ألياخين . .

ومضى فانكا يكتب: «احضر يا جدى العزيز. استحلفك بالمسيح الرب أن تأخذنى من هنا. أشفق على أنا اليتيم المسكين، لأن الجميع يضربوننى، وأنا جوعان جدا، ولا أستطيع أن أصف لك وحشتى، وأبكى طول الوقت. ومن مدة ضربنى المعلم بالنعل على رأسى حتى وقعت ولم أفق إلا بصعوبة. ما أضيع حياتى، أسوأ من حياة أى كلب. . تحياتى لأليونا ويجوركا الأحول، والحوذى، ولا تعط الهارمونيكا لأحد. حفيدك دائما إيفان جوكوف، احضر يا جدى العزيز».

وطوى فانكا الورقة المكتوبة أربع مرات ووضعها فى مظروف كان قد اشتراه من قبل بكوبيك. . وفكر قليلا ثم غمس الريشة وكتب العنوان:

إلى قرية جدى

وحك رأسه وفكر، ثم أضاف: «قسطنطين مكاريتش». وارتدى غطاء الرأس وهو سعيد لأن أحدا لم يعقه عن الكتابة، ولم يضع المعطف على كتفيه، بل انطلق إلى الخارج بالقميص فقط. .

كان الباعة فى دكان الجزار الذى سألهم من قبل قد أخبروه أن الرسائل تلقى فى صنادق البريد، ومن الصناديق تنقل إلى جميع أنحاء الأرض على عربات بريد بحوذية سكارى وأجراس رنانة. وركض فانكا إلى أول صندوق بريد صادفه، ودس الرسالة الغالية فى فتحة الصندوق. .

وبعد ساعة كان يغط فى نوم عميق وقد هدهدت الآمال الحلوة روحه. . وحلم بالفرن. كان جده جالسا على الفرن مدليا ساقيه العريانتين وهو يقرأ الرسالة للطاهيات. . وبجوار الفرن يسير «فيون» ويهز ذيله. .

هـرج

ما إن عـادت ماشنكا بافليتسكايا، الفتاة الشابة، التى أنهت دورة المعهد النسـائى مـؤخـرا، من نزهتـهـا إلى دار آل كـوشكين، حـيث كـانت تقطن وتعمل مربية، حتى رأت هرجا لم يسبق له مثيل. وكان البواب ميخايلو، الذى فتح لها الباب منفعلا وأحمر الوجه كسرطان البحر.

ومن أعلى تناهى ضجيج.

وفكرت ماشا: «لابد أن السيدة أصيبت بنوبة.. أو أنها تشاجرت مع زوجها..».

والتقت فى المدخل ثم فى الطرقة بالخادمات، وكانت إحداهن تبكى. ثم رأت ماشنكا كيف خرج من باب غرفتها هى رب الدار نفسه نيقولاى سيرجييتش، وهو رجل صغير، لم يهزم بعد، ذو وجه متقزز وصلعة كبيرة. كان محمرا، يرتعد.. ومر بجوار المربية دون أن يلاحظها، وصاح هاتفا وهو يرفع يديه إلى أعلى:

ـ أوه، ما أفظع هذا! يا لانعدام اللباقة! ما أغبى هذا، ما أشنعه! ما أحطه!

دخلت ماشنكا غرفتها، وهنا كابدت لأول مرة فى حياتها وبكل حدة، ذلك الإحساس المعروف جيدا لمن هم فى وضع التبعية، لغير القادرين على الرد، لمن يعيشون فى كنف الأغنياء والأكابر. كانت غرفتها تتعرض

للتفتيش وكانت ربة الدار فيدوسيا فاسيليفنا، وهى امرأة بدينة، عريضة الكتفين، ذات حاجبين أسودين كثيفين وشعر مسترسل، حادة التقاطيع، بشارب خفيف لا يكاد يلحظ وذراعين حمراوين، تشبه بوجهها وحركاتها طاهية من عامة النساء، كانت تقف إلى جوار مكتب ماشنكا وتعيد إلى حقيبة يدها لفائف صوف وقطع قماش، وأوراقا ما. . ويبدو أن مجىء المربية كان مفاجأة لها، لأنها عندما التفتت ورأت وجهها الشاحب المندهش، ارتبكت قليلا وغمغمت:

- Pardon[1]، أنا. . أنا. . سقطت منى عفوا. . اشتبكت بكمى. .

وبعد أن دمدمت مدام كوشكينا بكلمات ما، هفهفت بذيل فستانها وخرجت. وطافت ماشنكا بنظرات مندهشة على غرفتها، وهزت كتفيها وهى لا تفهم شيئا ولا تدرى ماذا تظن، وتثلجت أطرافها خوفا. . عم كانت فيدوسيا فاسيليفنا تفتش فى حقيبة يدها؟ لو كان صحيحا ما قالت بأن كمها اشتبك عفوا بالحقيبة فتبعثرت محتوياتها، فلماذا إذن انفلت نيقولاى سرجييتش من الغرفة محمرا ومنفعلا بتلك الصورة؟ ولماذا يبرز قليلا أحد أدراج المكتب. والحصالة التى كانت المربية تخبئ فيها قطع النقود والطوابع القديمة كانت مفتوحة. لقد فتحوها ولكنهم لم يتمكنوا من إغلاقها رغم أنهم ملأوا القفل بالخدوش. وكان رف الكتب وسطح المكتب، والفراش. . كل ذلك كان يحمل آثار التفتيش القريب. وكذلك سلة الملابس. كانت الملابس مرتبة بعناية، ولكن ليس بنفس الترتيب الذى وضعته بها ماشنكا قبل أن تغادر المنزل. إذن فقد جرى تفتيش حقيقى، تفتيش بمعنى الكلمة، ولكن ما الداعى له، ولماذا؟ ماذا حدث؟ وتذكرت ماشنكا اضطراب البواب، والهرج الذى لا زال مستمرا، والخادم الباكية. . أليس لكل ذلك علاقة بالتفتيش الذى جرى فى غرفتها منذ

(١) عفوا (بالفرنسية فى الأصل). (المعرب).

قليل؟ أتكون متورطة فى قضية رهيبة؟ امتقعت ماشنكا وتهالكت فوق سلة الملابس باردة الجسم تماما.

ودخلت الخادم الغرفة.

فسألتها المربية:

ـ ليزا، ألا تعرفين لماذا.. فتشونى؟

فقالت ليزا:

ـ ضاع من السيدة بروش ثمنه ألفا روبل..

ـ طيب، ولكن لماذا يفتشوننى؟

ـ فتشوا الجميع يا آنسة. وأنا فتشونى كلى.. جردونا من ملابسنا تماما وفتشونا.. إننى يا آنسة.. يشهد الله.. لم ألمس بروش السيدة، بل لم اقترب حتى من تسريحتها.. ومستعدة أن أقول ذلك حتى للشرطة.

ومضت المربية تقول بدهشة:

ـ ولكن.. لماذا يفتشوننى؟

ـ قلت لك إن البروش قد سرق.. السيدة نفسها فتشت بيديها كل شيء.. حتى البواب ميخايلو فتشته بنفسها. يا للعار! ونيقولاى سجرييتش لا يستطيع أن يفعل إلا أن ينظر ويقوقئ كالدجاجة. أما أنت يا آنسة فعبثا ترتعدين. لم يجدوا شيئا لديك! ما دمت لم تأخذى البروش فليس هناك ما تخشينه.

فقالت ماشنكا وهى تختنق من الغضب:

ـ ولكن هذا يا ليزا وضيع.. مهين! إنها خسة، وضاعة! بأى حق تشك فىّ وتفتش أغراضى؟

فتنهدت ليزا قائلة :

ـ أنت تعيشين عند الغير يا آنسة . . ورغم أنك آنسة . . فمع ذلك . . أنت كالخادم . . ليس هذا مثل العيش عند بابا وماما . .

ارتمت ماشنكا على السرير وانتحبت بحرقة . لم يحدث أبدا من قبل أن تعرضت لمثل هذا القهر ، ولم يحدث أبدا من قبل أن أهينت بهذه الصورة كما حدث الآن . . هى الفتاة الحساسة ، المؤدبة ، ابنة مدرس ، يرتابون فيها كسارقة ، ويفتشونها كامرأة من الشارع ! لا يمكن ، فيما يبدو ، أن تكون هناك إهانة أكبر من هذه . واقترن بهذا الإحساس بالإهانة خوف ثقيل : ترى ماذا سيحدث ؟ ! وطافت برأسها شتى الخواطر الخرقاء . فإذا كانوا قد ارتابوا فى أنها سارقة ، فهذا يعنى أنه من الممكن أن يعتقلوها ، ويجردوها من ملابسها ويفتشوها ، ثم يسوقوها فى الشارع تحت الحراسة ، ويضعوها فى زنزانة مظلمة باردة مع الفئران والصراصير ، زنزانة تشبه بالضبط تلك التى وضعت فيها الأميرة تراكانوفا [1] . فمن ذا الذى سيدافع عنها ؟ أهلها يعيشون بعيدا فى الأرياف ، وليس لديهم نقود ليأتوا إليها . وهى وحيدة فى العاصمة ، كأنما فى حقل خاو ، بلا أهل أو معارف . يستطيعون أن يفعلوا بها كل ما يريدون .

وفكرت ماشنكا وهى ترتعش : «سألجأ إلى كل القضاة والمحامين . . سأشرح لهم الأمر ، وسأقسم . . وسيصدقون أننى لا يمكن أن أكون سارقة ! »

وتذكرت ماشنكا أن لديها فى سلة الملابس ، تحت الملاءات ، بعض

---

(١) لوحة شهيرة للمصور فلافيتسكى (١٨٦٤) تصور الأميرة تراكانوفا التى ادعت أحقيتها بعرش روسيا وهى فى فرنسا عام ١٧٧٢ ، وألقى القبض عليها فى إيطاليا ، وأعيدت إلى بطرسبرج حيث سجنت فى قلعة بطرس وباول ، وتوفيت بالسل . **(المعرب)** .

الحلوى، التى كانت تخبئها حسب عادتها القديمة أيام المعهد فى أثناء الغداء، ثم تحملها إلى غرفتها. وارتجفت من فكرة أن سرها الصغير هذا أصبح معروفا لأصحاب الدار، وشعرت بالخجل، وبسبب هذا كله: بسبب الخوف والخجل والإهانة راح قلبها يدق بعنف، وتتردد دقاته فى صدغيها ويديها وفى أعماق أحشائها.

وسمعت صوتا يدعوها:

ـ تفضلى للغداء!

«أذهب أم لا؟»

سوت ماشنكا شعرها، ومسحت وجهها بمنشفة مبللة، وذهبت إلى غرفة الطعام. وكانوا هناك قد بدأوا الغداء.. وعلى أحد طرفى المائدة جلست فيدوسيا فاسيليفنا، بعظمة، بوجه بليد جاد، وعلى الطرف الآخر جلس نيقولاى سيرجييتش. وعلى الجانبين جلس الضيوف والأولاد. وقام وصيفان يرتديان حلل «الفراك» والقفازات البيضاء بتقديم الطعام. وكان الجميع يعلمون أن الهرج يعم المنزل، وأن ربة الدار تعانى الفجيعة، فلزموا الصمت. ولم يكن يسمع سوى صوت المضغ ودقات الملاعق على الأطباق.

وبدأت الحديث ربة الدار نفسها. فسألت الوصيف بصوت فاتر معذب:

ـ ماذا لدينا للطبق الثالث؟

فأجاب الوصيف:

ـ أستورجون ألا روس!

وأسرع نيقولاى سرجييتش يقول:

ـ أنا الذى طلبته يا فينيا . . رغبت فى السمك . . إذا كان لا يعجبك يا ma chére [1] دعيه لا يقدمه . . أنا طلبته هكذا . . بالمناسبة . .

لم تكن فيدوسيا فاسيليفنا تحب الأكلات التى لا توصى هى بطلبها، وها هما عيناها الآن تغرورقان بالدموع .

ـ ما هذا، لا ينبغى أن تنفعلى، ـ قال ماميكوف، طبيبها المنزلى بصوت معسول، وهو يلمس ذراعها برقة ويبتسم أيضا ابتسامة معسولة ـ نحن بدون ذلك عصبيون بما فيه الكفاية . فلننس البروش! الصحة أغلى من ألفى روبل!

فأجابت ربة الدار بينما انحدرت دمعة كبيرة على خدها :

ـ أنا لا آسف على الألفى روبل . إن ما يستفزنى هو الواقعة بحد ذاتها! لن أصبر فى بيتى على اللصوص . . أنا لا أبخل، لا أبخل بشىء، ولكن أن يسرقونى . . يا له من جحود! أهكذا يكافئوننى على طيبتى . .

كان الجميع ينظرون فى أطباقهم، بيد أنه خيل لماشنكا أنهم جميعا تطلعوا إليها بعد كلمات ربة الدار . وفجأة أطبقت الغصة على زورها، فبكت وضغطت بالمنديل على وجهها .

ودمدمت :

ـ Pardon، أنا لا أستطيع . أشعر بصداع . سأذهب .

ونهضت من المائدة فأثارت جلبة بكرسيها وازدادت ارتباكا فأسرعت بالانصراف .

وقال نيقولاى سرجييتش ممتعضا :

---

(١) عزيزتى ـ (بالفرنسية فى الأصل) . **(المعرب)** .

ـ الله يعلم ما هذا! ما كان ينبغي تفتيشها! هذا في الحقيقة . . غير مناسب .

فقالت فيدوسيا فاسيليفنا :

ـ أنا لا أدّعي أنها أخذت البروش ، ولكن هل تستطيع أن تضمنها؟ أنا بصراحة لا أميل إلى تصديق هؤلاء الفقيرات المثقفات .

ـ حقا يا فينيا هذا غير مناسب . . عفوا يا فينيا ، ولكنك لا تملكين قانونيا أي حق في إجراء تفتيش .

ـ أنا لا أعرف قوانينكم ، أنا أعرف فقط أنه قد ضاع مني بروش ، وهذا كل ما هنالك . وسوف أجد هذا البروش! ـ وضربت الطبق بالشوكة ، ولمعت عيناها بغضب . ـ أما أنت فلتأكل ، ولا تتدخل في شئوني!

خفض نيقولاي سرجييتش بصره باستكانة وتنهد . أما ماشنكا ، فبعد أن وصلت إلى غرفتها ، ارتمت على الفراش . لم تعد تشعر بالخوف أو الخجل ، بل راحت تعذبها رغبة قوية في أن تذهب وتصفع تلك المرأة القاسية المتغطرسة البليدة السعيدة على خديها .

وأخذت ، وهي راقدة تتنفس في الوسادة ، تحلم بأنه كم يكون جميلا لو استطاعت أن تذهب الآن وتشتري أغلى بروش وتلقي به في وجه هذه الحمقاء المستبدة . لو أن الله يشاء فينزل الخراب بفيدوسيا فاسيليفنا فتمضي تتسول ، لتدرك كل فظاعة الفقر ووضع التبعية ، ولو أن ماشنكا المهانة تمد لها عندئذ يدها بحسنة! أوه لو أنها تحصل على ميراث كبير ، فتشتري عربة وتمر بها في جلبة من أمام نوافذ فيدوسيا فاسيلفنا لكي تحسدها!

بيد أن كل ذلك كان مجرد أحلام ، أما في الواقع فلم يكن أمامها إلا شيء واحد : أن تذهب من هنا بسرعة ، ألا تبقى هنا ولا ساعة واحدة . صحيح أنه من المخيف أن تفقد الوظيفة ، لتعود مرة أخرى إلى أهلها الذين

لا يملكون شيئا، ولكن ما العمل؟ لم تعد ماشنكا تطيق رؤية ربة الدار ولا غرفتها الصغيرة، كانت تشعر هنا بالاختناق والرعب. ضاقت بفيدوسيا فاسيليفنا، المهووسة بأمراضها وارستقراطيتها المزعومة، إلى درجة بدا لها معها أن كل شىء فى العالم أصبح فظا وقميئا بسبب وجود هذه المرأة. وقفزت ماشنكا من السرير وراحت تجمع حاجياتها.

- هل أستطيع الدخول؟ - سأل نيقولاى سرجييتش من وراء الباب. كان قد اقترب من الباب بخطوات لا تسمع، وقال بصوت خافت ليِّن. - ممكن؟

- ادخل.

ودخل ووقف إلى جوار الباب. كانت تطل من عينيه نظرة كابية، ولمع أنفه الصغير الأحمر. لقد شرب البيرة بعد الغداء، وظهر ذلك واضحا من مشيته ويديه الضعيفتين الذابلتين.

وسأل وهو يشير إلى السلة:

- ما معنى هذا؟

- أجمع أغراضى. اعذرنى يا نيقولاى سرجييتش، ولكنى لا أستطيع البقاء فى داركم. لقد كان هذا التفتيش إهانة بالغة لى!

- مفهوم.. ولكن عبثا تفعلين هذا.. لماذا؟ ليكن أنهم فتشوك.. أما أنت.. ماذا يضيرك؟ لن ينقص هذا التفتيش منك شيئا.

لزمت ماشنكا الصمت ومضت تجمع أغراضها.

وشد نيقولاى سرجييتش شعر شاربه وكأنكا يفكر فيما يمكن أن يضيفه، ومضى يقول بصوت متملق:

- أنا طبعا مقدّر، ولكن ينبغى أن تكونى متسامحة. أنت تعرفين أن

زوجتى عصبية، غير متزنة، ولكن لا داعى للقسوة فى الحكم . .

وصمتت ماشنكا .

واستطرد نيقولاى سرجييتش :

ـ إذا كنت تشعرين بأنك قد أهنت إلى هذه الدرجة، حسنا إننى مستعد لأن أعتذر لك . أرجو المعذرة .

لم تجب ماشنكا بشىء، بل انحنت أكثر فوق حقيبتها . لم يكن لهذا الرجل الهزيل الضعيف الإرادة أى وزن فى المنزل كان يلعب دورا بائسا لشخص عالة وزائد حتى عند الخدم . ولم يكن لاعتذاره أيضا أى وزن .

ـ هم . . تصمتين؟ تعتبرين هذا غير كاف؟ إذن فأنا أعتذر عن زوجتى . باسم زوجتى . . لقد تصرفت بعدم لباقة، وأنا أعترف بذلك كنبيل . .

وتمشى نيقولاى سرجييتش قليلا، وتنهد، ثم أضاف :

ـ إذن فأنت تريدين أن أشعر بالوخز هنا، تحت القلب . . أنت تريدين أن يعذبنى ضميرى . .

فقالت ماشنكا وهى تنظر فى وجهه مباشرة بعينيها الواسعتين الباكيتين :

ـ أنا أعرف يا نيقولاى سرجييتش أنك لست مذنبا . فلماذا إذن تتعذب؟

ـ طبعا . . ولكن مع ذلك لا تفعلى هذا . . لا تذهبى . . أرجوك .

فهزت ماشنكا رأسها بالنفى . وتوقف نيقولاى سرجييتش عند النافذة وأخذ ينقر بأصابعه على الزجاج .

وقال :

ـ بالنسبة لى تعتبر كل هذه المشاكل عذابا حقيقيا . ماذا تريدين أن أفعل، هل أركع على ركبتى أمامك أم ماذا؟ لقد أهينت كرامتك، وها أنت ذى قد

بكيت، وتنوين الرحيل، ولكن أنا أيضا لدىّ كرامة، وأنت لا ترحمينها. أم أنك تريدين أن أقول لك ما لن أقوله على كرسى الاعتراف؟

تريدين؟ اسمعى، أتريدين أن اعترف لك بما لن اعترف به حتى فى لحظة الموت؟

ولزمت ماشنكا الصمت.

ـ أنا الذى أخذت البروش من زوجتى! ـ قال نيقولاى سرجييتش بسرعة. ـ هل أنت راضية الآن؟ مرتاحة؟ نعم أنا أخذته... لكنى بالطبع آمل فى شهامتك... أستحلفك، ولا كلمة لأحد، ولا شبه تلميح!

ومضت ماشنكا تجمع أغراضها فى دهشة وذعر. كانت تلتقط الأشياء وتعصرها وتدسها بلا نظام فى الحقيبة والسلة. وبعد الاعتراف الصريح الذى أدلى به نيقولاى سرجييتش لم يعد بوسعها أن تبقى دقيقة واحدة، ولم تعد تفهم كيف استطاعت أن تعيش قبل ذلك فى هذا المنزل.

ومضى نيقولاى سرجييتش يقول بعد صمت قصير:

ـ ليس هناك ما يدعو للدهشة.. إنها قصة عادية! كنت بحاجة إلى نقود، وهى.. لا تعطينى. إن هذا المنزل وكل ما هنا.. من ثروة أبى يا ماريا أندرييفنا! كل هذا ملكى، . والبروش كان لأمى و.. كل هذا ملكى! لكنها أخذت كل شىء، استولت عليه.. ولتوافقينى، فليس من المعقول أن أقاضيها.. أرجوك، بشدة أن تعذرينى و.. تبقى. tout comprendre, tout pardonner [١] هل تبقين؟

فقالت ماشنكا بحزم وبدأت ترتعش:

ـ كلا! دعنى أرجوك.

---

(١) فهم كل شىء ـ يعنى الصفح عن كل شىء ـ (بالفرنسية فى الأصل). **(المعرب)**.

ـ طيب، سامحك الله، ـ قال نيقولاى سرجييتش متنهدا وهو يجلس على الأريكة بجوار الحقيبة. ـ أنا فى الحقيقة أحب أولئك الذين مازالوا قادرين على الشعور بالغضب والاحتقار وغيره. بودى لو جلست دهرا أتطلع إلى وجهك الغاضب.. إذن فلن تبقى؟ مفهوم.. لا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك.. نعم، طبعا.. أنت محظوظة، أما أنا فـ.. هس! ولا خطوة من هذا القبو.. ولو ذهبت إلى أية ضيعة من ضياعنا فسأجد هناك أذناب زوجتى فى كل مكان.. أولئك الخوليون، والمهندسون الزراعيون، فلتخطفهم الشياطين. يرهنون كل شىء ويعيدون رهنه.. ممنوع صيد السمك، ممنوع دوس الأعشاب، ممنوع تحطيم الأشجار.

وتناهى من الصالة صوت دوسيا فاسيليفنا:

ـ نيقولاى سرجييتش! يا أجنيا، نادى السيد! وسأل نيقولاى سرجييتش وهو ينهض بسرعة ويتجه إلى الباب:

إذن لن تبقى؟ ربما تبقين مع ذلك! أى والله.. إذن لجئت إليك فى المساء.. وتحادثنا. هه؟ ابقى! لو ذهبت فلن يبقى فى البيت كله وجه إنسانى واحد. هذا فظيع!

كان وجه نيقولاى سرجييتش الهزيل الشاحب يتوسل، ولكن ماشنكا هزت رأسها نفيا، فأشاح بيده وخرج.

وبعد نصف ساعة كانت فى الطريق.

الذئب

كان الإقطاعى نيلوف، وهو رجل ممتلئ، قوى الجسم، مشهور فى المحافظة كلها بقوته البدنية الخارقة، عائدا من الصيد ذات مساء مع المحقق كوبريانوف، فعرجا على الطاحونة، عند العجوز مكسيم. وكان قد بقى على ضيعة نيلوف حوالى فرسخين فقط، ولكن الصيادَيْن أدركهما التعب فلم يجدا ميلا إلى مواصلة السير، وقررا التوقف فى الطاحونة لاستراحة طويلة. وكان لهذا القرار ما يبرره، خاصة وأن مكسيم لديه شاى وسكر، أما الصيادان فكانا يملكان احتياطيا لا بأس به من الفودكا والكونياك ومختلف الأطعمة المنزلية.

وبعد الأكل أخذ الصيادان يتناولان الشاى، واتصل حبل الحديث.

وسأل نيلوف مخاطبا مكسيم:

ـ ماذا لديكم من جديد يا جدى؟

فضحك العجوز ضحكة ساخرة قصيرة:

ـ ماذا لدينا من جديد؟ الجديد لدينا هو أننى أريد أن أطلب من جنابكم بندقية.

ـ وما حاجتك إلى البندقية؟

ـ ماذا؟ ربما لم أكن بحاجة إليها. هذا مجرد طلب.. للتظاهر بالأهمية.. فعلى أية حال أنا لا أرى جيدا حتى أطلق النار. الشيطان

وحده يعلم من أين جاء هذا الذئب المسعور. يركض هنا لليوم الثانى . . مساء الأمس عقر مهرا وكلبين قرب القرية، واليوم خرجت فى الفجر فإذا به، الملعون، جالس تحت الصفصافة يضرب بوزه بكفه. وصحت به «امش!» ولكنه ظل يحدق فىّ كالعفريت . . ضربته بحجر فطقطق بأنيابه وبرقت عيناه كالشموع، وركض نحو غابة الصفصاف الرجراج . . كدت أموت من الخوف.

فدمدم المحقق:

ـ الشيطان يعلم ما هذا . . هنا ذئب مسعور يركض، ونحن نتسكع . .

ـ وماذا فى ذلك؟ فالبنادق معنا.

ـ ولكنك لن تقتل الذئب بعيار رش . .

ـ ولماذا تطلق النار؟ يمكن الإجهاز عليه بكعب البندقية.

وراح نيلوف يؤكد أنه ليس هناك شىء أسهل من قتل الذئب بكعب البندقية، وروى حادثة قضى فيها بضربة واحدة بعصا عادية على كلب مسعور ضخم هجم عليه.

فتنهد المحقق وهو ينظر بحسد إلى كتفى نيلوف العريضتين:

ـ من السهل عليك أن تقول ذلك! ففيك من القوة، والحمد لله، ما يكفى عشرة. تستطيع أن تقتل الكلب لا بالعصا بل بإصبعك. أما المسكين من أمثالنا فإلى أن يشرع فى رفع العصا، وإلى أن يحدد المكان الذى يوجه إليه الضربة، يكون الكلب قد عضه خمس مرات. ياله من شىء مزعج . . ليس هناك مرض أشد عذابا وفظاعة من السعار. عندما رأيت إنسانا مسعورا لأول مرة ظللت خمسة أيام أسير ذاهلا، ويومها كرهت كل أصحاب الكلاب فى الدنيا. فأولا هذا المرض فظيع بوقعه المفاجئ المرتجل . . إذ يسير الإنسان سليما، مطمئنا، لا يفكر فى شىء، وفجأة،

وبلا أيه مقدمات يعضه كلب مسعور! وعلى الفور تتملك الإنسان فكرة فظيعة بأنه هالك لا محالة، ولا منقذ له. . وبعد ذلك يمكنكم أن تتصوروا الانتظار المرهق المقبض للمرض، والذى لا يترك المعضوض لحظة واحدة. وبعد الانتظار يأتى المرض. . أما أفظع شىء فهو أن هذا المرض لا علاج له. إذا مرضت به فقد كتب عليك الهلاك. وليس هناك فى الطب، على قدر علمى، حتى مجرد إشارة إلى إمكانية الشفاء.

فقال مكسيم:

ـ عندنا فى القرية يعالجونه يا سيدى. ميرون يستطيع أن يشفى من تريد.

فزفر نيلوف قائلا:

ـ هراء. . كل ما يقال عن ميرون مجرد ثرثرة. فى العام الماضى عقر كلب مسعور ستيوبكا، ولم يسعفه أى ميرون. . أصيب بالسعار رغم كل ما سقاه من أشياء كريهة. كلا يا جدى، ليس من الممكن عمل شىء. لو حدث لى ذلك، لو عضنى كلب مسعور، لأطلقت على رأسى رصاصة.

وكان لهذه الأحاديث الرهيبة عن السعار أثرها. إذ كف الصيادان تدريجيا عن الكلام، وواصلا شرب الشاى فى صمت. وفكر كل منهما لا إراديا فى أن حياة الإنسان وسعادته رهن بالصدف والأشياء التافهة، الضئيلة فيما يبدو، التى لا تساوى، كما يقال، شروى نقير. وخيمت الكآبة والحزن عليهم جميعا.

وبعد تناول الشاى تمطى نيلوف ونهض. . وأحس برغبة فى الخروج إلى الهواء الطلق. وبعد أن تمشى قليلا بجوار مخزن الغلال، فتح بابا صغيرا وخرج. كان الغسق قد غاب منذ وقت بعيد، وحل المساء بكل أبعاده. وغاب النهر فى سبات عميق هادئ.

وعلى السد المغمور بنور القمر لم تكن هناك قطعة ظل. وفى منتصف السد لمعت كنجمة رقبة زجاجة مكسورة. وبدت عجلتا الطاحونة، المختفيتان إلى نصفيهما فى ظل صفصافة عريضة، غاضبتين وكئيبتين. .

وزفر نيلوف بملء رئتيه وتطلع إلى النهر. . كان كل شىء ساكنا بلا حراك. واستغرقت المياه والشاطئان فى النوم، وحتى السمك لم يطرطش. . بيد أنه خيل لنيلوف فجأة أن شيئا يشبه الظل قد تدحرج كالكرة السوداء على الشاطئ الآخر، وراء خمائل الصفصاف. وزر عينيه، فاختفى الظل، ثم سرعان ما ظهر وتدحرج نحو السد فى خطوط متعرجة.

وهتف نيلوف فى سره: «الذئب!»

ولكن قبل أن يجول بخاطره التفكير فى ضرورة العودة ركضا إلى الطاحونة، كانت الكرة السوداء قد تدحرجت فوق السد ليس نحوه مباشرة، بل فى خطوط متعرجة.

وفكر نيلوف وهو يشعر بأن جلد رأسه تحت الشعر يقشعر: «إذا جريت هاجمنى من الخلف. . يا إلهى، ليس معى حتى عصا! فلأقف فى مكانى و. . وسأخنقه!»

وأخذ نيلوف يراقب بانتباه حركات الذئب وتعابير بدنه. كان الذئب يجرى على حافة السد، وأصبح الآن يحاذيه. .

وفكر نيلوف وهو لا يحول نظره عنه: «إنه يمر بى!»

بيد أن الذئب فى تلك اللحظة، ودون أن يتطلع إليه، أصدر كأنما بلا رغبة صوتا متحشرجا مستعطفا، ثم حول وجهه نحوه وتوقف. وكأنما كان يفكر: هل يهاجمه أم يتجاهله؟

وفكر نيلوف: «ينبغى أن أضربه بقبضتى فى رأسه. . أفقده صوابه. .»

وارتبك نيلوف إلى درجة أنه لم يعرف من الذى بدأ المعركة، هو أم الذئب؟ أدرك فقط أنه قد حلت لحظة رهيبة بصفة خاصة، لحظة حرجة، تتطلب منه تركيز كل قوته فى يده اليمنى والإطباق على رقبة الذئب من قفاه. وهنا وقع شيء خارق صعب تصديقه، شيء بدا لنيلوف ذاته أنه حلم. فقد زأر الذئب الممسوك متشكيا واندفع بقوة حتى إن طبقة جلده الباردة الرطبة، التى أطبقت عليها يد نيلوف، انزلقت من بين أصابعه. ووقف الذئب على ساقيه الخلفيتين محاولا أن يحرر قفاه. عندئذ أطبق نيلوف بيده اليسرى على ساقه الأمامية اليمنى، وضغط عليها تحت الإبط مباشرة، ثم نزع يده اليمنى بسرعة من قفا الذئب وأطبق بها على إبطه الأيسر، ورفع الذئب فى الهواء. جرى ذلك كله فى طرفة عين. ولكى يمنع نيلوف الذئب من عضه فى يديه، ولكى لا يمكنه من تحريك رأسه، غرز إبهامى يديه كمهمازين فى رقبة الذئب عند عظمة الترقوة.. وارتكز الذئب بساقيه الأماميتين فى كتفى نيلوف، وإذ وجد بهذه الصورة نقطة ارتكاز انتفض بقوة رهيبة. لم يكن بوسعه أن يعض يدى نيلوف حتى المرفق، كما عاقته عن مد فمه إلى وجه نيلوف وكتفيه الإصبعان المغروزتان فى عنقه مسببتين له ألما شديدا..

وفكر نيلوف وهو يدفع رأسه إلى الخلف إلى أقصى ما يمكن: «يا للفظاعة! لعابه سقط على شفتى. إذن فقد هلكت حتى لو تخلصت منه بمعجزة».

وصاح.

ـ الحقونى! يا مكسيم! الحقونى!

كان كل من نيلوف والذئب يحدقان فى أعين بعضهما البعض ورأسهما على مستوى واحد.. وقضقض الذئب بأسنانه، وأصدر أصواتا متحشرجة، وطرطش لعابه.. وتخبطت ساقاه الخلفيتان بركبتى نيلوف

بحثا عن نقطة ارتكاز . . ولمع القمر فى عينى الذئب ، ولكن لم يبد فيهما أى ظل لغضب كانتا تبكيان ، وبدتا أشبه بعيون بشرية .

وصاح نيلوف من جديد :

ـ الحقونى ! يا مكسيم !

ولكنهم فى الطاحونة لم يسمعوه . كان يدرك بغريزته أن الصراخ بصوت عال قد يضعف قوته ، ولذلك كان يصرخ بصوت غير عال .

وقرر فى نفسه : «سوف أتراجع بظهرى . . وعندما أصل إلى الباب سأصرخ» .

وبدأ يتراجع ، ولكنه لم يكد يقطع ذراعين حتى أحس بأن يده اليمنى تضعف وتتخدر . ثم سرعان ما جاءت اللحظة التى سمع فيها هو صراخه اليائس ، وأحس بألم حاد فى كتفه اليمنى ، ولزوجه دافئة تسيل فجأة على يده كلها وصدره . ثم سمع صوت مكسيم ، وأدرك تعبير الرعب المرتسم على وجه المحقق الذى جاء ركضا . .

ولم يفلت عدوه من قبضته إلا عندما بسطوا أصابعه بالقوة وأكدوا له أن الذئب قد قتل . وعاد إلى الطاحونة ذاهلا تحت وطأة أحاسيس قوية وهو على وشك الإغماء وقد أحس بالدم يسيل على فخذيه وفى حذائه الأيمن . وأعادته النار ومنظر السماور وزجاجات الخمر إلى وعيه ، وذكرته بكل ما عاناه لتوه من رعب ، وبالخطر الذى بدأ الآن فقط يتهدده . وجلس على الزكائب شاحبا ، بحدقتين متسعتين ورأس مبلل ، وأرخى ذراعيه مرهقا . وجرده المحقق ومكسيم من ملابسه وانهمكا فى تضميد جرحه . كان جرحا كبيرا . فقد مزق الذئب جلد الكتف كلها ، بل وأصاب العضلات .

وقال المحقق محتجا وهو يوقف النزيف :

ـ لماذا لم تلق به فى النهر؟ لماذا لم تقذف به فى النهر؟

ـ لم أفطن! يا إلهى، لم أفطن!

وأراد المحقق أن يخفف عنه ويؤمله خيرا، ولكن بعد تلك الألوان الصارخة التى أضفاها على السعار بسخاء عندما وصفه من قبل، لم يعد ثمة معنى لكلمات التسرية، فوجد من الأفضل أن يصمت. وبعد أن ضمد الجرح كيفما اتفق، أرسل مكسيم إلى الضيعة لإحضار العربة، ولكن نيلوف لم يرغب فى انتظارها، ومضى إلى البيت سيراً على الأقدام.

وفى الصباح، فى حوالى السادسة، جاء إلى الطاحونة شاحبا، مشعثا، وقد هزل من الألم والسهاد.

وقال مخاطبا مكسيم:

ـ يا جدى، خذنى إلى ميرون! بسرعة! هيا، اجلس فى العربة.

وارتبك مكسيم، الشاحب أيضا، والذى لم ينم طول الليل، وتلفت حوله عدة مرات، ثم قال بهمس:

ـ لا داعى يا سيدى للذهاب إلى ميرون. أنا أيضا، لا مؤاخذة، أستطيع أن أعالج..

ـ طيب، لكن بسرعة أرجوك!

وراح نيلوف يخطو فى مكانه بضيق صدر. وأوقفه العجوز مديرا وجهه ناحية الشرق، وتمتم بكلمات ما، وقدم له كوزا به سائل دافئ كريه طعمه كالشيح ليشربه. ودمدم نيلوف:

ـ ولكن ستيوبكا مات.. لنفرض أن هناك أدوية شعبية ولكن.. ولكن لماذا مات ستيوبكا إذن؟ خذنى مع ذلك إلى ميرون!

ومن ميرون، الذى لم يثق به، توجه إلى المستشفى، إلى الطبيب أفتشينيكوف. وبعد أن حصل هنا على حبوب البلادونة وعلى نصيحة

بملازمة الفراش، بدَّل الخيول ودون أن يعبأ بالألم الرهيب فى ذراعه، انطلق إلى أطباء المدينة.

وبعد حوالى أربعة أيام، وفى ساعة متأخرة من المساء دخل راكضا على أفتشينيكوف، وارتمى على الكنبة.

ـ يا دكتور! ـ قال مختنقا وهو يمسح العرق من وجهه الشاحب المهزول بكمه. ـ يا جريجورى أيفانيتش! اصنع بى ما تريد، لكننى لا أستطيع أن أبقى هكذا بعد الآن! إما أن تعالجنى وإما أن تسقينى السم، لكن لا تدعنى هكذا! أتوسل إليك! لقدجننت!

فقال أفتشينيكوف:

ـ عليك أن تلازم الفراش.

ـ أوه فلتذهب بفراشك إلى الشيطان! إننى أسألك بوضوح، بلغة روسية: ماذا أفعل؟ أنت طبيب ويجب أن تساعدنى! إننى أتعذب! فى كل لحظة يخيل إلىّ أننى بدأت أنسعر. أنا لا أنام ولا آكل، ولا أستطيع أن أزاول عملا! ها هوذا المسدس فى جيبى، وكل لحظة أخرجه لكى أطلق رصاصة على رأسى! جريجورى إيفانيتش، عليك أن تهتم بى، أرجوك! ماذا أفعل؟ ما رأيك، هل أذهب إلى البروفيسورات؟

ـ الأمر سيان. اذهب إذا أردت.

ـ اسمع، ماذا لو أعلنت مسابقة أعطى فيها خمسين ألف روبل لمن يشفينى؟ ما رأيك، هه؟ ولكن إلى أن أعلن عنها فى الصحف، وإلى أن.. أكون قد انسعرت عشر مرات. أنا مستعد الآن أن أهب ثروتى كلها! اشفنى وسأعطيك خمسين ألفا! عالجنى أرجوك! أنا لا أفهم هذه اللامبالاة المحنقة من جانبك! افهمنى، إننى الآن أحسد كل ذبابة.. أنا تعيس! وأسرتى تعيسة!

واختلجت كتفا نيلوف، وشرع يبكى.

فبدأ أفتشينيكوف يطيب خاطره:

ـ اسمع.. أنا إلى حد ما لا أفهم انفعالك هذا. لماذا تبكى؟ ولماذا تهول من الخطر إلى هذه الدرجة؟ فلتفهم، أن لديك فرصا لعدم المرض أكثر بكثير من فرص المرض. فأولا: من كل مائة معضوض لا يمرض إلا ثلاثون. وعلاوة على ذلك، وهذا مهم جدا، فقد عضك الذئب عبر الملابس، وإذن فقد بقى السم فى الملابس. وحتى لو وصل السم إلى الجرح فلا بد أن يخرج مع الدم لأنك نزفت بشدة. إننى مطمئن تماما بشأن السعار، وإذا كان هناك ما يقلقنى فهو جرحك فقط. فمع إهمالك هذا من السهل أن تصاب بالحمرة، أو بشىء من هذا القبيل.

ـ صحيح؟ هل تطيب خاطرى أم تتكلم بجد؟

ـ أقسم بشرفى أتكلم بجد. خذ، اقرأ!

وتناول أفتشينيكوف كتابا من الرف، وأخذ، وهو يتجنب المواضع المخيفة، يقرأ لنيلوف فصلا عن السعار.

وقال بعد أن فرغ من القراءة:

ـ إذن فعبثا تقلق. زد على ذلك كله أننا لا نعلم ما إذا كان ذلك الذئب مسعورا أم سليما.

ـ هم.. نعم.. ـ وافق نيلوف مبتسما. ـ طبعا، الآن مفهوم. إذن فكل ذلك هراء!

ـ طبعا هراء.

ـ أشكرك يا عزيزى.. ـ وضحك نيلوف بمرح وهو يفرك يديه. ـ أنا الآن مطمئن أيها العلامة النابة.. أنا مسرور، بل سعيد.. أى والله..

صحيح، بل . . أقسم بشرفى .

وعانق نيلوف أفتشينيكوف وقبله ثلاث مرات . ثم تملكه طيش صبيانى، الأمر الذى يميل إليه بطبيعتهم الأشخاص الطيبون، الأقوياء البدن. فالتقط من على الطاولة حدوة وأراد أن يقومها، ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئًا وقد أنهكته الفرحة والألم فى كتفه . فاكتفى بأن طوق الدكتور أسفل خصره اليسرى وحمله على كتفه من مكتبه إلى غرفة الطعام. وغادر أفتشينيكوف فرحا، سعيدا، بل بدا أن الدموع التى لمعت على لحيته السوداء العريضة كانت تفرح معه. وعندما هبط على الدرج ضحك بصوت غليظ وهز درابزين الدرج الخارجى بقوة، حتى إن إحدى خشباته انخلعت، بينما اهتز الدرج الخارجى كله تحت أقدام أفتشينيكوف .

وقال أفتشينيكوف فى سره وهو يحدق فى ظهر نيلوف العريض: «يا له من عملاق! ياله من جذع!»

وعندما جلس نيلوف فى العربة بدأ يحكى مرة أخرى ومن البداية وبكل التفاصيل صراعه مع الذئب فوق السد.

وأنهى روايته ضاحكا:

ـ يا له من صراع! سيكون هناك ما أتذكره فى الشيخوخة. أسرع يا تريشكا!

عند زوجة رئيس النبلاء

فى أول فبراير من كل عام، وفى عيد القديس تريفون، تدب حركة غير عادية فى ضيعة أرملة رئيس نبلاء الإقليم السابق تريفون لفوفتش زافزياتوف. ففى هذا اليوم تقيم أرملة رئيس النبلاء لوبوف بتروفنا قداسا على روح المرحوم، وبعد القداس صلاة شكر للسيد الرب. ويأتى الإقليم كله لحضور القداس. فهنا ترى رئيس النبلاء الحالى خروموف، ورئيس مجلس الإقليم مارفوتكين وعضو المجلس الدائم بوتراشكوف، ومفتشى لجنة الإقليم، ومأمور المركز كرينولينوف، وشرطيى نقطتى الشرطة، وطبيب المجلس المحلى دفورنياجين الذى تفوح منه رائحة اليودفورم، وكل الإقطاعيين، كبارهم وصغارهم، وغيرهم. وكان عدد الحاضرين يصل إلى حوالى خمسين شخصا.

وفى تمام الساعة الثانية عشرة ظهرا يتقاطر الضيوف بوجوه مستطيلة من جميع الغرف إلى الصالة. والأرض مغطاة بالسجاد فلا يسمع وقع الخطوات، ولكن جلال الموقف يجعلهم يشبون لا إراديا على أطراف أصابعهم ويحفظون توازنهم بأيديهم أثناء المشى. كل شىء جاهز فى الصالة. ويقوم الأب يفمينى، ذلك العجوز الصغير، ذو الطاقية العالية الباهتة، بارتداء بدلة القداس السوداء. أما الشماس كونكورديف فيقف أحمر كسرطان البحر المسلوق، مرتديا حلته، ويقلب صفحات كتاب الصلوات دون صوت واضعًا بين الصفحات قصاصات ورق. وعند الباب

المفضى إلى المدخل ينفخ القندلفت لوقا فى المبخرة وقد انتفخ خداه العريضان وجحظت عيناه. وتمتلئ الصالة تدريجيا بدخان البخور الأزرق الشفاف ورائحته. أما المدرس الأهلى جيليكونسكى، وهو رجل شاب، يرتدى حلة جديدة مهدلة، وعلى وجهه المذعور بثور كبيرة، فيوزع الشموع على صينية معدنية. وتقف ربة الدار لوبوف بتروفنا فى المقدمة بجوار مائدة عليها طبق «الكوتيا»[1]، وتقرب المنديل من عينيها سلفا. والهدوء يعم المكان ولا تتخلله إلا زفرات متفرقة. ووجوه الجميع مشدودة، مهيبة..

ويبدأ القداس. من المبخرة يتدفق دخان أزرق متموجا فى أشعة الشمس المائلة، والشموع المشتعلة تطقطق بوهن. ويبدأ الغناء حادا مجلجلا، ثم سرعان ما يصبح هادئا منتظما عندما يتكيف المغنون شيئا فشيئا مع الظروف الصوتية للمكان.. والألحان كلها حزينة، مكتئبة.. وشيئا فشيئا ينسجم الضيوف مع المزاج الانطوائى ويستغرقون فى التفكير وتتسرب إلى أذهانهم أفكار عن قصر الحياة والفناء وبهرج الدنيا الزائل. ويتذكرون المرحوم زافزياتوف، الملىء الجسم الأحمر الخدين، الذى كان يشرب زجاجة الشمبانيا دفعة واحدة ويحطم المرايا بجبهته. وعندما يغنون «مع القديسين الرحمة» وتُسمع شهقات ربة الدار، ويتململ الضيوف فى وقفتهم بكآبة. أما ذوو المشاعر المرهفة منهم فيحسون بحك فى حلوقهم وحول جفونهم. ويحاول رئيس مجلس الإقليم مارفوتكين أن يكبت هذا الإحساس الكريه فيميل على أذن مأمور المركز هامسا:

ـ بالأمس كنت عند إيفان فيودورفتش.. أحرزت أنا وبيوتر بتروفتش فوزا ساحقا بدون أوراق رابحة.. أى والله.. وثارت أولجا أندرييفنا لدرجة أن سقطت من فمها سن صناعية.

---

(١) طبق من الأرز أو القمح والزبيب يقدم فى ولائم التأبين. (**المعرب**).

وها هو ذا نشيد «الذكرى الخالدة». وها هو ذا جيليكونسكى يستعيد الشموع باحترام، وينتهى القداس. وتتلو ذلك دقيقة هرج وتبديل حلة القداس استعدادا للصلاة. وبعد انتهاء الصلاة، وبينما الأب يفمينى يخلع لباس القداس، يفرك الضيوف أيديهم ويسعلون، بينما تتحدث ربة الدار عن طيبة المرحوم تريفون لفوفتش.

وتنهى حديثها قائلة هى تتنهد:

ـ تفضلوا إلى المائدة يا سادة.

ويسرع الضيوف إلى غرفة الطعام وهم يحاولون ألا يتزاحموا أو يدوسوا على أقدام بعضهم البعض. . وهناك ينتظرهم الإفطار. وهذا الإفطار فاخر إلى درجة أن الشماس كونكورديف يرى من واجبه كل عام، عندما يراه، أن يشيح بذراعيه، ويهز رأسه من الدهشة ويقول:

ـ شيء خرافى! إن هذا يا أبانا يفمينى لا يشبه طعام البشر بقدر ما يشبه القرابين المقدمة للآلهة.

والإفطار بالفعل غير عادى. فعلى المائدة يوجد كل ما يمكن أن يهبه عالما النبات والحيوان. أما الخرافى فيه فربما كان شيئا واحدا: وهو أن المائدة تحوى كل شيء إلا. . المشروبات الكحولية. فقد نذرت لوبوف بتروفنا على نفسها ألا تحتفظ فى بيتها بأوراق اللعب والمشروبات الكحولية، أى بالشيئين الذين قضيا على زوجها. ومن ثم فليس على المائدة إلا زجاجات الخل والزيت، وكأنها نكاية وسخرية بالطاعمين الذين هم عن بكرة أبيهم من السكارى والمدمنين.

وتدعو زوجة رئيس النبلاء الضيوف:

ـ كلوا يا سادة. لكن اعذرونى فليس لدى فودكا. . لا أحتفظ بها فى البيت. .

ويقترب الضيوف من المائدة ويشرعون فى تناول الكعكة بتردد. ولكن

الوليمة لا تسير كما يرام. ويبدو فى غرز الشوك والتقطيع والمضغ تراخ ما وخمول.. يبدو أن شيئا ما ينقصهم..

ويهمس أحد مفتشى لجنة الإقليم لزميله:

ـ أشعر كأننى فقدت شيئا ما. مثل هذا الإحساس راودنى عندما هربت زوجتى مع المهندس.. لا أستطيع أن آكل!

وقبل أن يشرع مارفوتكين فى الأكل يفتش طويلا فى جيوبه بحثا عن منديله. ثم يقول متذكرا بصوت عال:

ـ آه، المنديل فى المعطف! وأنا أبحث عنه. ويمضى إلى المدخل حيث علقت المعاطف.

ويعود من المدخل بعينين لامعتين، وينهال على الكعكة فورا بشهية.

ويهمس للأب يفمينى:

ـ ماذا، الأكل على الناشف كريه؟ اذهب يا أبتاه إلى المدخل، هناك زجاجة فى جيب معطفى.. لكن حذار، إياك أن تقرقع بالزجاجة!

ويتذكر الأب يفمينى أن عليه أن يأمر لوقا بشىء ما، ويسرع بخطوات قصيرة نحو المدخل.

ويلحق به دفورنياجين صائحا:

ـ يا أبانا.. أريدك فى كلمتين، سرا!

ويقول خروموف مباهيا:

ـ يا له من معطف اشتريته يا ساده بالصدفة. يساوى ألفا، ولكنى دفعت.. لن تصدقوا.. مائتين وخمسين! فقط!

وما كان الضيوف ليعيروا انتباها لذلك الخبر فى وقت آخر، أما الآن

فقد أعربوا عن دهشتهم وعدم تصديقهم. ومن ثم مضوا جميعا إلى المدخل ليشاهدوا المعطف، وظلوا يشاهدونه إلى أن حمل خادم الطبيب من المدخل سرا خمس زجاجات فارغة. . وعندما أتى الخدم بطبق السمك المسلوق تذكر مارفوتكين أنه نسى علبة سجائرة فى العربة، وذهب إلى الإصطبل، ولكى لا يشعر بالملل وحده أخذ معه الشماس، الذى اتضح أنه ينبغى عليه أيضا أن يتفقد حصانه. .

وفى مساء ذلك اليوم جلست لوبوف بتروفنا فى غرفة مكتبها لتكتب رسالة إلى إحدى صديقاتها القديمات فى بطرسبرج. وكان من بين ما كتبت:

«اليوم، كما فى السنوات السابقة، أقمت قداسا على روح المرحوم. وحضر القداس كل جيرانى. إنهم أناس أفظاظ، بسطاء، ولكن ما أرق قلوبهم! أقمت لهم وليمة فاخرة، ولكن لم تكن هناك بالطبع، كما فى الأعوام السابقة، قطرة شراب مسكر. فمنذ أن مات زوجى بسبب الإفراط أقسمت أن أنشر فى إقليمنا الصحو وبذلك أكفر عن ذنوبه. وقد بدأت الموعظة من بيتى. وقد أبدى الأب يفمينى إعجابه بمشروعى ويساعدنى بالقول والفعل. أوه يا[1] ma chére، لو تعرفين كم يحبنى دببتى هؤلاء! بعد الإفطار أخذ رئيس مجلس الإقليم مارفوتكين يقبل يدى وظل طويلا يضعها على شفتيه وهو يهز رأسه بصورة مضحكة، وبكى من فيض المشاعر وعجز الكلمات! أما الأب يفمينى، هذا العجوز الرائع، فقد جلس إلى جوارى، وحدق فىّ بعينين دامعتين وظل يتمتم طويلا كالطفل. ولم أفهم ما قاله، ولكنى أستطيع أن أفهم المشاعر الصادقة. أما المأمور، ذلك الرجل الجميل الذى كتبت لك عنه، فقد ركع أمامى على ركبتيه، وأراد أن يقرأ أشعارا من تأليفه (فهو شاعر عندنا) ولكنه. . لم يتمالك

---

(١) عزيزتى (بالفرنسية فى الأصل). **(المعرب)**.

قواه . . فترنح ووقع . . لقد أصابت هذا العملاق نوبة هستيريا . . هل تتصورين مدى إعجابى ! بالطبع لم يخل الأمر من بعض المنغصات . فرئيس مؤتمر الإقليم ألاليكين المسكين، وهو رجل بدين مصاب بالسكتة، ساءت حالته، ورقد على الكنبة ساعتين فاقد الوعى . واضطررنا لصب الماء عليه . . شكرا للدكتور دفورنياجين، إذ أحضر من صيدليته زجاجة كونياك وبلل له صدغيه، فسرعان ما عاد إلى وعيه ثم حملوه . . » .

العازف الأجير

الساعة تدور في الثانية ليلا. أجلس في غرفتي بالفندق وأكتب صورة شعرية هجائية طلبت مني. وفجأة يفتح الباب على مصراعيه، ويدلف إلى الغرفة فجأة شريكي فيها بيوتر روبليوف، الطالب السابق في كونسرفتوار موسكو. وللوهلة الأولى يذكرني وهو في قبعته الطويلة ومعطفه الثقيل المفتوح بشخصية ريبيتيلوف[1]. ولكن بعد أن أدقق النظر في وجهه الشاحب وعينيه الحادتين إلى درجة غير عادية وكأنهما ملتهبتان، يختفي وجه الشبه بينه وبين ريبيتيلوف.

أسأله:

- لماذا عدت مبكرا هكذا؟ الساعة الثانية فقط! هل انتهى العرس؟

ولا يرد شريكي عليّ. يمضي في صمت إلى ما وراء الحاجز، ويخلع ملابسه بسرعة ويستلقي على سريره وهو يزحر.

وبعد حوالي عشر دقائق أسمعه يهمس:

- نم أيها الوغد! نم ما دمت رقدت! إذا لم ترد أن تنام.. فلتذهب إلى الشيطان!

فأسأله:

---

(١) إحدى شخصيات مسرحية «ذو العقل يشقى» الشعرية للكاتب المسرحي والشاعر الروسي ألكسندر حريبويدوف (١٧٩٤-١٨٢٩). **(المعرب)**.

ـ ماذا يا بيتيا، النوم يجافيك؟

ـ الشيطان يعلم ما هذا. . لا أستطيع أن أنام. . أكاد أنفجر من الضحك. . الضحك يمنعنى من النوم! ها . . ها!

ـ وما الذى يضحك؟

ـ وقع حادث مضحك. يا لها من حادثة لعينة!

ويخرج روبليوف من خلف الحاجز ويجلس بجوارى وهو يضحك.

ويقول وهو ينثر شعره:

ـ أمر مضحك . . ومخجل. . لم يحدث لى فى حياتى كلها يا أخى أن تعرضت لمثل هذه الزفّة. . ها . . ها. . فضيحة من الطراز الأول. . من أرقى نوع!

ويضرب روبليوف ركبته بقبضته ويقفز واقفا ثم يذهب ويجىء حافيا على الأرضية الباردة.

ويقول:

ـ طردونى شر طرده!. . ولهذا جئت مبكرا.

ـ كفاك كذبا!

ـ أى والله. . طردونى. . حرفيا!

وأتطلع إلى روبليوف. . وجه ممصوص، مستهلك، ومع ذلك بقى فى مظهره كله من الاستقامة والنعومة النبيلة، اللياقة ما يجعل هذه العبارة الخشنة «طردونى شر طردة» غير منسجمة أبدا مع شخصيته المثقفة.

ـ فضيحة من الدرجة الأولى. . ظللت أقهقه طوال الطريق أثناء عودتى. أوه، دعك من هذه التفاهة التى تكتبها! سأحكى لك، سأسكب

كل ما فى روحى فربما كففت عن الضحك . . دعك من كتابتك! اسمع . . قصة طريفة . . فى شارع أربات يعيش شخص يدعى بريسفيستوف، مقدم متقاعد، متزوج من ابنة غير شرعية للكونت فون كراخ . . يعنى أرستقراطى . . يزوج ابنته من ابن التاجر يسكيموسوف . . وهذا الأسكيموسوف بارفينو وموفى ـ جانر[1]، حلوف فى مسوح العلماء وموفى ـ تون[2] ولكن الأب وابنته يريدان مانجى إى بوار[3]، ولذلك فليس لديهما فرصة للاهتمام بالموفى جانر وغيره. وذهبت اليوم فى الساعة التاسعة إلى آل برسفيستوف للعزف على البيانو. وكان الطريق مغطى بالأوحال، والمطر يسقط، والضباب مخيم . . وكالعادة سيطر على قلبى إحساس مقرف.

فقلت له :

ـ اختصر . . دعك من السيكولوجيات . .

ـ حسنا . . جئت إلى آل بريسفيستوف . . كان العروسان والضيوف يلتهمون الفواكه بعد عقد القران، وذهبت إلى موقعى ـ البيانو ـ وجلست فى انتظار بدء الرقص.

ورآنى صاحب الدار فقال : «آه، وصلت! حسنا، اسمع يا حضرة، اعزف جيدا، وإياك أن تسكر . . »

ـ لقد تعودت يا أخى على هذه التحايا ولم تعد تغضبنى . . ها . . ها . . إذا جعلت نفسك قنطرة فلتتحمل الدوس . . أليس كذلك؟ فمن أنا؟ عازف أجير . . خادم . . نادل يجيد العزف! التجار فى حفلاتهم

(١) بارفينو (من الفرنسية parvenu) ـ محدث نعمة . وموفى ـ جانر (من الفرنسية mauvais genre) ـ جلف . (**المعرب**).

(٢) موفى ـ تون (من الفرنسية mauvais tone) ـ قليل الذوق . (**المعرب**).

(٣) مانجى إى بوار (من الفرنسية manger et boire) ـ يأكل ويشرب . (**المعرب**).

يخاطبوننى بـ «أنت» ويعطوننى بقشيشا . . وليس فى ذلك أية إهانة! حسنا . . ولما لم يكن لدىّ ما أفعله حتى بداية الرقص فقد رحت أنقر على البيانوا، هكذا، لتسخين أصابعى. وبعد قليل، وبينما أنا أعزف سمعت خلفى يا أخى شخصا يدندن اللحن. والتفت فإذا بها آنسة! وقفت، المعلونة، خلفى وهى تتطلع إلى مفاتيح البيانو بإعجاب. فقلت لها: «لم أكن أعرف يا مدموازيل أن أحدا يصغى إلىّ!» فتنهدت وقالت: «معزوفة جميلة!» فقلت: «نعم جميلة. . وهل تحبين الموسيقى؟» أخذنا نتجاذب أطراف الحديث. . واتضح أنها كثيرة الكلام. أنا لم أسحبها من لسانها، بل هى التى مضت تثرثر: «من المؤسف أن شباب اليوم لا يهتم بالموسيقى الجادة». وكنت مسرورا إلى لفت انتباهها. . يا لى من أحمق، مغفل. . إذن فقد بقى لدىَّ هذا الكبرياء الكريه! واتخذت وضع العالم بالأمور ورحت أوضح لها أن عدم اكتراث شبابنا مرده إلى انتفاء الطموح إلى القيم الجمالية فى مجتمعنا. . كنت أتفلسف!

وسألت روبليوف:

ـ وأين هى الفضيحة؟ هل وقعت فى حبها؟

ـ يا للهراء! الحب هو فضيحة ذات طابع شخصى، أما فى حالتى يا أخى فقد كان الحدث عاما، على نطاق المجتمع الراقى. . نعم! كنت أتحدث مع الآنسة ولكنى أخذت ألاحظ شيئا غير طبيعى. . فقد جلس وراء ظهرى أشخاص ما وراحوا يتهامسون. . وسمعت كلمة «عازف أجير» وضحكات. . إذن فهم يتحدثون عنى. . ترى ماذا حدث؟ هل انفكت رابطة عنقى؟ تحسست رابطة العنق. . لا شىء. . وبالطبع لم ألق إليهم بالا ومضيت أتحدث. . أما الآنسة فقد انهمكت فى النقاش وانفعلت حتى احمر وجهها كله. . كانت منطلقة! وانهالت بالنقد العاصف على الملحنين المعاصرين! ففى أوبرا «المارد» التوزيع جيد ولكن ليس هناك موتيفات، وريمسكى كورساكوف مجرد قارع طبول، وفارلاموف لم

يؤلف شيئًا متكاملا . . . الخ . وفتيات وفتيان اليوم لا يكادون يعرفون من العزف غير السلم الموسيقى، وبينما يدفعون خمسة وعشرين كوبيكا لقاء الدرس تراهم مستعدين لكتابة المقالات النقدية فى الموسيقى . . وآنستى من هذا النوع . . ورحت أصغى ولا أجادل . . إننى أحب أن أرى مخلوقا شابا، غضا، وهو غاضب يشغل مخه . . أما ورائى فقد استمر الهمس . . ثم ماذا؟ فجأة اقتربت من آنستى طاووسة من فصيلة الأمهات أو الخالات، ضخمة، حمراء، لا تحيط بخصرها خمس أذرع، ودون أن تتطلع إلىّ همست فى أذن الآنسة بشىء ما . . وإذا بالآنسة تتضرج وتخفى وجهها براحتيها وتندفع بعيدا عن البيانو كالملسوعة . . ماذا حدث؟ فك اللغز يا أوديب الحكيم! قلت لنفسى إما أن السترة تمزقت على ظهرى وإما أن عيبا ما قد ظهر فى هندام الآنسة، وإلا فمن الصعب فهم ما حدث . وتحوطا فقد ذهبت بعد عشر دقائق إلى المدخل لأتفحص ملبسى . . تفحصت ربطة العنق والسترة وغيرها . . كل شىء فى مكانه ولم يتمزق! ولحسن حظى يا أخى كانت عجوز ما واقفة فى المدخل ومعها صرة . وشرحت لى كل شىء . ولولاها لظللت فى جهلى السعيد . قالت العجوز لأحد الخدم: «آنستنا تحب دائما أن تظهر شخصيتها . ورأت بجوار البيانو شابا فراحت تثرثر معه وتضحك وتتنهد وكأنه سيد حقيقى . . واتضح أن الشاب ليس ضيفا بل عازفا أجيرا . . من الموسيقيين . . فيا له من حديث! شكرا لماريا ستيبانوفنا فقد همست فى أذنها وإلا ـ لا قدّر الله ـ لوضعت ذراعها فى ذراعه وتمشت معه . . إنها الآن تشعر بالخجل، ولكن بعد فوات الأوان . . فما حدث حدث» . . أرأيت؟

فقلت له:

ـ الفتاة حمقاء، والعجوز حمقاء . . كل ذلك لا يستحق أى اهتمام . .

ـ أنا لم أهتم . . شىء مضحك، ولا أكثر . لقد تعو. . منذ زمن طويل على هذه المفاجآت . قبلا كنت أشعر حقيقة بالألم، أما الآن فأبصق على

ذلك! فتاة حمقاء. . طائشة. . لا تستحق الشفقة! وجلست ورحت أعزف للرقص. . عزف لا يستدعى أية جدية. . رحت أعزف رقصات الفالس والكادريل والمارشات الصاخبة. . إذا أحسنت روحك الموسيقية بالمهانة فاذهب واشرب كأسا وسترقص طربا من أنغام «بوكاتشيو».

ـ وأين الفضيحة إذن؟

ـ أخذت أنقر على المفاتيح و. . لا أفكر فى الفتاة. . أضحك فقط، ولكن. . راح شىء ما ينغز فى قلبى! وكأن هناك فأرا يقبع فى ضلوعى ويقرض خبزا جافا. . ولا أدرى لماذا أشعر بالحزن والقرف. أخذت أقنع نفسى وأشتمها، وأضحك. . وأدندن بنغمات الألحان التى أعزفها، ولكنى شيئا كان يقبض على قلبى. . وبقوة. . شىء يتحرك فى صدرى ويخدش ويقرض ثم يصعد إلى حلقى كالغصة. . وأكز على أسنانى وأقاوم حتى يختفى. . ثم يعود من جديد. . ما هذه المصيبة! وعلاوة على ذلك، وكأنما عن عمد ترد إلى ذهنى شتى الأفكار السخيفة. . فأتذكر كيف أصبحت تافها. . لقد قصدت موسكو قاطعا ألفى كيلومتر. . كنت أهدف إلى أن أصبح موسيقارا أو عازف بيانو، فإذا بى عازف أجير. . فى الحقيقة هذا شىء طبيعى. . بل إنه يثير الضحك، ومع ذلك أشعر بالغثيان. . وأتذكرك. . وأفكر فيك: ها هو ذا شريكى فى الغرفة الآن جالس يسطر. . يصف المسكين الشرطة النائمين وصراصير المخابز والطقس الخريفى السيئ. . يصف بالذات كل ما وصف من زمن بعيد، كل ما أشبع لوكا وهضما. . أفكر فى ذلك ولست أدرى لماذا أشفق عليك. . أشفق عليك لدرجة البكاء! إنك شاب رائع، طيب القلب، ولكن ليس فيك تلك الشعلة، أتدرى، تلك المرارة، تلك القوة. . ليس فيك ذلك الحماس. . فلماذا أنت كاتب ولست صيدليا أو إسكافيا، الله يعلم! وتذكرت كل زملائى الخائبين، كل هؤلاء المغنيين والمصورين والهواة. . كلهم كانوا فى وقت ما يفورون ويمورون ويحلقون فى السماء، أما الآن. . فالشيطان يعلم ما هذا! لماذا اقتحمت رأسى هذه الأفكار بالذات، لست أفهم! عندما

أطرد نفس من رأسى يقتحمها زملائى، وأطرد زملائى فتقتحمها الفتاة . . وأضحك من الفتاة ولا أعيرها أهمية، ولكنها لا تدعنى أنعم بالراحة . . وأقول لنفسى : ما هذه الخصلة لدى الإنسان الروسى . . فطالما أنت حر، تدرس أو تتسكع بلا عمل، فبوسعك أن تشرب معه وتربت على كرشه، وتتودد إلى أبنته، ولكن ما إن تصبح علاقتك به على نحو ولو قليل من التبعية، حتى تصير صرصارا ينبغى أن يعرف قدره . . أتدرى، أخذت أجاهد لأكبت هذه الأفكار، ولكن الغصة مضت تصعد إلى حلقى . . تصعد وتضغط عليه . . وتعصره . . وأخيرا أحسست بسائل فى عينى، وانقطعت ألحان «بوكاتشيو» و . . وذهب كل شىء إلى الشيطان . . وأصمت أسماع الحاضرين الأكابر أصوات أخرى . . أصبت بهيستريا . .

كفاك كذبا!

ـ أي والله! . . ـ يقول روبليوف وهو يتضرج ويحاول أن يضحك . ـ ما رأيك فى هذه الفضيحة؟ ثم شعرت بهم يسحبوننى إلى المدخل . . ويلبسوننى المعطف . . وسمعت صوت رب البيت يقول : ـ «من الذى أسكر العازف الأجير؟من الذى أعطاه الفودكا؟» . وفى آخر المطاف . . طردت . . ما رأيك فى هذه المفاجأة؟ها . . ها . . لم أكن فى حال تسمح بالضحك ساعتها، أما الآن فأكاد أموت من الضحك! . . رجل ضخم مثلى . . طويل وعريض . . وفجأة يصاب بهيستيريا! ها . . ها . . ها!

وأسأله وأنا أتطلع إلى كتفيه ورأسه وهى تهتز من الضحك :

ـ وما المضحك فى ذلك؟ بيتيا أرجوك . . ما المضحك؟ بيتيا! ياعزيزى!ـ

ولكن بيتيا يقهقه، وبسهولة أرى فى قهقهته دلائل الهيستيريا، فأبدأ فى العناية به وأنا أسب فنادق موسكو التى لا يعرفون فيها عادة ملء دوارق المياه للشرب ليلا .

تـواريـخ حـيـة

غرفة الجلوس فى دار مستشار الدولة شاراميكين مغلقة بظلمة خفيفة لطيفة. والمصباح البرونزى الكبير ذو الأباجورة الخضراء بلون الجدران والأثاث والوجوه بلون أخضر على طريقة «ليل أوكرانيا». . ومن حين لحين تتوهج جمرة حطب فى الموقد الموشك على الانطفاء، فيغمر الوجوه للحظة لون لهب الحرائق: ولكن ذلك لا يفسد هارمونى الألوان العام. فـ«التون» العام، كما يقول المصورون، محافظ عليه هنا.

وعلى مقعد أمام الموقد يجلس شاراميكين نفسه، فى وضع رجل تغدى لتوه. وهو سيد كهل، بسوالف موظفين بيضاء، وعينين زرقاوين مستكينتين. وتنساب الرقة على وجهه، وشفتاه مطبقتان على ابتسامة حزينة. وعند قدميه يجلس على أريكة، مادا ساقيه فى كسل وهو يتمطى، نائب المحافظ لوبنيف، وهو رجل نشيط، فى حوالى الأربعين من عمره. وبجوار المعزف يلهو أولاد شاراميكين: نينا وكوليا وناديا وفانيا. ومن الباب الموارب المفضى إلى غرفة مكتب مدام شاراميكينا يتسلل ضوء خجول. فهناك خلف الباب تجلس إلى مكتبها زوجة شاراميكين آنا بافلوفنا، رئيسة لجنة النساء المحلية، وهى سيدة بادية الحيوية، مثيرة، تخطت الثلاثين بقليل. وتجرى عيناها السوداوان النشطتان عبر العوينات على صفحات رواية فرنسية. وتحت الرواية يرقد تقرير مجعد الصفحات عن نشاط اللجنة فى العام الماضى.

ويقول شاراميكين وهو يزر عينيه المستكينتين ناظرا إلى جمرات الحطب:

- كانت مدينتنا من قبل محظوظة أكثر من هذه الناحية. لم يمر شتاء واحد إلا وزارنا نجم ما. كان يأتينا مشاهير الممثلين والمطربين، أما الآن.. فالشيطان وحده يعلم ما هذا.. لا أحد يأتى سوى الحواة والمتسولين من عازفى الأرغن اليدوى فى الشوارع. ليس هناك أيه متعة جمالية.. نعيش كأننا فى غابة. نعم.. أتذكر يا صاحب السعادة ذلك الممثل التراجيدى الإيطالى.. ما اسمه؟ ذلك الأسمر.. الطويل.. ليهبنى الله الذاكرة.. آه، نعم! لويجى أرنستو دى روجييرو.. يا له من موهبة رائعة.. يا للقوة! كان يكفى أن يتفوه بكلمة واحدة حتى تهتز قلوب النظارة. لقد شاركت زوجتى أنيوتا بحماس فى كبير تشجيع موهبته. حجزت له المسرح وباعت له التذاكر لعشر حفلات.. ومكافأة لها على ذلك علمها الإلقاء والحركات. ما أنبل روحه! لقد حضر إلى هنا منذ.. أرجو ألا أخطىء.. منذ حوالى اثنتى عشرة سنة.. كلا.. أخطأت.. بل أقل.. منذ حوالى عشر سنوات.. أنيوتا، كم عمر ابنتنا نينا؟

فتصيح آنا بتروفنا من غرفة مكتبها:

- فى العاشرة! وماذا؟

- لا شىء يا ماما، هكذا.. وكان يزورنا أيضا مطربون جيدون.. هل تذكر بريليبتشين، ذلك الصوت الـ grazia tenore di[1]؟ ما أنبل روحه! يا لهيئته! أشقر. ووجه معبر، وحركاته باريسية.. وما أروع صوته يا صاحب السعادة! كان يعيبه شىء واحد.. كان يغنى بعض النوتات من بطنه و «رى» بطبقة عالية، وفيما عدا ذلك كان مجيدا. قال إنه درس على يدى تامبرلك.. دبرت له أنا وأنيوتا قاعة وفى النادى الاجتماعى. وشكرا

---

(١) التينور العاطفى (بالإيطالية فى الأصل). **(المعرب)**.

منه لنا على ذلك كان أحيانا يغنى لنا أياما وليالى بأكملها. . وعلّم أنيوتا الغناء. . لقد جاء إلينا، كما أذكر جيدا، فى الصوم الكبير. . منذ. . منذ حوالى اثنتى عشرة سنة. كلا، بل أكثر. . يا للذاكرة، أستغفر الله! أنيوتا، كم عمر ابنتنا ناديا؟

ـ اثنتا عشرة!

ـ اثنتا عشرة. . فإذا أضفنا إليها عشرة أشهر. . نعم بالضبط. . ثلاث عشرة!. . كانت مدينتنا قبلا أكثر حيوية. . خذ مثلا الحفلات الخيرية. ما أروع الحفلات التى كانت تقام فى السابق. . يا للسحر! غناء، وعزف، وإلقاء. . وبعد الحرب [1] أذكر، عندما كان الأسرى الأتراك يقيمون هنا، أقامت أنيوتا حفلا لصالح الجرحى. جمعنا ألف ومائة روبل. . أذكر أن الضباط الأتراك كانوا مفتونين بصوت أنيوتا، وكانوا طوال الوقت يقبلون يدها. هىء. . رغم أنهم أسيويون إلا أنهم أمة تقدر الجميل. وكانت الحفلة موفقة إلى درجة أننى، أتصدق، كتبت عنها فى يومياتى. كان ذلك كما أذكر الآن فى. . سنة ستة وسبعين. . كلا! فى سبعة وسبعين. . كلا! مهلا، متى أقام الأتراك عندنا؟ أنيوتا، كم عمر ابننا كوليا؟

ـ عمرى سبع سنوات يا بابا! ـ يقول كوليا، ذلك الصبى الأسمر الوجه وذو الشعر الأسود الفاحم.

ويقول لوبنيف موافقا وهو يتنهد:

ـ نعم، هرمنا ولم تعد لدينا تلك الطاقة! هذا هو السبب. الشيخوخة يا أخى! ليس هناك مبادرون جدد، أما القدامى فقد هرموا. . لم تعد لدينا تلك الشعلة. أنا، عندما كنت أصغر، لم أكن أحب أن يشعر المجتمع بالملل. . كنت المساعد الأول لزوجتكم آنّا بافلوفنا. فإذا كانت هناك حاجة

---

(١) المقصود هنا الحرب الروسية التركية عامى ١٨٧٧ ـ ١٨٧٨ والتى انتهت بعقد صلح سان ـ ستيفانو. **(المعرب)**.

لإقامة حفل خيرى، أو يانصيب، أو لمساعدة نجم مشهور وصل، كنت أترك كل شيء وأشرع فى السعى. وأذكر أننى ذات شتاء انهمكت فى الجرى والسعى إلى درجة أننى مرضت. . لن أنسى أبدا ذلك الشتاء! أتذكر أيه مسرحية ألفتها أنا وزوجتكم آنّا بافلوفنا لصالح منكوبى الحريق؟

ـ فى أية سنة كان ذلك؟

ـ منذ فترة ليست بعيدة. . فى تسعة وسبعين. . كلا، فى سنة ثمانين على ما أظن! مهلا، كم عمر ابنكم فانيا؟

ـ خمسة! ـ تصيح آنّا بافلوفنا من غرفة المكتب.

ـ إذن فذلك كان منذ ست سنوات. . نعم يا أخى، يا لها من أعمال كانت! لم يعد الحال كما كان! راحت تلك الشعلة!

ويستغرق لوبنيف وشاراميكين فى التفكير. وتتوهج الجمرة المحترقة للمرة الأخيرة ثم يكسوها الرماد.

زوَّدها

وصل قيّاس الأراضى جليب جافريلوفتش سميرنوف إلى محطة «جنيلوشكى». وكان أمامه لكى يبلغ الضيعة التى استدعى إليها لوضع حدود المزارع حوالى ثلاثين أو أربعين فرسخا. (فإذا لم يكن الحوذى ثملا والحصان عجوزا فلن تزيد المسافة عن ثلاثين فرسخا، أما إذا كان الحوذى ثملا والحصان منهكا فستصل المسافة إلى خمسين).

اتجه القياس بالسؤال إلى شرطى المحطة:

ـ قل لى من فضلك، أين أستطيع أن أجد هنا خيول بريد؟

ـ خيول ماذا؟ بريد؟ لن تجد هنا على مدى مائة فرسخ كلبا محترمًا وليس خيول بريد.. إلى أين تريد أن تذهب؟

ـ إلى ديفكينو، ضيعة الجنرال خوخوتوف.

فقال الشرطى متثائبا:

ـ طيب. اذهب خلف المحطة، فهناك يوجد أحيانا فلاحون يحملون الركاب.

تنهد القياس ومضى خلف المحطة. وهناك، وبعد بحث طويل ومباحثات وتردد، وجد فلاحا ضخما، عابسا، مجدور الوجه، يرتدى قفطانا خشنا ممزقا وحذاء لابتى.

وامتعض القياس وهو يصعد إلى العربة وقال :

ـ الشيطان يعلم أية عربة هذه! لا تعرف أين مؤخرتها وأين مقدمتها . .

ـ وهل هو صعب أن تعرف؟ المقدمة حيث ذيل الحصان، والمؤخرة حيث يجلس جنابكم . .

كانت الفرس شابة ولكنها عجفاء، بقوائم نافرة وأذنين معضوضتين . وعندما همّ الحوذى وضربها بسوط من الحبال هزت رأسها فقط، وعندما سبها وضربها مرة أخرى صرت العربة وارتعشت كأنها محمومة . وبعد الضربة الثالثة تمايلت العربة، أما بعد الرابعة فقد تزحزحت من مكانها .

ـ وهل سنسير هكذا طوال الطريق؟ ـ سأل القياس وهو يشعر بهز شديد ويدهش من قدرة الحوذية الروس على الجمع بين السير البطىء كسير السلاحف، وبين الهز الذى يكاد يطرد الروح من البدن .

فقال الحوذى مطمئنا :

ـ سنصل! الفرس شابة، سريعة . . انتظر فقط حتى تنطلق، وبعد ذلك لن تستطيع إيقافها . . هيا، يا ملعونة! . .

عندما غادرت العربة المحطة كان المغيب قد حل . وعلى يمين القياس امتد سهل مظلم متجمد لا نهاية له ولا حدود . . إذا سرت فيه فربما وصلت إلى العالم الآخر . وعند الأفق، حيث اختفى السهل متحد مع السماء تلاشت على مهل آخر أضواء الغسق الخريفى البارد . . وإلى يسار الطريق ارتفعت فى الهواء المظلم أكوام لا يعرف ما إذا كانت أكوام دريس العام الماضى أم قرية . ولم يستطع القياس أن يرى ما كان فى الأمام، فقد سد مجال الرؤية كله من هذه الناحية ظهر الحوذى العريض الأخرق . وكان الجو هادئا ولكنه بارد، قارس .

وفكر القياس وهو يحاول أن يغطى أذنيه بياقة المعطف : «ياله من مكان

قفر! لا أثر لحىّ. من يدرى ، فلو هجم عليك الأشقياء ونهبوك فلن يعرف أحد ولو أطلق المدافع . . نعم والحوذى أيضا لا يوحى بالثقة . . انظر إلى ظهره المهول! ابن الطبيعة هذا لو لمسك بإصبعه لأزهق روحك! وسحنته أيضا وحشية ، مريبة» .

وسأل القياس :

ـ اسمع يا أخى ، ما اسمك؟

ـ أنا كليم .

ـ وكيف الحال عندكم هنا يا كليم؟ أليس خطرا؟ هل هناك من يتشاقى؟

ـ لا ، الحمد لله . . ومن هنا ليتشاقى؟

ـ حسن أنهم لا يتشاقون . . ولكنى على كل حال أخذت معى ثلاث مسدسات ، ـ قال القياس كاذبا . ـ والمسدس كما تعلم شىء لا يحب المزاح . أستطيع أن أقضى على عشرة أشقياء . .

هبط الظلام . وفجأة صرت العربة وأنّت وارتعشت وانعطفت إلى اليسار ببطء كأنما عن غير رغبة .

وقال القياس لنفسه : «إلى أين يذهب بى؟ كان يسير طوال الوقت مباشرة وها هو ذا ينعطف إلى اليسار فجأة . ماذا لو أن هذا الوغد أخذنى إلى دغل ما ، . . و . . مثل هذه الحوادث تقع!» .

فقال مخاطبا الحوذى :

ـ اسمع . . تقول إن الحال هنا ليس خطرا! خسارة . . إننى أهوى منازلة الأشقياء . . إننى أبدو من منظرى نحيلا ، ضعيفا ، ولكن عندى قوة كقوة الثور . . فى مرة هجم علىّ ثلاثة أشقياء . . فماذا تظن؟ ضربت واحدا منهم حتى إنه . . حتى إنه ، أتعرف ، طلعت روحه ، أما الآخران فقد حكما

بالأشغال الشاقة فى سيبريا بسببى، من أين تأتينى هذه القوة، لا أعرف. . بيد واحدة أمسك بأى رجل ضخم، من أمثالك، و. . وأقضى عليه.

ونظر كليم خلفه إلى القياس، وطرف بوجهه كله، وهوى بالسوط على الفرس.

واستطرد القياس:

ـ نعم يا أخى، كفى الله المرء شر الاشتباك معى. فعلاوة على أن الشقى يبقى بلا قدمين أو ساقين فإنه يقدم إلى المحاكمة. . كل القضاة ومأمورى الشرطة معارفى. إننى رجل موظف، مطلوب. ها أنا ذا مسافر ولكن رؤسائى يعرفون أين أنا. . وأعينهم تراقب، حتى لا يلحق بى أى ضرر. . وعلى طول الطريق حشروا رجال الدرك والخفراء وراء الخمائل. . ـ وفجأة صرخ القياس: ـ قف! إلى أين تذهب؟ إلى أين تأخذنى؟

ـ ألا ترى إلى أين؟ إلى الغابة!

وقال القياس لنفسه: «فعلا. . إنها غابة، ولكنى خفت! لا ينبغى أن أكشف اضطرابى. . لقد لاحظ أننى خائف. لماذا أصبح ينظر إلىّ كثيرا؟ لا بد أنه يدبر أمرا. . كان قبلا يسير بالعربة ببطء، قدما وراء قدم، أما الآن فانظر كيف يطير!»

ـ اسمع يا كليم، لماذا تحث الفرس؟

ـ أنا لا أحثها. هى التى أسرعت. إذا انطلقت فلا وسيلة لإيقافها. . هى نفسها تشقيها هذه السيقان.

ـ كذاب يا أخى! أرى أنك تكذب! لكنى أنصحك بعدم الإسراع. . اكبح الفرس. . أتسمع؟ اكبحها!

ـ لماذا؟

ـ لأنه. . لأنه من المفروض أن يلحق بى من المحطة رفاق أربعة. ينبغى

أن يلحقوا بنا. لقد وعدوني أن يلحقو بي عند هذه الغابة. . ستكون الرحلة معهم أكثر مرحا. . فهم رجال أصحاء، أشداء. . كل منهم يحمل مسدسا. . لماذ تتطلع إليّ كثيرا وتتململ كأنك جالس على جمر؟ هه؟ أنا يا أخي يعني. . اسمع. . لا داعي للتطلع نحوي. . ليس فيّ أي طرافة. . اللهم إلا المسدسات. . تفضل، إذا شئت استخرجتها وأريتك إياها. . تفضل. .

وتظاهر القياس أنه يبحث في جيوبه، وفي تلك اللحظة حدث ما لم يتوقع حدوثه رغم كل جبنه. فقد ألقى كليم بنفسه من العربة وزحف على أربع نحو غيضة أشجار. ثم صرخ:

ـ النجدة! النجدة! خذ الفرس والعربة أيها الشقي، لكن لا تقتلني! النجدة!

وتردد وقع خطوات سريعة مبتعدة، وطقطقة غصون جافة، ثم ساد السكون. . وكان أول شيء فعله القياس، الذي لم يتوقع هذا التطور المفاجئ، أن أوقف الفرس، ثم اعتدل في جلسته متخذا وضعا أكثر راحة، وأخذ يفكر.

«هرب. . خاف الأحمق. . فما العمل الآن؟ لا يمكن أو أواصل السير بمفردي، فأنا لا أعرف الطريق، ثم قد يظن أحد أنني سرقت فرسه. . فما العمل؟» ـ يا كليم! يا كليم!

ـ كليم! ـ ردد الصدى.

اقشعر القياس، كأنما مروا على ظهره بمبرد بارد من فكرة أنه سيضطر إلى قضاء الليل كله في الغابة المظلمة، في البرد، فلا يسمع سوى عواء الذئاب، والصدى، وشخير الفرس العجفاء.

فصاح:

ـ كليموشكا![1] يا عزيزى! أين أنت يا كليموشكا!

وظل القياس يصيح حوالى ساعتين، وفقط بعد أن بح صوته واستسلم لفكرة المبيت فى الغابة، حملت إليه الريح أنينا ضعيفا.

ـ كليم، أهو أنت يا عزيزى؟ هيا بنا!

ـ ستقتلنى!

ـ كنت أمزح يا عزيزى! أى والله كنت أمزح! أية مسدسات معى! لقد كذبت عليك من خوفى! أرجوك هيا بنا! إننى بردان!

وإذ فطن كليم على ما يبدو إلى أن الموظف، لو كان شقيا حقيقيا لاختفى بالفرس والعربة منذ زمن بعيد، فقد خرج من الغابة، واقترب مترددًا من الراكب.

ـ لماذا خفت أيها الأحمق؟: . أنا. . أنا كنت أمزح. . وإذا بك تخاف. . اجلس!

فدمدم كليم وهو يصعد إلى العربة:

ـ ربنا يسامحك يا سيد. لو كنت أدرى ما أخذتك ولو مقابل مائة روبل. كدت أموت من الخوف. .

وضرب كليم الفرس بالسوط. وارتعشت العربة. وضرب كليم مرة أخرى فتمايلت. وبعد السوط الرابع، عندما تزحزحت العربة من مكانها، غطى القياس أذنيه بالياقة واستغرق فى التفكير. ولم تعد الطريق أو كليم يبدوان له خطرين.

---

(١) كليموشكا ـ تدليل لاسم كليم. **(المعرب)**.

الدبلوماسى
(مشهد)

لفظت زوجة المستشار الاسمى[1] آنا لفوفنا كوفالدينا أنفاسها. وأخذ الأقارب والمعارف يتشاورون:

ـ وما العمل الآن؟ ينبغى أن نخطر زوجها. فرغم أنه فارقها إلا أنه كان يحب المرحومة. بل لقد جاءها منذ فترة وركع أمامها على ركبتيه ضارعا: «متى تغفرين لى يا آنَّا هوى لحظة؟» وغير ذلك من هذا القبيل. ينبغى أن نخطره..

وقالت عمتها الباكية مخاطبة العقيد بسكاريوف الذى كان يشترك فى المشاورة العائلية:

ـ يا أريستارخ إيفانيتش، ! أنت صديق ميخائيل بتروفيتش. اصنع معروفا واذهب إليه فى الإدارة وأبلغه بهذه المصيبة! لكن أرجوك يا عزيزى لا تصدمه دفعة واحدة، وإلا فقد يحدث له شىء. إنه رجل مريض. مهد للخبر فى البداية، وبعد ذلك..

ارتدى العقيد بسكاريوف العمرة وتوجه إلى إدارة السكك الحديدية حيث يعمل الأرمل الحديث العهد. ووجده يعد الميزانية.

ـ تحياتى لميخائيل بتروفتش، ـ قال وهو يجلس إلى طاولة كوفالدين

---

(١) من الرتب المدنية الدنيا فى روسيا القيصرية وتعادل النقيب العسكرية. **(المعرب)**.

ويمسح عرقه . ـ مرحبا يا عزيزى . يا للغبار فى الشوارع ، أعوذ بالله! اكتب ، اكتب . . لن أعطلك . . سأجلس قليلا ثم انصرف . . كنت مارا من هنا فقلت لنفسى : إن ميشا يعمل هنا! فلأمر عليه! وبالمناسبة . . أنا بحاجة إليك فى مسألة . .

ـ اجلس هنا يا أريستارخ إيفانيتش . . انتظرنى قليلا . . سأفرغ بعد ربع ساعة ، وعندئذ نتحدث . .

ـ اكتب ، اكتب . . أنا جئت هكذا . . مرورا عابرا . . سأقول لك كلمتين . . ووداعا!

وضع كوفالدين الريشة جانبا واستعد للإنصات . وحك العقيد رقبته خلف الياقة واستطرد :

ـ الجو خانق لديكم هنا ، أما فى الشارع فجنة حقيقية . . الشمس ، والنسيم اللطيف ، أتدرى . والطيور . إنه الربيع! كنت سائرا إلى سبيلى فى البوليفار . . أتدرى ، وكان مزاجى رائعا! فأنا رجل حر ، أرمل . . أينما أريد أذهب . . إذا أردت ذهبت إلى الحانة ، وإذا أردت ركبت ترام الخيل جيئة وذهابا . . ولا أحد يجرؤ على إيقافى ، ولا أحد يعول ورائى فى المنزل . . كلا يا أخى ، ليس هناك أحسن من حياة العازب . . حرية! انطلاق! تتنفس وتشعر أنك تتنفس! سأعود الآن إلى البيت . . فلا شىء . . لا أحد يجرؤ أن يسألنى أين كنت . . أنا سيد نفسى . . الكثيرون يا أخى يمتدحون الحياة الزوجية ، ولكنى أعتقد أنها أسوأ من الأشغال الشاقة . . هذه الأحاديث عن الموضة والكورسيهات والقيل والقال ، والزعيق . . وبين لحظة وأخرى الضيوف . . والأولاد يقفزون خارجين إلى الدنيا الواحد تلو الآخر . . والنفقات . . إخص!

فدمدم كوفالدين وهو يتناول الريشة :

ـ سأفرغ حالا . .

ـ اكتب، اكتب. . حسنا لو وفقت إلى زوجة ليست شيطانا، ولكن ماذا لو أنها إبليس فى تنورة؟ ماذا لو كانت من أولئك اللاتى لا يتوقفن عن الأزيز والطنين ليل نهار؟ . . إذن ستصرخ مستنجدا! انظر، أنت على سبيل المثال. . عندما كنت عازبا كنت إنسانًا مثل البشر، وما إن تزوجت من زوجتك حتى تدهورت، وأصبحت منطويا. . لقد فضحتك فى المدينة كلها. . وطردتك من البيت. . فأى خير فى هذا؟ إن زوجة مثلها لا تستحق حتى الشفقة. .

فقال كوفالدين متنهدا:

ـ كنت أنا المذنب فى انفصالنا لا هى.

ـ دعك من ذلك أرجوك! إننى أعرفها جيدا! امرأة شريرة، متغطرسة، خبيثة! كل كلمة سم زعاف، كل نظرة خنجر حاد. . أما اللؤم الذى كان فى المرحومة فشىء لا يمكن وصفه!

فاتسعت عينا كوفالدين وهو يسأل:

ـ ماذا تعنى بالمرحومة؟

فاستدرك بسكاريوف محمرا:

ـ وهل قلت المرحومة؟ أبدا، أنا لم أقل ذلك. .

ماذا دهاك يا أخى. . اتق الله. . مالك شحبت! هئ، هئ، اسمع بأذنك ولا تسمع ببطنك!

ـ هل كنت عند أنيوتا اليوم؟

ـ نعم، زرتها فى الصباح. . كانت راقدة. . تصرخ فى الخدم. . تارة لم يقدموا لها هذا الشىء كما يجب، وتارة ذاك. . امرأة لا تطاق! لا أفهم ما الذى جعلك تحبها. . لو أن الله يهديها فتطلق سراحك أيها المسكين. .

إذن لعشت حرا وتمتعت.. ولتزوجت غيرها.. طيب، طيب سأسكت! لا تعبس! أنا لا أقصد.. مجرد كلام عواجيز.. أنت تعرف رأيى.. إذا شئت أحب، وإذا لم تشأ لا تحب.. أنا لا أرجو لك إلا الخير. إنها لا تعيش معك، ولا تريد أن تعرفك.. أية زوجة هذه؟ قبيحة، هزيلة، سيئة الطباع.. لا تستحق الشفقة.. فليكن..

فقال كوفالدين متنهدا:

- من السهل عليك أن تتحدث يا أريستارخ يفانيتش! الحب ليس شعرة، لا يمكن انتزاعه ببساطة.

- وهل فيها ما يُحب! إنك لم تر منها غير اللؤم. لا تؤاخذ عجوزا مثلى، فأنا لم أحبها.. لم أكن أطيقِ رؤيتها! عندما أمر بجوار بيتها أغمض عينى حتى لا أراها.. نهايته! رحمها الله وأسكنها فسيح جناته.. لم أكن أحبها فليغفر لى الله ذنبى!

فقال كوفالدين ممتقعا:

- اسمع يا أريستارخ إيفانيتش هذه ثانى مرة يزل فيها لسانك. قل لى.. هل ماتت؟

- كيف ماتت؟ لم يمت أحد.. كل ما فى الأمر أننى لم أكن أحب المرحومة.. إخص! أعنى ليس المرحومة.. بل زوجتك، آنا..

- ماذا حدث لها، هل ماتت؟ لا تعذبنى يا أريستارخ إيفانيتش! إنك تبدو منفعلا بصوره غريبة، تتخبط فى الكلام.. وتمتدح حياة العزوبية.. هل ماتت؟ نعم؟

فتمتم بسكاريوف وهو يسعل:

- هكذا، مرة واحدة ماتت! يا لك من متسرع يا أخى.. ولنفرض أنها

ماتت! كلنا سنموت، وهى أيضا مصيرها إلى الموت. . وأنت ستموت، وأنا. .

احمرت عينا كوفالدين وامتلأتا بالدموع، وسأل بصوت خافت:

ـ فى أية ساعة؟

ـ ليس فى أية ساعة. . ما أسرع دموعك!. . لم تمت! من الذى قال لك إنها ماتت؟

ـ أريستارخ إيفانيتش. . أرجوك. . لا تشفق علىّ!

ـ لا يا أخى، أنت لا يمكن الكلام معك، كأنك طفل. هل قلت لك إنها ماتت؟ هل قلت لك؟ تسترسل فى البكاء؟ اذهب وافرح بها. . سالمة غانمة! عندما زرتها كانت تتشاجر مع عمتها. . كان الأب ماتفى يقيم قداس الجناز بينما صياحها يملأ البيت كله.

ـ أى قداس؟ ولماذا يقام؟

ـ القداس؟ أبدا، هكذا. . يعنى بدلا من الصلاة. أقصد. . لم يكن هناك أى قداس، بل شىء ما هكذا. .

لم يكن هناك شىء.

ارتبك أريستارخ إيفانيتش، فنهض، واستدار إلى النافذة وراح يسعل.

ـ عندى سعال يا أخى. . لا أدرى أين أصبت بالبرد. .

ونهض كوفالدين أيضا وأخذ يذهب ويجىء بعصبية بجوار الطاولة.

وقال وهو يعبث بلحيته بيدين مرتعشتين:

ـ إنك تلف وتدور. . الآن فهمت. . فهمت كل شىء. ولا أدرى لم كل هذه الدبلوماسية! لماذا لا تقول مباشرة؟ ماتت، أليس كذلك؟

فهز بسكاريوف كتفيه:

ـ هم . . كيف أقول لك؟ ليس تماما ماتت وإنما هكذا . . أوه، ها أنت ذا تبكى! ألسنا كلنا سنموت! ليس الموت مكتوبا عليها وحدها، كلنا سنرحل إلى الدار الآخرة! وبدلا من البكاء أمام الناس . . هلا ذكرت روحها بالرحمة! هلا رسمت الصليب!

ظل كوفالدين يحدق فى بسكاريوف ببلاهة حوالى نصف دقيقة، ثم امتقع بشدة، وسقط فى مقعده وانفجر فى بكاء هستيرى . . وقفز زملاؤه الموظفون من خلف مكاتبهم وأسرعوا لنجدته وحك بسكاريوف قفاه وعبس.

ودمدم مادا يديه:

ـ التعامل مع هؤلاء السادة مصيبة . . أى والله! . . يعول . . فلماذا يعول؟ ميشا، ماذا دهاك؟ ميشا! ـ وأخذ يهز كوفالدين . ـ إنها لم تمت بعد! من قال لك إنها ماتت؟ بالعكس، يقول الأطباء إنه مازال هناك أمل . . ميشا! يا ميشا! أقول لك إنها لم تمت! أتريد أن نذهب إليها سويا؟ هيا وعندئذ ستلحق قداس الجناز . . ماذا أقول؟ لا أقصد القداس بل الغداء. ميشا، أؤكد لك أنها مازالت حية! فليعاقبنى الله إن كنت كاذبا! فليحرمنى نعمة البصر! ألا تصدقنى؟ إذن فهيا نذهب إليها . . وعندئذ اعتبرنى ما شئت إذا لم . . من أين جاء بهذا، لا أفهم أنا اليوم كنت بنفسى عند المرحومة، أقصد ليس المرحومة إنما . . إخص!

وأشاح العقيد بيده وبصق وخرج من الإدارة. وعندما وصل إلى شقة المرحومة تهالك على الكنبة وشد شعره.

وصاح فى أسى:

ـ اذهبوا إليه أنتم! مهدوا أنتم للنبأ واعفونى من ذلك! أنا لا أريد! لم أقل له سوى كلمتين . . مجرد تلميح . . فانظروا ماذا جرى له! إنه يموت! فقد وعيه! لن أقبل أبدا فى المرة القادمة . . اذهبوا أنتم! . .

الخطيب

ذات صباح رائع جرى دفن المساعد الاعتبارى كيريل إيفانوفتش فافيلونوف، الذى توفى من جراء مرضين جد منتشرين فى بلادنا: الزوجة الشريرة، وإدمان الخمر. وعندما تحرك موكب الجنازة من الكنيسة إلى المقابر، استقل أحد زملاء المتوفى، المدعو بوبلافسكى، عربة وانطلق إلى صديقه جريجورى بتروفتش زابويكين، وهو رجل شاب ولكنه مشهور إلى حد كبير. وزابوكين، كما يعرف كثير من القراء، رجل ذو موهبة نادرة فى ارتجال خطب الزفاف والمناسبات اليوبيلية والتأبين. وبوسعه أن يخطب فى أى وقت: إثر الاستيقاظ مباشرة، وعلى الريق، وفى حالة السكر الفظيع، وأثناء الحمى. وينساب كلامه ناعما، سلسا كما يسيل الماء من ميزاب، وغزيرا. وفى قاموسه الخطابى من كلمات الرثاء أكثر مما فى أية حانة من صراصير. وخطبه دائما فصيحة، طويلة حتى إنهم أحيانا، وخاصة فى أعراس التجار، يضطرون للجوء إلى الشرطة لإيقافه عن الكلام.

وقال بوبلافسكى عندما وجده فى البيت:

ـ إننى أقصدك يا أخى! البس بسرعة وهيا بنا.

لقد توفى أحد زملائنا، والآن نشيعه إلى العالم الآخر، ومطلوب يا أخى أن تقول فى وداعه بعض الهراء.. الأمل كله فيك. لو كان المتوفى من صغار الموظفين لما أزعجناك، ولكنه سكرتير.. يعنى من أعمدة

الإدارة. ومن غير اللائق أن ندفن هذا الرأس الكبير بدون خطبة.

فقال زابويكين متثائبا:

ـ آه، السكرتير! أهو ذلك السكير؟

ـ نعم، السكير. ستكون هناك شطائر ومزّات.. وستمنح أجرة العربة. هيا يا عزيزى! فلتلق على قبره خطبة عصماء أفصح من خطب شيشرون، وستلقى كل الشكر!

وافق زابويكين عن طيب خاطر. نكش شعره، وأضفى على وجهه سيماء الكآبة وخرج مع بولافسكى. وقال وهما يجلسان فى العربة:

ـ أعرف سكرتيركم هذا. قَلَّ أن تُجد أفاقا وشيطانا مثله، عليه الرحمة.

ـ لا يصح يا جريشا أن تشتم الموتى..

ـ أنت محق، طبعا[1] aut mortuis nihil bene ولكنه مع ذلك محتال.

لحق الصديقان بركب الجنازة وانضما إليه. وكانوا يحملون المتوفى ويسيرون به ببطء فتمكن الصديقان قبل بلوغ المقابر من أن يعرجا ثلاث مرات على الحانات ويشربا فى ذكرى المرحوم.

وأقيمت صلاة الميت فى المقابر. وجريا على العادة بكت زوجته وأختها وحماته كثيرا. وعندما أنزل التابوت إلى القبر صاحت زوجته «ادفنونى معه!» لكنها لم تنزل إلى القبر وراء زوجها ربما لأنها تذكرت المعاش. وانتظر زابويكين حتى عمّ الهدوء، ثم تقدم إلى الأمام، وطاف على الحاضرين بنظراته، وقال:

(١) تعبير محرف عن اللاتينية ومعناه هنا «لا يذكر الموتى بسوء» وأصله فى اللاتينية de mortuis aut bene aut nihil ومعناه «إما أن تذكر الموتى بالحسنى أو لا تذكرهم بشىء». **(المعرب)**.

ـ هل نصدق سمعنا وأبصارنا؟ أليس حلما رهيبا هذا التابوت وهذه الأوجه الباكية، وهذا الأنين والنحيب؟ يا للحسرة، هذا ليس حلما، وأبصارنا لا تخدعنا! إن ذلك الذى رأيناه منذ وقت قريب مكتمل الصحة، فى أوج شبابه وبهائه ونضارته، ذلك الذى رأيناه منذ وقت قريب يضع، كالنحلة، عسله فى الخلية العامة لبناء الدولة، ذلك الذى . . هو بعينه أصبح الآن ترابا، أصبح سرابا ماديا. لقد أطبقت عليه قبضة الموت الذى لا يرحم عندما كان، رغم عمره المتأخر، مفعما بالقوة المتأججة والأحلام المشرقة. فيالها من خسارة لا تعوض! من ذا الذى يعوضنا عنه؟ لدينا الكثير من الموظفين الممتازين، ولكن بروكوفى أوسيبوفتش كان الوحيد بينهم. لقد كان مخلصا من صميم قلبه لواجبه الشريف، ولم يرحم نفسه، لم ينم الليل، وكان مثلا للتفانى والنزاهة . . كم كان يحتقر أولئك الذين يحاولون رشوته على حساب المصلحة العامة، أولئك الذين حاولوا بخيرات الحياة المغرية دفعه إلى خيانة واجبه! نعم، لقد رأينا بأعيننا كيف كان بروكوفى أوسيبوفتش يوزع راتبه الصغير على رفاقه المعوزين، وها قد سمعتم الآن عويل الأرامل واليتامى الذين كانوا يعيشون على حسناته. لقد كان مخلصا لواجبه الوظيفى ولأعمال الخير فلم يذق ملذات الدنيا، بل حرم نفسه حتى من سعادة الحياة العائلية. فأنتم تعرفون أنه ظل عازبا حتى آخر أيام عمره! ومن ذا الذى يعوضنا عنه رفيقا؟ كأنى أرى الآن وجهه الحليق البشوش الذى يهل علينا بابتسامة طيبة، وكأنى أسمع الآن صوته الناعم الودود الرقيق. طيب الله ثراك يا بروكوفى أوسيبوفتش! فلتنعم بالسكينة أيها الكادح الشريف النبيل!

ومضى زابويكين يخطب بينما أخذ المستمعون يتوشوشون. أعجب الجميع بالخطبة، التى استدرت بعض الدموع، ولكن الكثير فيها بدا لهم غريبا. فأولا: لم يكن مفهوما لماذا دعا الخطيب المرحوم باسم بروكوفى أوسيبوفتش بينما كان اسمه كيريل إيفانوفتش. وثانيا: كان الجميع يعرفون

أن المرحوم ظل طوال حياته يصارع زوجته الشرعية، وبالتالى فلا يمكن أن يكون عازبا. وثالثا: فقد كانت لديه لحية غزيرة حمراء، ولم يحلق ذقنه قط، ولذا فلم يكن مفهوما لماذا وصف الخطيب وجهه بالحليق. أبدى السامعون استغرابهم وتبادلوا النظرات، وهزوا أكتافهم.

ومضى الخطيب يقول بحماس وهو ينظر فى القبر:

- يا بروكوفى أوسيبوفتش! لم يكن وجهك جميلا، بل حتى كان قبيحا، متجهما صارما، ولكننا كنا نعرف جميعا أن هناك، تحت هذه القشرة الظاهرة، ينبض قلب شريف ودود!

وسرعان ما بدأ السامعون يلاحظون شيئا غريبا على الخطيب نفسه. فقد ثبت بصره على نقطة واحدة، ثم أخذ يتململ بقلق، وراح يهز كتفيه. وفجأة صمت، وفغر فاه بدهشة، والتفت إلى بوبلافسكى.

وقال وهو ينظر برعب:

- اسمع، إنه حىّ!

- من الحىّ؟

- بروكوفى أوسيبوفتش! ها هو يقف هناك بجوار التمثال!

- إنه لم يمت أصلا! كيريل يافانيتش هو الذى مات!

- ألم تقل لى إن سكرتيركم مات؟

- كيريل إيفانيتش كان سكرتيرا. يا لك من مضحك، لقد خلطت الأمور! صحيح أن بروكوفى أوسيبوفتش كان سكرتيرا ولكنه نقل منذ عامين إلى القسم الثانى رئيس قلم.

- آه، الشيطان وحده يفهمكم!

- وما لك توقفت، أكمل، لا تحرجنا!

والتفت زابويكين نحو القبر وواصل حديثه المنقطع بنفس البلاغة السابقة. وبالفعل كان بروكوفى أوسيبوفتش، وهو موظف عجوز، بوجه حليق، يقف بجوار التمثال. وكان يتطلع إلى الخطيب وقد قطب حاجبيه بغضب.

وضحك الموظفون أثناء عودتهم من المقابر مع زابويكين:

ـ ما الذى دهاك؟ تدفن شخصا حيا!

ودمدم بروكوفى أوسيبوفتش:

ـ عيب عليك أيها الشاب! ربما كانت خطبتك مناسبة للمرحوم، ولكنها محض سخرية بالنسبة لشخص حى! ما هذا الذى قلته؟ متفان، نزيه، لا يقبض رشاوى! هذا الكلام عن شخص حى ليس إلا سخرية! كما أن أحدا لم يطلب منك يا سيدى أن تفيض فى وصف وجهى. غير جميل، قبيح، فليكن، ولكن ما الداعى لعرض وجهى فرجة أمام الجميع؟ هذا مهين!

تحفة فنية

تصنع ساشا سميرنوف، وحيد أمه، الحزن وهو يدلف إلى عيادة الدكتور كوشيلكوف وقد وضع تحت إبطه شيئا ملفوفا فى العدد ٢٢٣ من جريدة «أخبار البورصة».

واستقبله الدكتور قائلا:

ـ أهلا بالفتى العزيز! حسنا، كيف صحتنا؟ ماذا لديك من أخبار طيبة؟

طرف ساشا بعينيه، ووضع يده على قلبه وقال بصوت منفعل:

ـ ماما تبلغكم تحياتها يا إيفان نيقولايفتش، وطلبت منى أن أشكركم.. أنا وحيد أمى، وأنتم أنقذتم حياتى.. شفيتمونى من مرض خطير و.. ولا نعرف كيف نشكركم..

فقاطعه الدكتور وهو يسترخى من السرور:

ـ كفى يا فتى أنا لم أفعل إلا ما كان يجب أن يفعله أس شخص آخر لو كان مكانى.

ـ أنا وحيد أمى.. ونحن فقراء، ولا نستطيع بالطبع أن نكافئكم على تعبكم و.. نحن فى غاية الخجل يا دكتور، وإن كنا، ماما وأنا.. وحيد أمى، نرجوكم رجاء حارا أن تقبلوا منا، رمزا لامتناننا.. هذه الهدية التى.. إنها تحفة ثمينة، من البرونز القديم.. تحفة فنية نادرة.

فامتعض الدكتور:

ـ لا لزوم لذلك! ما الداعى؟

فمضى ساشا يدمدم وهو يفك اللفة:

ـ لا، أرجوكم، لا ترفضوها. إن رفضكم سيكون إهانة لى ولماما.. أنها قطعة ممتازة.. من البرونز القديم. تركها لنا المرحوم بابا فاحتفظنا بها كذكرى غالية.. كان بابا يشترى التحف البرونزية القديمة ويبيعها للهواة.. والآن نزاول ماما وأنا نفس الشىء..

فك ساشا اللفة ووضع التحفة على الطاولة بحفاوة. كانت شمعدانا متوسط الارتفاع، من البرونز القديم، مصاغا بصورة فنية. وكان يصور مجموعة: فعلى القاعدة وقف جسدان نسائيان فى لباس حواء وفى وضع لا تكفينى لوصفه لا الشجاعة ولا الحمية الكافية. كان الجسدان يبتسمان بدلال، وكان يلوح من منظرهما، إنه لولا ما ألقى عليهما من مسئولية رفع الشمعدان لقفزا من القاعدة وعربدا فى الغرفة بصورة لا يليق حتى التفكير فيها أيها القارئ.

وبعد أن تأمل الدكتور الهدية، حك خلف أذنه ببطء، وتنحنح، ثم تمخط بتردد. ودمدم:

ـ نعم، تحفة رائعة فعلا، ولكنها.. كيف أقول.. ليست يعنى.. غير أدبية أبدا.. ليس هذا حتى ديكولتيه، بل الشيطان يعلم ما هذا..

ـ ماذا تقصد، لماذا؟

ـ شيطان الغواية نفسه لا يستطيع أن يبتكر شيئا أفظع من هذا. إن وضع هذا الهراء على الطاولة معناه تدنيس الشقة كلها.

فقال ساشا غاضبا:

ـ ما أغرب نظرتك إلى الفن يا دكتور. إنها تحفة فنية، انظر جيدا! فيها من الجمال والرشاقة ما يملأ النفس بمشاعر الرهبة، ويدفع إلى الحلق بغصة البكاء! وعندما ترى هذا الجمال تنسى كل ما هو دنيوى.. انظر أية حركات، وأية شفافية وأية قوة تعبيرية!

فقاطعه الدكتور قائلا:

ـ أعرف كل ذلك جيدا يا عزيزى، ولكنى رجل متزوج، وأولادى يلعبون هنا، وتزورنا سيدات محترمات.

فقال ساشا:

ـ طبعا إذا نظرنا من وجهة نظر الغوغاء، فإن هذه التحفة الفنية السامية ستبدو لنا بالطبع بصورة مختلفة.. ولكن يا دكتور، فلتعلُ فوق مستوى الغوغاء، خاصة وأن رفضك للهدية سيحزننى وماما كثيرا. أنا وحيد أمى.. وقد أنقذت حياتى.. إننا نهديك أعز شىء علينا.. و.. ولا يؤسفنى إلا أنه لا يوجد لديك شمعدان مماثل ليناسب هذا الشمعدان..

ـ شكرا يا عزيزى، أنا ممتن جدا.. بلغ تحياتى لماما، ولكن فى الحقيقة.. انظر بنفسك.. الأولاد يلعبون هنا، وتزورنا سيدات محترمات.. على العموم دعها، فلتبق! فلن تفهم مهما شرحت لك.

فقال ساشا مسرورا:

ـ لا داعى لأى شرح. ضع الشمعدان هنا، بجوار المزهرية. من المؤسف أنه لا يوجد شمعدان مماثل! مؤسف جدا! حسنا، وداعا يا دكتور.

وبعد انصراف ساشا ظل الدكتور يحدق طويلا فى الشمعدان، ثم حك خلف أذنه ومضى يفكر.

وقال لنفسه: «تحفة رائعة، لا شك فى هذا، يعز علىّ أن أرميها.. كما أن الاحتفاظ بها مستحيل. هم!.. يا لها من مسألة محيرة! ترى لمن يمكن إهداؤها أو التبرع بها؟».

وبعد تفكير طويل تذكر صديقه الطيب، المحامى أوخوف، الذى كان مدينا له بأتعاب قضية.

فقرر الدكتور:

ـ ممتاز! إنه محرج كصديق من أن يتقاضى منى أجرا، وسيكون من اللائق تماما لو أهديته هذه التحفة. فلأحمل إليه هذه المصيبة! وبالمناسبة فهو أعزب وأرعن..

ومضى الدكتور بلا تسويف فارتدى ملابسه، وأخذ الشمعدان ورحل إلى أوخوف.

وجد المحامى فى البيت فحياه:

ـ مرحبا يا صديقى! ها قد جئتك.. لكى أشكرك يا أخى على مجهوداتك.. إذا لم تكن تريد أن تأخذ منى نقودا، فلتأخذ على الأقل هذه التحفة.. إنها يا أخى تحفة فخمة!

وحينما رأى المحامى التحفة تملكه إعجاب لا يوصف. وقال وهو يقهقه:

ـ يا لها من تحفة! يا للملاعين، انظر كيف يبتكر هؤلاء الشياطين أشياء كهذه! رائعة! خلابة! من أين حصلت على هذه الفتنة؟

وبعد أن سكب المحامى إعجابه نظر إلى الباب بخوف وقال:

ـ ولكن احمل يا أخى هديتك من هنا. لن آخذها..

فسأل الدكتور بذعر:

ـ ولماذا؟

ـ هكذا.. والدتى تأتى إلى هنا، والزبائن.. بل حتى الخدم سأشعر بالحرج أمامهم.

فأشاح الدكتور بيديه:

ـ لا يمكن، أبدا! . . إياك أن تجرؤ على رفضها! سيكون ذلك خسة من جانبك! هذه تحفة فنية . . انظر أية حركات . . أية قوة تعبيرية . . أنا لا أقبل أى نقاش! سأغضب منك!

ـ لو أنها كانت مدهونة، أو مستورة بأوراق التوت . .

ولكن الدكتور أشاح بيديه أكثر، وانطلق راكضا من شقة أوخوف، ومضى إلى البيت سعيدا بأنه أفلح فى التخلص من الهدية . .

وبعد خروجه تفحص المحامى الشمعدان وتحسسه بأصابعه من جميع الجوانب، أخذ مثل الدكتور يفكر طويلا فيما يفعله بهذه الهدية.

وقال لنفسه: «إنها تحفة رائعة، يعز علىّ أن أرميها، كما أن الاحتفاظ بها لا يليق. أحسن شىء أن أهديها لأحد ما . . نعم، فلأحمل هذا الشمعدان مساء اليوم إلى الممثل الكوميدى شاشكين. هذا اللئيم يحب أمثال هذه الأشياء، وبالمناسبة، فاليوم حفلته «البنيفيس» . .

وهذا ما كان. ففى المساء قدّم الشمعدان الملفوف بعناية إلى الممثل شاشكين. وتعرضت غرفة الملابس الخاصة بالممثل طوال المساء لهجوم الرجال الذين جاءوا للتفرج على الهدية. وتردد فى الغرفة طوال الوقت هدير الإعجاب والضحكات الشبيهة بصهيل الخيل. وعندما كانت إحدى الممثلات تقترب من باب الغرفة وتسأل: «هل أستطيع أن أدخل»، تسمع على الفور صوت الممثل الأبح:

ـ كلا، كلا يا عزيزتى! لم ألبس بعد!

وبعد الحفل هز الممثل كتفيه وأشاح بيديه وقال:

ـ حسنا، وماذا أفعل بهذه النجاسة؟ إننى أسكن شقة مؤجرة! والممثلات يزرننى! وليست هذه صورة بحيث يمكن إخفاؤها فى درج المكتب!

وقال له الحلاق وهو يزيل عنه المكياج :

ـ بعها يا سيدى . . توجد هنا فى الضاحية سيدة عجوز تشترى البرونز القديم . . اذهب إلى هناك واسأل عن سميرنوفا . . الجميع يعرفونها .

واتبع الممثل النصيحة . . وبعد يومين كان الدكتور كوشيلكوف جالسا فى عيادته وقد وضع إصبعه على جبينه وهو يفكر فى الأحماض الصفراوية . وفجأة فتح باب الغرفة واندفع ساشا سميرنوف داخلا . كان يبتسم متهللا ، وقد طفحت هيئته كلها بالسعادة . . وكان فى يده شىء ملفوف .

وقال وهو يكاد يختنق :

ـ يا دكتور ! تصور مدى فرحتى ! لحسن حظك استطعنا أن نحصل على شمعدان مماثل لشمعدانكم ! ماما فى غاية السعادة . . أنا وحيد ماما . . لقد أنقذت حياتى . .

ووضع ساشا الشمعدان أمام الدكتور وهو يرتجف من الفرحة . وفغر الدكتور فمه ، وأراد أن يقول شيئا ما ولكنه لم ينبس بشىء . . إذ فقد النطق .

أجافيا

عندما كنت أعيش فى ناحية «س»، كثيرا ما كنت أتردد على مزارع الخضروات فى دوبوفو، والتى يحرسها سافا ستوكاتش، أو كما كان يدعى ببساطة: سافكا. كانت هذه المزارع أحب مكان الىّ للقيام بما يسمى صيد السمك «العمومى»، عندما لا تعرف، بعد أن تغادر البيت، اليوم أو الساعة التى سترجع فيها، وتأخذ معك كل معدات الصيد عن آخرها وتتزود بالمؤونة. وفى الواقع لم يكن صيد السمك هو الذى يهمنى، بقدر ما هو التسكع بلا هموم، والأكل فى غير وقته، والحديث مع سافكا، والمواجهات الطويلة مع ليالى الصيف الهادئة. كان سافكا فتى فى حوالى الخامسة والعشرين، فارع القامة، جميلا، قويا كالحجر الصوّان. واشتهر كشخص عاقل فهيم، وكان متعلما، لا يشرب الفودكا إلا نادرا، ولكن هذا الفتى الشاب القوى كان لا يساوى، كعامل، قرشا خردة. فإلى جانب القوة، تمدد فى عضلاته المفتولة كالحبال كسل ثقيل لا يقهر. وكان يعيش مثله مثل الآخرين فى القرية، فى بيته الخاص، ويملك قطعة أرض، لكنه لم يكن يحرث أو يبذر ولم يشتغل بأية حرفة. وكانت أمه العجوز تتسول، وهو ذاته كان يحيا كطيور السماء: لا يعرف صباحا ماذا سيأكل ظهرا. ولم تكن المسأله ترجع إلى ضعف إرادته وطاقته، أو عدم إشفاقه على أمه، وإنما ببساطة كان لا يحس بالرغبة فى العمل ولا يدرك فائدته. . كانت هيأته كلها تنضح بخلو البال، وبرغبة موروثة، كرغبات الفنانين، فى العيش دون عناء، وبإهمال. وعندما كان جسد سافكا الفتىّ القوى يحن

فسيولوجيا إلى العمل العضلى كان الشاب ينهمك كلية فى عمل حر ولكنه تافه، مثل سنّ أوتاد لا حاجة إليها البتة، أو التسابق فى الجرى مع نساء القرية. أما أحب وضع إليه فكان الوقوف بلا حراك مستغرقا فى التفكير. وكان بوسعه أن يقف ساعات طويلة فى مكانه دون حركة محدقا فى نقطة واحدة. كان لا يتحرك إلا بدافع الإلهام، وفقط عندما تتاح له فرصة الإتيان بحركة سريعة قصيرة: كأن يقبض على ذيل كلب راكض، أو ينتزع منديلا من على رأس فلاحة، أو يقفز فوق حفرة واسعة. ومن الطبيعى، مع هذا البخل فى الحركة، أن يكون سافكا عاريا كوليد، وأن يحيا أسوأ من أى عازب عجوز. وبمرور الوقت كان لا بد أن تتراكم عليه الديون، فأرسله مجمع القرية، وهو الشاب القوى، إلى وظيفة يقوم بها الشيوخ، ليعمل حارسا وفزّاعة طيور فى مزارع الخضراوات العامة. ورغم كل السخريات التى تعرض لها بشأن شيخوخته المبكرة، لم يعر الأمر أدنى اهتمام. فهذه الوظيفة الهادئة المناسبة للتأمل الجامد كانت جد ملائمة لطبعه.

وقد تصادف أن ذهبت إلى سافكا هذا فى إحدى أمسيات شهر مايو الجميلة. وأذكر أنى تمددت على دثار ممزق مهترئ مباشرة بجوار الخص، الذى كانت تتصاعد منه رائحة أعشاب جافة قوية خانقة. توسدت ذراعىّ ورحت أنظر أمامى. كانت هناك مذراة خشبية ملقاة عند قدمىّ. ومن خلفها كانت تخز العين بقعة سوداء هى «كوتكا». . كلب سافكا الصغير. وعلى بعد ذراعين لا أكثر من «كوتكا» انشقت الأرض عن شاطئ شديد الانحدار لنهر صغير. لم أكن أستطيع أن أرى النهر من مرقدى. لم أر غير قمم صفصافات كثيفة على هذا الشاطئ، وحافة الشاطئ الآخر المتعرجة وكأنها مقضومة. وبعيدا وراء الشاطئ، وعلى رابية معتمة تلاصقت كحجلات مذعورة بيوت القرية التى كان يعيش فيها صاحبى سافكا. ومن خلف الرابية كانت أضواء المغيب تتلاشى. ولم يبق إلا شريط أحمر شاحب، وحتى هذا أخذت تغلفه سحب صغيرة، كما يغلف الرماد الجمرات.

وعلى يمين المزارع لاح حرش أشجار حور رومى معتمة وهى تهمس بحفيف خافت وتنتفض من هبات الريح العابرة، وعلى اليسار امتد حقل لا يحده البصر. وهناك، حيث لم يكن بوسع العين أن تميز فى الظلام الحقل عن السماء، تراقص ضوء ساطع. وغير بعيد عنى جلس سافكا. كان يجلس القرفصاء وقد دلى رأسه، وهو ينظر إلى «كوتكا» مستغرقا. كنا قد وضعنا سنانيرنا فى النهر منذ وقت بعيد، ولم يعد لدينا ما نفعله سوى الاستسلام للراحة التى كان يحبها سافكا المستريح دوما، الذى لم يجهد نفسه أبدا. ولم يكن شفق المغيب قد تلاشى تماما، بينما نشر ليل الصيف على الطبيعة رقته الناعمة المخدرة.

سكن كل شىء فى بداية نوم عميق، اللهم إلا طائر ليلى غير معروف لى أخذ يطلق فى الحرش بكسل صوتا طويلا مؤلفا من مقاطع. يشبه عبارة «هل رأيت نيـ . . كيـ . . تا؟» وعلى الفور يرد على نفسه: «رأيت! رأيت! رأيت!»

وسألت سافكا:

ـ لماذا لا تصدح البلابل الليلة؟

فاستدار نحوى ببطء. كانت تقاطيع وجهه كبيرة، ولكنها صافية، معبرة وناعمة كتقاطيع وجه المرأة. ثم تطلع بعينيه المستكينتين المستغرقتين إلى الحرش، ثم إلى الصفصافات، وأخرج من جيبه ببطء زمارة، ودسها فى فمه، وصفر كالبلبل. وعلى الفور، وكأنما ردا على صفيره، نقَّر طائر التفلق البرى على الشاطئ الآخر.

وضحك سافكا ضحكة قصيرة:

ـ إليك بلبلا . . انظر كيف ينقر: قر . . قر، قر . . قر' كأنه يشد ترباسا وتراه يظن أنه يغنى.

فقلت له :

ـ يعجبنى هذا الطائر . أتدرى؟ التفلق أثناء الهجرة لا يطير ، بل يجرى على الأرض . لا يطير إلا فوق الأنهار والبحار ، وفيما عدا ذلك يسير .

فتمتم سافكا وهو ينظر باحترام ناحية التفلق الصارخ :

ـ يا سلام يا ملعون . .

ولما كنت أعرف شغف سافكا بسماع الأحاديث فقد رويت له كل ما أعرفه من كتب الصيد عن التفلق البرى .

وانتقلت من التفلق إلى هجرة الطيور . وكان سافكا يصغى إلىّ بانتباه دون أن تطرف عيناه ، وهو يبتسم طول الوقت من المتعة .

وسألنى :

ـ أية ناحية أعز على الطيور؟ ناحيتنا أم الأخرى؟

ـ ناحيتنا طبعا . فالطائر يولد هنا ، وهنا يربى أولاده . هنا موطنه ، وهوى يطير إلى هناك فقط حتى لا يتجمد من البرد .

فقال سافكا وهو يتمطى :

ـ عجيبة! كل ما حولنا عجيب . فسواء طائر ، أم إنسان . . أو خذ مثلا هذا الحجر . . فى كل شىء حكمة! . . آه لو كنت أدرى أنك ستأتى يا سيدى لما سمحت للمرأة أن تحضر إلىّ الليلة . . فقد طلبت واحدة أن تأتى الليلة . .

فقلت له :

ـ خذ راحتك ، لن أزعجك! أستطيع أن أنام فى الحرش . .

ـ وهل هذا كلام! ما كانت لتموت لو جاءت غدا . . لا بأس لو أنها

جلست تستمع إلى الأحاديث، ولكنها فقط تجلس ولعابها يسيل. لا يمكن أن تتحدث فى حضورهما كما ينبغى.

وصمت قليلا ثم سألته:

ـ هل تنتظر داريا؟

ـ لا.. هذه المرة واحدة أخرى طلبت أن تأتى.. أجافيا ستريلتشيخا..

قال سافكا ذلك بصوته العادى، الخالى من العاطفة، الخافت قليلا، وكأنما كان يتحدث عن التبغ أو العصيدة، أما أنا فقد انتفضت من الدهشة. كنت أعرف أجافيا ستريلتشيخا.. لقد كانت امرأة شابة تماما، فى حوالى التاسعة عشرة أو العشرين، وقد تزوجت منذ ما لا يزيد عن عام من عامل تحويلة بالسكك الحديدية، وهو فتى شاب، مهيب الطلعة. وكانت تعيش فى القرية، أما زوجها فكان يأتى من عمله كل ليلة ليبيت عندها.

وقلت متنهدا:

ـ حكايتك هذه مع النساء ستنتهى نهاية سيئة يا أخى!

ـ فليكن..

وفكر سافكا قليلا ثم أضاف:

ـ أنا قلت لهن، ولكنهن لا يسمعن الكلام.. هؤلاء الحمقاوات لا يكفيهن ما هنّ فيه من مصائب!..

وحلت فترة صمت.. وفى تلك الأثناء كان الظلام قد ازداد حلكة، وفقدت الأشياء ملامحها المميزة. وانطفأ الشريط وراء الرابية، بينما ازدادت النجوم سطوعا وأشعاعا.. ولم يعكر من صفو السكون الليلى صرير الجنادب الرتيب اللامبالى أو نقر التفلق أو صياح السمان، بل على العكس، أضفى عليه مزيدا من الرتابة. وبدا أن ما يردد هذه الأصوات

الخافتة ويسحر السماع ليست هى الطيور أو الحشرات، بل النجوم التى كانت تتطلع إلينا من السماء . .

وكان سافكا أول من قطع حبل الصمت. حول نظره ببطء من «كوتكا» إلىّ ثم قال :

- أرى يا سيدى أنك تضجر. هيا نتعشى.

ودون أن ينتظر موافقتى زحف على بطنه داخل الخص، وبحث هناك فانتفض الخص كله كورقة شجرة، ثم عاد زحفا ووضع أمامى الفودكا التى أحضرتها أنا وصحفة من الفخار. كان فى الصحفة بيض مشوى وشطائر من الجودار بدهن الخنزير، وكسر خبز أسود وأشياء أخرى. . وشربنا من كوب معوج لا يستقيم فى وقفته، وشرعنا نأكل. . ملح رمادى خشن، وشطائر قذرة مدهنة، وبيض مرن كالمطاط، ومع ذلك فما أشهى ذلك كله!

وقلت لسافكا مشيرا إلى الصحفة :

- تعيش أعزب ومع ذلك ما أكثر الخيرات لديك. . من أين تحصل عليها؟

فدمدم سافكا بصوت كالخوار :

- النساء يحضرنها. .

- ولماذا يحضرنها لك؟

- هكذا. . من باب الشفقة. .

لم يكن الطعام وحده، بل وملبس سافكا أيضا، يحمل بصمات هذه «الشفقة» النسائية. ففى هذا المساء مثلا لاحظت عليه حزاما جديدا من التيل وشريطا أحمر فاقعا تدلى منه صليب نحاسى على رقبته القذرة. كنت أعرف ميل الجنس اللطيف إلى سافكا، وكنت أعرف أنه لا يرغب فى

الحديث عن ذلك فلم أواصل التحقيق. فضلا عن أن الوقت لم يكن مناسبا للحديث. . إذ إن «كوتكا»، الذى كان يدورحولنا ينتظر فى صبر صدقاتنا أرهف أذنيه فجأة وأخذ يزمجر. وتناهى من بعيد صوت طرطشة ماء متقطعة.

وقال سافكا:

ـ هناك شخص يعبر النهر . .

وبعد حوالى ثلاث دقائق زمجر «كوتكا» ثانية، وصدر عنه صوت يشبه السعال.

فصاح به صاحبه:

ـ هس!

وتردد فى الظلام وقع خطوات وجلة، وظهر من الحرش شبح امرأة. وعرفتها رغم الظلام. . كانت هى أجافيا ستريلتشيخا. اقتربت منا متهيبة، وتوقفت وهى تلتقط أنفاسها المبهورة. لم تكن تلهث بسبب المشى، بقدر ما هو، على الأرجح، بسبب الخوف والإحساس الكريه الذى يراود كل من يخوض ليلا فى الماء. وعندما رأت بجوار الخص شخصين بدلا من شخص واحد، ندت عنها صرخة ضعيفة، وتراجعت خطوة إلى الوراء.

وقال سافكا وهو يدس فى فمه شطيرة:

ـ آه. . أهى أنت!

أنا. . نعم أنا. . ـ دمدمت وهى تنظر إلىّ شزرا بينما سقطت من يدها لفة بها أشياء ما. ـ ياكوف يبلغك تحياته وأمرنى أن أحمل إليك هذه. . هنا بعض الأشياء. . فضحك سافكا ساخرا:

ـ كفى كذبا! أى ياكوف! لا داعى للكذب، فالسيد يعرف لماذا جئت! اجلسى، ستكونين ضيفتنا. .

نظرت أجافيا نحوى شزراً وجلست بتردد.

وقال سافكا بعد صمت طويل:

ـ ظننت أنك لن تأتى الليلة.. ما لك جالسة؟ كلى! أم تريدين أن تشربى فودكا؟

فدمدمت أجافيا:

ـ ما هذا الكلام!.. وهل أنا سكيرة..

ـ اشربى، اشربى.. سيزداد قلبك حرارة.. هيا!

ومد سافكا إلى أجافيا الكوب الأعوج. فشربت الفودكا ببطء، ولم تمز، بل زفرت بصوت عال.

ـ أحضرت شيئا ما.. ـ قال سافكا وهو يفك الصرة ويضفى على صوته نبرة مازحة متسامحة. ـ المرأة لا تستطيع أن تأتى دون أن تحضر شيئا ما. آه، هذه كعكة، وبطاطس.. يعيشون فى رغد! ـ زفر سافكا وهو يستدير نحوى بوجهه. ـ لم يبق فى القرية كلها بطاطس من الشتاء الماضى إلا عندهم!

لم أر فى الظلام وجه أجافيا، ولكن خيل إلىّ من حركة كتفيها ورأسها أنها لا تحول عينيها عن وجه سافكا. وحتى لا أكون ثالث اثنين فى موعد غرام فقد قررت أن أمضى لأتنزه، ونهضت. بيد أنه فى تلك اللحظة صدح بلبل فى الحرش فجأة بصوت رنان. وبعد نصف دقيقة أطلق نقرا خفيفا كقرع الطبول، وبعد أن جرّب صوته بهذه الطريقة، بدأ يشدو. وقفز سافكا واقفا وأصاخ السمع.

وقال:

ـ إنه بلبل الأمس! طيب مهلا!..

واندفع راكضا نحو الحرش بخطوات لا تسمع. فصحت في إثره:

ـ ما لك وما له؟ دعه!

فأشاح بيده، كأنما يقول: لا تصرخ، واختفى في الظلام. كان بوسع سافكا عندما يشاء أن يصبح قناصا أو صياد سمك رائعا، ولكن مواهبة في هذه الحالة أيضا كانت تبدد هباء مثلها مثل قوته. كان كسولا إزاء الأعمال العادية، أما كل ولعة بالصيد فكان يسخره لحيل تافهة. فهو مثلا لا يصطاد البلابل إلا بيده، ويطلق أعيرة الرش الرفيع على سمك الكراكي، ويقف أحيانا ساعات طويلة في النهر وهو يحاول بكل جهده أن يصطاد سمكة صغيرة بشص كبير.

وعندما أصبحنا وحدنا سعلت أجافيا سعلة خفيفة ومرت بيدها على جبينها عدة مرات.. لقد بدأت تسكر من الفودكا التي شربتها.

وبعد صمت طويل، وعندما أصبح السكوت أكثر من ذلك محرجا، سألتها:

ـ كيف الحال يا أجاشا[1]؟

ـ الحمد لله ـ ثم أضافت فجأة همسا: ـ لا تخبر أحدا يا سيدي..

فطمأنتها قائلا:

ـ لا تخشي شيئا.. ومع ذلك يا لك من شجاعة يا أجاشا.. ماذا لو عرف ياكوف:

ـ لن يعرف..

ـ وإذا عرف؟

---

(١) أجاشا ـ تدليل من الاسم الكامل أجافيا. **(المعرب)**.

ـ كلا . . سأكون فى المنزل فبل أن يصل . إنه الآن على الخط ، ولن يعود قبل مرور قطار البريد ، ومن هنا يمكن سماع القطار عندما يمر . .

ومرت أجافيا بيدها مرة أخرى على جبينها ونظرت إلى الجهة التى ذهب سافكا إليها . كان البلبل يشدو . وحلق طائر ليلى فوق سطح الأرض تماما ، وعندما لمحنا انتفض ، وصفق بجناحيه ، وانطلق نحو الشاطئ الآخر للنهر .

سرعان ما صمت البلبل ، ولكن سافكا لم يعد . ونهضت أجافيا ، وخطت بضع خطوات فى اضطراب ، ثم جلست ثانية .

ولم تطق صبرا فقالت :

ـ ماذا دهاه؟ القطار سيمر اليوم وليس غدا! ينبغى أن أنصرف الآن!

وصحت أنا :

ـ يا سافكا! يا سافكا!

ولم يرد علىّ حتى الصدى . وتململت أجافيا بقلق ، ثم وقفت ثانية .

وقالت بصوت مضطرب :

ـ علىّ أن أنصرف! سيمر القطار حالا! أنا أعرف متى تمر القطارات!

ولم تخطئ المرأة المسكينة . فلم يمر ربع ساعة إلا وتردد صخب بعيد .

وصوبت أجافيا نظرة طويلة إلى الحرش وحركت ذراعيها بنفاذ صبر .

وقالت وهى تضحك بعصبية :

ـ أين؟ إلى أين حملة الشيطان؟ سأنصرف! نعم يا سيدى سأنصرف!

وفى تلك الأثناء ازداد الصخب وضوحا . وأصبح من الممكن تمييز دقات العجلات من زفرات القاطرة الثقيلة . وها قد تناهى صفير ، وقرقع

القطار فوق الجسر قرقعة مكتومة. . ومرت دقيقة أخرى، ثم هدأ كل شيء.

وتنهدت أجافيا وهي تجلس بحزم:

ـ سأنتظر دقيقة أخرى. . طيب، سأنتظر!

وأخيرا ظهر سافكا في الظلام. كان يخطو بصوت لا يسمع بقدميه الحافيتين على أرض المزرعة الرخوة وهو يدمدم بصوت خافت.

وقال وهو يضحك بمرح:

ـ انظر إلى الحظ، يا سلام! ما إن اقتربت من الخميلة، وما إن بدأت أصوب بيدي حتى سكت! هذا الكلب الأجرب! انتظرت وانتظرت حتى يغني ثانية، ثم بصقت وعدت. .

وهوى سافكا على الأرض بجوار أجافيا بحركة خرقاء، ولكي يحفظ توازنه أمسكها من خصرها بكلتا يديه.

وسألها:

ـ ما لك مبوزة كأن حماتك هي التي ولدتك؟

كان سافكا رغم كل طيبة قلبه وسماحة روحه يحتقر النساء. كان يعاملهن بإهمال وتعال، ويتنازل إلى مستوى الضحك الهازئ بأحاسيسهن تجاهه هو. ومن يدري فربما كانت معاملة الإهمال والاحتقار هذه هي إحدى أسباب سحره القوي الذي لا راد له عند ملكات الجمال الريفيات. كان جميلا، ممشوقا، وكانت عيناه تشعان برقة هادئة حتى وهو ينظر إلى النساء اللاتي يحتقرهن، غير أنه لا يمكن تفسير هذا السحر بالصفات الخارجية وحدها. فإلى جانب مظهره الموفق وطريقته المميزة في المعاملة، كان مما له أيضا تأثيره على النساء، فيما يبدو، دور سافكا المؤثر كشخص سيئ الحظ وطريد بائس، نُفي من داره الحبيبة إلى المزارع.

ومضى سافكا يقول وهو لا يزال قابضا على خصر أجافيا :

ـ هيا قولي للسيد لأى غرض جئت! هيا خبريه يا زوجة الزوج! هو . . هو . . هل نشرب مزيدا من الفودكا يا صاحبتى أجاشا؟

نهضتُ وسرتُ بحذاء المزرعة بين الخطوط المزروعة . كانت هذه الخطوط القاتمة تشبه مقابر كبيرة مبططة . وفاحت منها رائحة التربة المعزوقة ورطوبة النبات الرقيقة وقد بدأ الندى يكسوه . . وإلى اليسار كان الضوء الأحمر لا يزال يومض كان يغمز ببشاشة وكأنه يبتسم .

وسمعت ضحكات سعيدة . تلك كانت ضحكات أجافيا .

وفكرت : «والقطار؟ لقد مر القطار منذ وقت طويل» .

وانتظرت قليلا ، ثم عدت إلى الخص . كان سافكا جالسا القرفصاء بلا حراك وهو يدندن بصوت خافت لا يكاد يسمع أغنية ما تتألف من كلمات قصيرة المقاطع مثل «يا أنت ، ما أنت . . أنا وأنت . . » وكانت أجافيا ، وقد سكرت من الفودكا وحنان سافكا المحتقر والليل الخانق ، ترقد بجواره على الأرض وتضغط بوجهها على ركبته فى انفعال . وقد أوغلت فى أحاسيسها لدرجة أنها لم تلاحظ مقدمى .

وقلت لها :

ـ يا أجاشا ، لقد مر القطار من فترة طويلة!

ـ هيا ، حان الوقت ، ـ قال سافكا مؤمنا على فكرتى وهو يهز رأسه . ـ ما لك تمددت هنا؟ أنت يا عديمة الحياء!

وجفلت أجافيا ، ونزعت رأسها على ركبته ونظرت إلىّ ، ثم التصقت به ثانية .

وقلت :

ـ حان الوقت من زمان!

وتملمت أجافيا ونهضت على ركبة واحدة. . كانت تعانى . . ولنصف دقيقة عبر جسدها كله، بقدر ما استطعت أن أميز فى الظلام، عن الصراع والتردد. وجاءت لحظة مدت فيها قامتها، وكأنها أفاقت، لكى تنهض واقفة، ولكن قوة قاهرة عنيدة دفعتها فى بدنها كله، فالتصقت بسافكا.

ـ فليذهب فى داهية!

قالت وهى تضحك ضحكة جوفية وحشية، وتبدى فى هذه الضحكة حزم طائش وعجز وألم.

مضيت بهدوء نحو الحرش، ومن هناك هبطت إلى النهر حيث وضعنا سنانيرنا. كان النهر نائما. ولمست خدى برقة زهرة ناعمة منفوشة بساق طويلة، كأنها طفل يريد أن يشعرك بأنه مستيقظ. ولما لم يكن لدىَّ ما أفعله فقد بحثت عن خيط إحدى السنانير حتى وجدته فسحبته. وتوتر الخيط قليلا ثم ارتخى. . لم يعلق بالسنارة شىء. . ولم يكن الشاطئ الآخر والقرية يبدوان فى الظلام. وومض ضوء فى أحد البيوت ثم سرعان ما انطفأ. وتحسست أرض الشاطئ بيدى فعثرت على الحفرة التى كنت قد لاحظتها نهارا فجلست فيها كما فى مقعد. ظللت جالسا مدة طويلة. . ورأيت كيف بدأ الضباب يلف النجوم فتفقد بريقها، وكيف انسابت البرودة فوق الأرض كزفرة خفيفة ومست أوراق الصفصاف المستيقظ. .

ـ أجا. . فيا! ـ تناهى من القرية صوت مكتوم. ـ أجافيا!

كان ذلك صوت الزوج العائد القلق وهو يبحث عن زوجته فى القرية. وفى نفس الوقت انبعث من المزرعة ضحك منطلق: كانت الزوجة غائبة عن وعيها، ثملة، تحاول بسعادة بضع ساعات أن تعوض العذاب الذى ينتظرها فى الغد.

ونمت. .

وعندما استيقظت كان سافكا جالسا إلى جوارى يهز كتفى هزا خفيفا. كان النهر والحرش، وكلا الشاطئين الأخضرين المغسولين، والأشجار والحقل. . كان كل ذلك مغمورا بضوء الصباح الساطع. ومن بين جذوع الأشجار الرفيعة سقطت على ظهرى أشعة الشمس التى أشرقت لتوها.

وضحك سافكا ساخرا:

ـ أهكذا تصيد السمك؟ حسنا، قم!

نهضت، وتمطيت بتلذذ، وبدأ صدرى المستيقظ يعب الهواء الرطب العطر بنهم.

وسألت سافكا:

ـ أجاشا ذهبت؟

فأشار بيده إلى النهر حيث المخاضة:

ـ ها هى.

نظرت فرأيت أجافيا. كانت تعبر النهر، مشعثة، وقد شمرت ثوبها، وسقط المنديل عن رأسها. وكانت لا تكاد تقوى على تحريك ساقيها. .

ودمدم سافكا وهو يزر عينيه ناظرا إليها:

ـ تعرف القطة لحم مَنْ سرقت! تسير وقد طوت ذيلها. . هؤلاء النسوة شقيات كالقطط وجبانات كالأرانب. . لم تذهب الحمقاء بالأمس عندما قلنا لها! والآن ستلقى جزاءها، وأنا أيضا سيجروننى إلى المركز. . سأجلد ثانية بسبب النساء. .

بلغت أجافيا الشاطئ ومضت عبر الحقل إلى القرية. فى البداية سارت بخطوات جريئة، ولكن سرعان ما تغلب عليها القلق والخوف، فالتفتت مذعورة، وتوقفت عن السير وهى تلتقط أنفاسها.

ـ طبعا لا بد أن تخافى! ـ قال سافكا بسخرية حزينة وهو ينظر إلى الشريط الأخضر الساطع الذى امتد خلف أجافيا فى العشب الندى. ـ لا ترغبين فى السير! زوجها يقف منذ ساعة وينتظر. . هل رأيته؟

قال سافكا جملته الأخيرة وهو يبتسم، أما أنا فقد تثلج قلبى. ففى القرية، بجوار آخر بيت منها، وقف ياكوف على الطريق وهو يحدق مباشرة فى زوجته العائدة. لم يتحرك من مكانه وكان جامدا كالعمود. فيم كان يفكر وهو ينظر إليها؟ وأية كلمات أعدها للقائها؟ وقفت أجافيا قليلا، ثم التفتت مرة أخرى كأنما تنتظر منا العون، ثم سارت. لم أر من قبل أبدا مثل هذه المشية لا لثمل ولا لمفيق. وبدا كأن أجافيا تتلوى تحت وقع نظرة زوجها. كانت تسير تارة بخطوط متعرجة، وتارة تراوح فى مكانها وهى تثنى ركبتيها وتشيح بيديها، وتارة تتراجع. وبعد أن قطعت حوالى مائة خطوة التفتت مرة أخرى ثم جلست.

وقلت لسافكا:

ـ هلا اختبأتَ وراء الأغصان. . سيراك زوجها. .

ـ إنه على أى حال يعرف من عند مَنْ جاءت أجاشا. . النساء لا يذهبن إلى المزارع ليلا لإحضار الكرنب. . هذا يعرفه الجميع.

نظرت إلى وجه سافكا. كان شاحبا وقد تقلص بشفقة متقززة كتلك التى تكسو وجوه الناس عندما يرون حيوانا يعذَّب.

وتنهد سافكا قائلا:

ـ الضحك للقطة، والدموع للفأر. .

وفجأة قفزت أجافيا واقفة، وهزت رأسها، ومضت نحو زوجها بخطوات جريئة. يبدو أنها استجمعت قواها وحزمت أمرها.

المتمارضون

فى أحد أيام الثلاثاء من شهر مايو كانت زوجة الجنرال مارفا بتروفنا بتشونكينا، التى تمارس العلاج الهوميوباتى منذ عشر سنوات، تستقبل المرضى فى غرفة مكتبها. وعلى الطاولة أمامها كان صندوق صيدلية الأدوية الهوميوباتية وكتاب وصفات العلاج وفواتير الصيدلية. وعلى الجدران علقت تحت الزجاج فى أطر مذهبة رسائل طبيب هوميوباتى ما من بطرسبرج كان مشهورا جدا فى رأى مارفا بتروفنا، بل عظيما، وصورة الأب أريستارخ الذى تدين له زوجة الجنرال بخلاصها، أى بالكف عن العلاج المألوف وإدراك الحقيقة. وفى الردهة ينتظر المرضى جالسين، ومعظمهم من الفلاحين. وجميعهم ما عدا اثنين أو ثلاثة، حفاة، لأن زوجة الجنرال تأمرهم بأن يتركوا أحذيتهم النتنة فى الفناء.

كانت مارفا بتروفنا قد استقبلت عشرة أشخاص، وها هى ذى تستدعى الحادى عشر:

ـ جافريلا جروزد!

ويفتح الباب، وبدلا من جافريلا جروزود، يدخل الغرفة زاموخريشين، جار زوجة الجنرال، من الإقطاعيين المفلسين، عجوز ضئيل الجسم، ذو عينين كابيتين، وتحت إبطه قبعة النبلاء. ويضع العصا فى الركن ويقترب من زوجة الجنرال، وفى صمت يركع على إحدى ركبتيه أمامها.

فتفزع زوجة الجنرال وتتضرج حمرة:

ـ ما هذا! ما هذا يا كوزما كوزميتش! أرجوك لا داعى!

فيقول زاموخريشين مقبلا يدها:

ـ لن أنهض ما دمت حيا! فليرانى الناس كلهم راكعا أمامك، يا ملاكنا الحارس، يا راعية جنس بنى البشر! ليرونى! الساحرة الخيِّرة التى وهبتنى الحياة، وأرشدتنى إلى السبيل القويم، وأنارت ظلمات يأسى، هذه الساحرة مستعد أن أقف أمامها لا على ركبتى بل وفى النار أيضا، يا شافية جراحنا الرائعة، يا أم اليتامى والأرامل! لقد شفيت! بعثت حيا أيتها الساحرة!

فتدمدم زوجة الجنرال وهى تتضرج من السرور:

ـ أنا.. أنا سعيدة جدا.. ما أطيب أن أسمع هذا.. اجلس من فضلك! ولكنك فى الثلاثاء الماضى كنت مريضا جدا!

فيقول زاموخريشين:

ـ أوه كم كنت مريضا! مجرد التذكر شىء مرعب! كان الروماتيزم ممسكا بكل أطرافى وأعضائى. ثمانى سنوات أتعذب، لم أذق للراحة طعما.. لا ليلا ولا نهارا يا ربة نعمتى! ترددت على الأطباء، وسافرت إلى البروفيسورات فى كازان، وتعالجت بمختلف أنواع الطين، وشربت المياة المعدنية، لم أترك شيئا إلا جربته! وضيعت ثروتى على العلاج يا سيدتى الجميلة. هؤلاء الأطباء لم يعودوا علىَّ بشىء إلا بالضرر. حبسوا الداء فى جسمى.. صحيح أنهم حبسوه.. ولكن علومهم ليست قادرة على إخراجه.. هؤلاء اللصوص لا يحبون إلا الاستيلاء على النقود، أما آلام الإنسان فلا تحرك شيئا فى نفوسهم. يصف لك الدجال منهم شيئا ما، وعليك أن تشربه. باختصار هم قتلة! ولولاك يا ملاكنا، لكنت الآن فى

القبر! عدت من عندك يوم الثلاثاء الماضى، ونظرت إلى الحبات التى أعطيتنيها يومها وقلت لنفسى: «أى فائدة منها؟ أمن المعقول أن هذه الحبيبات التى لا تكاد ترى يمكن أن تشفينى من مرضى الهائل القديم؟». وأخذت أبتسم وأنا أفكر، يالى من ضعيف الإيمان، وما إن تناولت حبة حتى ظهر الأثر فورا! كأنما لم أكن مريضا، كأنما يد مسحت الداء عنى. وحدقت زوجتى فىَّ بعينين جاحظتين وهى لا تصدق: «أهذا أنت يا كوليا حقا؟» فقلت لها: «نعم أنا». وركعنا معا أمام الأيقونة وأخذنا نصلى لملاكنا: فلتعطها يا رب كل ما نتمناه لها فى نفوسنا!».

ويمسح زاموخريشين عينيه براحته، وينهض من فوق المقعد، ويبدو أنه ينوى الركوع مرة أخرى على إحدى ركبتيه، ولكن زوجة الجنرال تستوقفه وتجلسه.

ـ لا توجه الشكر إلىّ.. ـ قالت وهى تتضرج بحمرة الانفعال وتنظر بإعجاب إلى صورة الأب أريستارخ. ـ ما أنا إلا أداة طيعة.. يا لها من معجزات! روماتيزم قديم، من ثمانى سنوات ويزول من حبة واحدة!

ـ لقد تكرمت وأعطيتنى ثلاث حبات. أخذت حبة فى الغداء، وفورا زال! والثانية فى المساء، والثالثة فى اليوم التالى.. ومن ساعتها لم أشعر بشىء! ولا حتى بوخزة! مع أننى كنت استعد لملاقاة الموت، حتى إنى كتبت لابنى فى موسكو أن يأتى! ألهمك الله يا شافية الجراح! ها أنا ذا أسير وكأنى فى الجنة.. فى ذلك الثلاثاء عندما كنت عندك كنت أعرج، أما الآن فعلى استعداد ولو لمطاردة أرنب.. مائة سنة أخرى أستطيع أن أعيش! شىء واحد يؤرقنى: قلة الموارد. ها أنا ذا صحيح الجسم، فما جدوى الصحة إذا كنت لا تجد ما تعيش به؟ العوز أرهقنى أكثر من المرض.. إليك مثلا على ذلك هذا الأمر.. الآن أوان بذر الجودار، فكيف تبذره وليس لديك بذور؟ ينبغى أن أشترى، ولكن النقود.. أى نقود لدينا..

ـ سأعطيك جوداراً يا كوزما كوزميتش . . اجلس، اجلس. كم أذهلتنى، وأية سعادة منحتنى، أنا التى يجب أن أشكرك لا أنت!

ـ أنت سعادتنا! كيف خلق الرب كل هذه الطيبة! فلتفرحى يا سيدتى وأنت تنظرين إلى أعمالك الطيبة! أما نحن المساكين فليس لدينا ما يفرحنا. . نحن قوم صغار، فقراء الروح، لا نفع منا. . تافهون. . نحن نبلاء اسما فقط، أما ماديا فنحن كهؤلاء الفلاحين، بل أسوأ. . نعيش فى بيوت حجرية ولكن ذلك فى الحقيقة سراب. . لأن السقف مثقوب تتسرب منه المياه. . وليس لدينا ما نشترى به الخشب.

ـ سأعطيك خشبا يا كوزما كوزميتش.

ويحصل زاموخريشين كذلك على بقرة، وخطاب توصية لابنته التى يعتزم إلحاقها بمعهد و. . ويغلبه التأثر من كرم زوجة الجنرال فيشهق باكيا ويتقلص فمه، ويدس يده فى جيبه ليخرج المنديل. . وترى زوجة الجنرال ورقة حمراء تخرج من جيبه مع المنديل وتسقط على الأرض دون صوت.

ويتمتم زاموخريشين:

ـ لن أنسى أبد الدهر. . وسأوصى أولادى وأحفادى أن يذكروا. . وكل الأجيال. . ها هى ذى يا أولاد تلك التى أنقذتنى من القبر، تلك التى. .

وبعد أن تودع زوجة الجنرال مريضها تقف دقيقة تحدق فى الأب أريستارخ بعينين مغرورقتين بالدموع، ثم تطوف بنظرة رقيقة ممتنة على الصيدلية، وكتب العلاج، والفواتير، والكرسى الذى كان يجلس فيه منذ قليل الرجل الذى أنقذته من الموت، ويقع بصرها على الورقة التى سقطت من جيب المريض. وترفع زوجة الجنرال الورقة وتفضها، فترى فيها ثلاث حبات، تلك الحبات نفسها التى أعطتها لزاموخريشين فى الثلاثاء الماضى.

وتقول مستغربة:

ـ إنها هى نفسها.. حتى الورقة هى بعينها.. إنه حتى لم يفضها! ما الذى تناوله إذن؟ غريبة.. لا يمكن أن يكون قد خدعنى!

ولأول مرة خلال عشر سنوات من الممارسة يتسرب الشك إلى نفس زوجة الجنرال.. وتستدعى بقية المرضى، وتلاحظ وهى تتحدث معهم عن أمراضهم ما كان يغيب عن سمعها من قبل. فجميع المرضى بلا استثناء، وكأنما اتفقوا على ذلك، يمجدونها فى البداية على شفائهم المدهش، ويبدون إعجابهم بحصافتها الطبية، ويسبون الأطباء العاديين، وبعد ذلك، وعندما يتضرج وجهها من شدة الانفعال، يبدأون فى شرح مطالبهم. فأحدهم يسألها قطعة أرض ليزرعها، والآخر قليلا من الحطب، والثالث يرجوها أن تسمح له بالصيد فى غاباتها.. الخ. وتتطلع زوجة الجنرال إلى وجه الأب أريستارخ العريض السمح الذى هداها إلى الحقيقة، وتأخذ حقيقة أخرى فى تعذيب روحها.. حقيقة كريهة، ثقيلة..

ما أخبث الإنسان!

السعيد

من محطة «بولوجويه» فى خط سكك نيقولاى الحديدية يتحرك قطار ركاب. وفى إحدى عربات الدرجة الثانية «للمدخنين» يجلس حوالى خمسة ركاب ناعسين، ملتفين بغبش العربة. لقد أكلوا لتوهم، وها هم يحاولون النوم وقد أسندوا رؤوسهم على مساند الأرائك. ويخيم السكون.

ويفتح الباب، وتدلف إلى العربة قامة طويلة، على هيئة عصا، فى قبعة حمراء ومعطف أنيق، يشبه إلى حد كبير معاطف ممثلى الأوبريتات ومراسلى جول فيرن(١).

تتوقف القامة وسط العربة وهى تزحر، وتزر عينيها طويلا متفحصة الأرائك.

ـ لا، وهذه أيضا ليست هى! الشيطان يعلم ما هذا! شىء يغيظ! كلا، ليست هى!

ويحدق أحد الركاب فى القامة، وتند عنه صيحة فرح:

ـ إيفان أليكسييفتش! ما هذه الصدف؟ أهو أنت؟ ينتفض إيفان

(١) ربما يشير الكاتب إلى بطل رواية جول فيرن «الجزيرة المسحورة» هيدسون سبيلت، مراسل جريدة «نيويورك هيرالد». وقد صدرت أول ترجمة لها إلى الروسية فى بطرسبرج عام ١٨٧٥. **(المعرب)**.

أليكسييفتش العصوى، ويحدق فى الراكب ببلادة، وعندما يتعرف عليه يشيح بيديه فى مرح.

ويقول :

ـ ها! بيوتر بتروفتش! من زمان لم نرك! لم أكن أعرف أنك مسافر فى هذا القطار.

ـ كيف الصحة؟ والأحوال؟

ـ لا بأس، ولكنى يا أخى فقدت عربتى ولا أستطيع أن أجدها، يا لى من غبى! أستحق الجلد!

ويترنح إيفان أليكسييفتش العصوى ويهأهئ ثم يقول :

ـ يا لها من حوادث! خرجت من العربة بعد الجرس الثانى لأشرب كونياكا. وشربت طبعا. وقلت لنفسى : ما دامت المحطة التالية بعيدة فلأشرب كأسا أخرى. وبينما كنت أفكر وأشرب دق الجرس الثالث. . جريت كالمجنون وقفزت فى أول عربة صادفتنى. حسنا، ألست غبيا؟ ألست أحمق ابن أحمق؟

ويقول بيوتر بتروفتش :

ـ واضح أن مزاجك عال. تفضل بالجلوس. يحصل لنا الشرف!

ـ لا، لا. . سأبحث عن عربتى. إلى اللقاء!

ـ الدنيا عتمة، وقد تسقط، لا قدر الله، بين العربات. اجلس معنا، وعندما نصل إلى المحطة ستجد عربتك. اجلس!

ويتنهد إيفان أليكسييفتش ويجلس بتردد فى مقابل بيوتر بتروفتش. ويبدو أنه منفعل، ويتململ بقلق كأنه جالس على جمر.

ويسأله بيوتر بتروفتش :

ـ إلى أين تسافر؟

ـ أنا؟ إلى الفضاء. فى رأسى زحام كبير حتى إنى لا أعرف إلى أين أسافر. القدر يسير بى، حسنا فلأسافر، ها.. ها.. هل رأيت يا عزيزى حمقى سعداء؟ كلا؟ حسنا، انظر!.. أمامك أسعد الأحياء! نعم! ألا تلاحظ شيئا فى وجهى؟

ـ ألاحظ أنك.. يعنى.. مبسوط.. قليلا.

ـ لا بد أن وجهى الآن يبدو غبيا بفظاعة! آه، يا للأسف، لا توجد مرآة، لكى أتطلع إلى سحنتى! أشعر يا أخى أننى أتحول إلى أبله. أى والله! ها.. ها.. تصور أننى أقوم برحلة شهر العسل. حسنا، ألست أحمق ابن أحمق؟

ـ أنت؟ هل تزوجت حقا؟

ـ اليوم يا عزيزى! عقدت قرانى وركبت القطار فورا.

وبدأت التهانى والأسئلة المعتادة.

ويضحك بيوتر بتروفتش:

ـ يا سلام.. لهذا فأنت أنيق هكذا.

ـ نعم.. بل وتعطرت أيضا لتكتمل الصورة. غرقت إلى أذنى فى الأمور التافهة! لا هموم، لا أفكار، بل فقط إحساس بشىء يشبه.. الشيطان يعلم كيف أسميه.. ربما النعيم؟ لم أشعر فى حياتى بمثل هذه الروعة!

ويغمض إيفان أليكسييفتس عينيه ويهز رأسه.

ويقول:

ـ سعيد إلى درجة تغيظ! فلتحكم بنفسك، سأذهب الآن إلى عربتى.

وهناك، على الكنبة بجوار النافذة، يجلس مخلوق مخلص لك بكل جوارحه، كما يقال.. شقراء حلوة، بأنف صغيرة.. وأنامل.. آه يا حبوبتي! يا ملاكي! يا حملي الوديع! يا سلوى فؤادي! وساقها! يا إلهي! ساقها ليست مثل أرجلنا الضخمة، بل شيء منمنم، سحري.. مجازي! بودي لو أمسكت بهذه الساق وأكلتها! أوه، إنك لا تفقه شيئا! أنت رجل مادي، كل شيء تحلله وتفلسفه! أوه، أنتم عزاب جافون لا أكثر! عندما تتزوج ستتذكرني! ستقول: أين أنت الآن يا إيفان أليكسييفتش؟ نعم، سأذهب الآن إلى عربتي. هناك ينتظرونني على أحر من الجمر.. يتوقعون حضوري بلهفة. وتستقبلني ابتسامة. فأجلس وأمد إصبعين فأداعب بهما الذقن..

ويهز إيفان أليكسييفتش رأسه ويغيب في ضحك سعيد.

ـ ثم تضع رأسك على كتفها وتحيط خصرها بيدك. ومن حولك يسود الهدوء.. وعتمة شاعرية. تود لو تعانق الدنيا كلها في هذه اللحظة. بيوتر بتروفتش، اسمح لي أن أعانقك!

ـ تفضل.

يتعانق الصديقان وسط ضحكات الركاب، ويستطرد الزوج الجديد السعيد:

ـ وللمزيد من الحماقة، أو كما يقال في الروايات، لمزيد من الخيال، تذهب إلى البوفيه وتلقي في جوفك كأسين أو ثلاثا. وهنا يحدث في رأسك وصدرك ما لن تقرأ عنه حتى في الحكايات. أنا رجل صغير، ضئيل، ولكن يخيل لي أنني بلا حدود.. أحيط بالدنيا كلها!

ينظر المسافرون إلى الزوج الثمل السعيد فتنتقل إليهم عدوى مرحه، ويطير النوم من عيونهم. وبدلا من مستمع واحد سرعان ما يتجمع حول إيفان أليكسييفتش خمسة مستمعين. أما هو فيتململ كأنما جالس على

جمر، وينثر لعابه، ويشيح بيديه ويثرثر بلا انقطاع. ويقهقه، ويقهقه الجميع.

- المهم يا سادة أن نقلل من التفكير! إلى الشيطان بكل هذه التحليلات.. إذا شعرت برغبة فى الشراب اشرب، ولا داعى للتفلسف حول ما إذا كان هذا مفيدا أم ضارا.. إلى الشيطان بكل هذه التحليلات والسيكولوجيات!

ويمر الكمسارى فى العربة.

فيخاطبه الزوج الجديد:

- اسمع يا عزيزى.. عندما تمر بالعربة رقم ٢٠٩، ستجد هناك سيدة فى قبعة رمادية بطائر أبيض.. قل لها إننى هنا!

- حاضر. ولكن لا توجد فى هذا القطار عربة رقم ٢٠٩. توجد رقم ٢١٩!

- حسنا، فليكن ٢١٩! سيان! أبلغ هذه السيدة أن زوجها بخير وسلام!

وفجأة يقبض إيفان أليكسييفتش على رأسه ويتأوه:

- زوج.. سيدة.. منذ متى هذا؟ زوج.. ها.. ها.. أنت تستحق الجلد وليس الزواج! يا لى من أبله! وهى.. بالأمس كانت صبية.. بعوضة صغيرة.. شيء لا يصدق!

ويقول أحد الركاب:

- غريب فى زمننا هذا أن ترى شخصا سعيد.. الأسهل أن ترى الفيل الأبيض.

فيقول إيفان أليكسييفتش مادا ساقيه الطويلتين بحذائهما المدبب جدا:

- نعم، ولكن من المذنب؟ إذا لم تكونوا سعداء فالذنب ذنبكم! نعم،

وماذا كنتم تظنون؟ الإنسان هو خالق سعادته. وبوسعكم، لو أردتم، أن تصبحوا سعداء، ولكنكم لا تريدون. أنتم تهربون من السعادة بإصرار!

ـ أما غريبة! وكيف ذلك؟

ـ بسيطة! . . لقد سنّت الطبيعة للإنسان أن يحب فى فترة معينة من عمره. فإذا حانت هذه الفترة فلتحب بكل ما تملك. ولكنكم لا تطيعون الطبيعة، وتظلون فى انتظار شىء ما. وبعد ذلك . . نصّ القانون على أن الفرد الطبيعى ينبغى أن يتزوج . . فبدون الزواج لا توجد سعادة. فإذا جاء الوقت المناسب فلتتزوج، لا تماطل . . ولكنكم لا تتزوجون، وتظلون فى انتظار شىء ما! ثم إنه قد جاء فى الكتاب المقدس أن الخمر تدخل البهجة فى قلوب البشر . . فإذا كان مزاجك طيبا وتريده أن يكون أحسن، إذن فلتذهب إلى البوفيه ولتشرب. المهم ألا تتفلسف، بل سر على التقليد! التقليد شىء عظيم!

ـ أنت تقول إن الإنسان هو خالق سعادته. أى خالق هو، بحق الشيطان، إذا كان يكفى مجرد ألم فى سنّة أو حماة شريرة لكى تطير سعادته رأسا على عقب؟ كل شىء رهن بالصدفة. فلو انقلب القطار بنا الآن كما فى حادث كوكويفكا[1] لقلت كلاما آخر.

فيقول الزوج الجديد محتجا:

ـ هراء! الكوارث لا تحدث إلا مرة فى السنة. أنا لا أخشى أية حوادث، لأنه ليس هناك مبرر لحدوث هذه الحوادث. الحوادث نادرة! فلتذهب إلى الشيطان! أنا لا أريد حتى أن أتحدث عنها! يبدو أننا نقترب من محطة.

ويسأله بيوتر بتروفتش:

---

(١) حادث انقلاب قطار عند قرية كوكويفكا عام ١٨٨٢ راح ضحيته أكثر من ١٠٠ قتيل وجريح. **(المعرب)**.

ـ إلى أين أنت مسافر الآن؟ إلى موسكو أم ستواصل إلى الجنوب؟

ـ سلامتك! كيف أواصل إلى الجنوب إذا كنت مسافرا إلى الشمال؟

ـ ولكن موسكو ليست فى الشمال.

ويقول إيفان أليكسييفتش:

ـ أعرف هذا، ولكننا الآن مسافرون إلى بطرسبرج!

ـ عفوك، إننا مسافرون إلى موسكو!

فيذهل الزوج الجديد:

ـ كيف إلى موسكو؟

ـ غريبة.. إلى أين اشتريت التذكرة؟

ـ إلى بطرسبرج.

ـ إذن دعنى أهنئك. لقد ركبت قطارا آخر.

وتمر فترة صمت. وينهض الزوج الجديد ويحملق فى الجالسين ببلادة.

ويوضح له بيوتر بتروفتش الأمر:

ـ نعم، نعم. فى «بولوجويه» قفزت إلى قطار آخر.. إذن فقد ركبت، بعد الكونياك، القطار المضاد.

يمتقع وجه إيفان أليكسيفتش، ويقبض على رأسه بيديه ويذهب ويجىء فى العربة بسرعة.

ويقول ثائرا:

ـ آه، يا لى من حمار غبى! يا لى من وغد، فلتخطفنى الشياطين! ماذا سأفعل الآن؟ زوجتى فى القطار الآخر! هناك وحدها، تنتظر، تعانى! آه، يا لى من مهرج أحمق!

ويتهالك الزوج الجديد على الكنبة، وينكمش كأنما داس أحدهم على إصبع قدمه المريضة.

ويتأوه:

ـ يا لى من بائس! ماذا سأفعل الآن؟ ماذا؟ ويخفف الركاب عنه:

ـ لا بأس، لا بأس.. بسيطة.. أرسل لزوجتك برقية، أما أنت فحاول أن تستقل القطار السريع. وبذلك تلحق بها.

فيبكى الزوج الجديد، «خالق سعادته»:

ـ القطار السريع! ومن أين أحصل على النقود للقطار السريع؟ كل نقودى مع زوجتى!

ويتهامس الركاب الضاحكون، ويتشاركون فى جمع مبلغ من المال، ويعطونه للسعيد.

أنيوتا

فى أرخص غرفة من غرف البنسيون المفروش «لشبونة» أخذ ستيبان كلوتشكوف، الطالب بالصف الثالث بكلية الطب يروح ويجىء من ركن إلى ركن وهو يستظهر علومه الطبية. وبسبب الاستظهار المستمر الشاق جف ريق فمه وتفصد العرق على جبينه.

وبجوار النافذة التى غطى الجليد أطرافها بنقشه، وعلى مقعد بلا ظهر، جلست خليلته أنيوتا، وهى فتاة صغيرة الجسم، نحيلة، سوداء الشعر، فى حوالى الخامسة والعشرين، شاحبة جدا، ذات عينين رماديتين وديعتين. جلست محنية الظهر وهى تطرز ياقة قميص رجالى بخيوط حمراء. كان العمل مستعجلا.. ودقت ساعة الممر بصوت أبح معلنةً الثانية بعد الظهر، بينما لم ترتب الغرفة بعد. كانت البطانية المجعدة، والوسائد المبعثرة، والكتب، والحلة، والوعاء الكبير القذر المملوء بمياه الغسيل الصابونية، والتى كانت تعوم فيها أعقاب السجائر، والقاذورات على الأرض.. كان ذلك كله يبدو كأنه تجمع فى كوم واحد، وخُلط وجُعِّد عن عمد..

وقال كلوتشكوف وهو يستظهر بصوت عال:

ـ الرئة اليمنى تتكون من ثلاثة فصوص.. حدودها! الفص العلوى عند الجدار الأمامى للصدر يصل إلى الضلع الرابع والخامس، وعلى

السطح الجانبى حتى الضلع الرابع . . وعند الجدار الخلفى حتى[1] spina scapulae . .

ورفع كلوتشكوف عينيه نحو السقف وهو يحاول أن يتصور ما قرأه لتوه. وعندما لم يصل إلى تصور واضح أخذ يتحسس ضلوعه العليا من خلال الصديرى.

وقال:

ـ هذه الضلوع تشبه مفاتيح البيانو. ولكى لا يختلط علىّ الحساب لا بد أن أتعودها. سيكون علىّ أن أدرسها على الهيكل البشرى وعلى شخص حى . . تعالى يا أنيوتا، هيا أسترشد بك!

تركت أنيوتا التطريز، ونزعت بلوزتها، وانتصبت. وجلس كلوتشكوف قبالتها، وقطب حاجبيه، وأخذ يعد ضلوعها.

ـ هم . . الضلع الأول لا أستطيع أن أتحسسه . . إنه خلف الترقوه . . أما هذا فهو الضلع الثانى إذن . . حسنا . . وهذا الثالث . . وهذا الرابع . . هم . . حسنا . . مالك تنكمشين؟

ـ أصابعك باردة!

ـ طيب، طيب، لن تموتى، كُفى عن التململ. إذن فهذا هو الضلع الثالث، وهذا الرابع . . يبدو من منظرك أنك هزيلة، ومع ذلك لا أكاد أعثر على ضلوعك. هذا هو الضلع الثانى . . وهذا الثالث . . كلا، هكذا سيختلط علىّ الأمر ولن أتصور بوضوح . . ينبغى أن أرسمها . . أين قطعة الفحم؟

---

(١) حتى شوكة عظمة اللوح (باللاتينية) . **(المعرب)**.

تناول كلوتشكوف قطعة الفحم ورسم بها على صدر أنيوتا عدة خطوط متوازية تتفق والضلوع.

- رائع. كل شيء واضح تماما. حسنا، والآن أستطيع أيضا أن أدق بأصابعى. هيا انهضى!

نهضت أنيوتا ورفعت ذقنها. وانهمك كلوتشكوف فى الدق بأصابعه، واستغرق تماما فى هذا الأمر حتى إنه لم يلاحظ أن شفتى أنيوتا وأنفها وأصابعها أزرقت من البرد. وكانت أنيوتا ترتجف وهى تخشى أن يلحظ طالب الطب رجفتها فيكف عن الرسم بالفحم وعن الدق، ثم ربما يرسب فى الامتحان.

وقال كلوتشكوف بعد أن كف عن الدق:

- كل شيء واضح الآن. اجلسى هكذا ولا تمسحى الخطوط، أما أنا فسأستظهر قليلا.

وعاد طالب الطب يتمشى ويستظهر. وجلست أنيوتا منكمشة، بخطوط الفحم السوداء كالوشم على صدرها، وراحت تفكر. وعموما لم تكن تتحدث إلا قليلا، وكانت دائما تبقى صامتة، وتفكر، وتفكر..

طوال السنوات الست أو السبع من تقلبها فى البنسيونات المفروشة عرفت حوالى خمسة أشخاص من أمثال كلوتشكوف. وقد تخرجوا جميعا من الجامعات، وأصبحوا الآن ذوى مكانة، وكأناس محترمين فقد نسوها بالطبع منذ أمد بعيد. واحد منهم يعيش فى باريس، واثنان يعملان طبيبين، واالرابع مصور، أما الخامس فيقال حتى إنه أصبح أستاذا. وكلوتشكوف هو السادس.. وقريبا يتخرج هو أيضا، ويصبح ذا مكانة.

مستقبله بلا شك رائع، وسيصبح كلوتشكوف، على الأرجح، شخصية كبيرة، ولكن الحاضر سيء تماما: فليس لديه تبغ أو شاى، ولم يبق من السكر سوى أربع قطع. ينبغى أن تنتهى من التطريز بأسرع ما يمكن، وتسلمه لصاحبة الطلب مقابل خمسة وعشرين كوبيكا، ثم تشترى بها شايا وتبغا.

وتردد من وراء الباب:

ـ هل يمكن أن أدخل؟

وألقت أنيوتا بمنديل صوفى على كتفيها بسرعة. ودخل المصور فيتيسوف.

وقال مخاطبا كلوتشكوف وهو ينظر نظرة وحشية من تحت الشعر المتهدل على جبينه:

ـ لى عندك رجاء. اصنع معروفا، أعرنى فتاتك الرائعة لمدة ساعتين! إننى أرسم لوحة، ولا أستطيع أبدا بدون موديل!

فقال كلوتشكوف موافقا:

ـ أوه، بكل سرور! اذهبى يا أنيوتا.

فدمدمت أنيوتا بصوت خافت:

ـ وما الذى لم أره هناك!

ـ طيب، كفى! إنه يطلبك من أجل الفن، وليس من أجل تفاهات. فلماذا لا تساعدينه إذا كان فى وسعك؟

وأخذت أنيوتا ترتدى ثيابها.

وسأله كلوتشكوف:

ـ وماذا ترسم؟

ـ بسيشة[1] . موضوع جيد، ولكنى لا أوفق فى رسمه؛ مضطر إلى الرسم من موديلات مختلفة. بالأمس رسمت واحدة بسيقان زرقاء. سألتها لماذا ساقاك زرقاوان؟ فقالت: لأن الجورب يبهت. وأنت، مازلت تستظهر؟ يالك من سعيد، لديك صبر.

ـ الطب شيء لا يمكن أن تحصله بدون استظهار.

ـ هم. . لا مؤاخذة يا كلوتشكوف، ولكنك تعيش عيشة فظيعة، كالخنازير! الشيطان يعلم كيف تعيش!

ـ ماذا تقصد؟ لا يمكن أن أعيش بصورة أخرى. . أنا لا أتلقى من والدى إلا اثنى عشر روبلا فى الشهر، وبهذه النقود يستحيل أن تعيش عيشة لائقة.

فقال المصور وهو يمتعض باشمئزاز:

ـ هذا مفهوم. . ومع ذلك من الممكن أن تعيش أفضل. . الشخص الراقى ينبغى أن يكون محبا للجمال. أليس كذلك؟ أما هنا فالشيطان يعلم ماذا لديك! الفراش غير مرتب، وهذه الزبالة والقاذورات. . وعصيدة الأمس مازالت فى الطبق. . إخص!

فقال طالب الطب محرجا:

ـ هذا صحيح. ولكن أنيوتا لم تتمكن اليوم من تنظيف الغرفة. فهى مشغولة طوال الوقت.

وعندما خرج المصور وأنيوتا استلقى كلوتشكوف على الكنبة ومضى يستظهر وهو راقد، ثم غافله النعاس. وحينما استيقظ بعد ساعة وضع

(١) فى الأساطير اليونانية هى تجسيد للروح البشرية فى صورة فتاة فاتنة الجمال، بجناحى فراشة. (المعرب).

رأسه بين قبضتيه واستغرق فى التفكير عابسا. تذكر ما قاله المصور من أن الإنسان الراقى ينبغى أن يكون محبا للجمال، فبدا له جو الغرفة الآن بغيضا ومنفرا بالفعل. وكأنما رأى بعين العقل مستقبله حين يستقبل الزبائن المرضى فى غرفة المكتب، ويشرب الشاى فى غرفة الطعام الواسعة بصحبة زوجته، المرأة المحترمة . . فأصبح هذا الوعاء، بماء الغسيل القذر الذى تسبح فيه أعقاب السجائر كريه المنظر إلى حد لا يعقل. وبدت له أنيوتا أيضا قبيحة، مهملة الثياب، بائسة . . فقرر أن يفترق عنها على الفور، مهما كان الأمر.

وحينما عادت من عند المصور وخلعت معطفها، نهض وقال لها بجدية:

ـ اسمعى يا عزيزتى . . اجلسى وأصغى إلىّ. ينبغى أن نفترق! باختصار أنا لا أريد أن أعيش معك بعد الآن.

عادت أنيوتا من عند المصور متعبة منهكة. ومن طول الوقوف كموديل ضمر وجهها وهزل فأصبح ذقنها أكثر حدة. ولم تقل شيئا ردا على كلمات طالب الطب، بل فقط ارتعشت شفتاها.

وقال طالب الطب:

ـ على أية حال كنا سنفترق عاجلا أم آجلا. أنت فتاة جيدة، طيبة. أنت لست غبية فسوف تفهمين . . ارتدت أنيوتا المعطف ثانية، ولفت تطريزها بورقة فى صمت، وجمعت الخيوط والإبر. ووجدت اللفة ذات قطع السكر الأربع على النافذة، فوضعتها على الطاولة بجوار الكتب.

ـ هذا . . سكرك . . ـ قالت بصوت خافت واستدارت لتخفى دموعها.

وسألها كلوتشكوف:

ـ طيب، ولماذا تبكين؟

وتمشى فى الغرفة محرجا ثم قال :

ـ حقا أنت غريبة . . إنك تدركين أننا لا بد أن نفترق . لا يمكن أن نبقى معا إلى الأبد .

كانت قد جمعت كل صررها الصغيرة ، واستدارت نحوه لكى تودعه ، فشعر بالشفقة عليها .

وقال فى نفسه : «ربما أدعها تبقى أسبوعا آخر هنا؟ نعم ، بالفعل فلتبق قليلا ، وبعد أسبوع آمرها أن تذهب» .

وصاح بها بصرامة ، محنقا من ضعف إرادته :

ـ ما لك واقفة ! إذا كنت ستذهبى فلتذهبى ، وإذا لم تشائى فلتخلعى المعطف ولتبقى ! ابقى !

خلعت أنيوتا المعطف فى صمت وسكون ، ثم تمخطت أيضا بسكون ، وتنهدت ، واتجهت دون صوت إلى موقعها الدائم : إلى المقعد بجوار النافذة .

وشد الطالب كتابه إليه وأخذ يسير من جديد من ركن إلى ركن . وأخذ يستظهر :

ـ الرئة اليمنى تتكون من ثلاثة فصوص . الفص العلوى عند الجدار الأمامى للصدر يصل إلى الضلع الرابع والخامس . .

وصاح أحدهم فى الطرقة بأعلى صوته :

ـ يا جريجورى ، هات شايا !

كلخاس

استيقظ الممثل الكوميدى فاسيلى فاسيليفتش سفيتلوفيدوف، وهو عجوز ممتلئ الجسم، قوى البدن، فى الثامنة والخمسين من عمره، وتطلع حوله بدهشة. فعلى جانبى مرآة صغيرة أمامه كانت تشتعل بقايا شمعتين. وأضاء اللهب الثابت الكسول بوهن غرفة صغيرة بجدران خشبية مطلية معبأة بدخان السجائر وعتمة الغبش. وظهرت فى كل ما يحيط به آثار اللقاء القريب بين ديونيس وملبومينا[1]، ذلك اللقاء الذى تم سرا، ولكنه كان عاصفا وقبيحا كالرذيلة. فعلى الأرض وفوق الكراسى تناثرت سترة وسروال، وأوراق صحف ومعطف ذو بطانة زاهية وقبعة أسطوانية. وعمت الفوضى والاضطراب المائدة: فقد ازدحمت هنا واختلطت الزجاجات الفارغة والأكواب، وثلاثة أكاليل، وعلبة سجائر مذهبة، وحامل كوب، وورقة يانصيب رابحة من سحب القرض الثانى مبللة الحافة، وعلبة بدبوس ذهبى. وكان هذا الخليط المتنافر مغطى بسخاء بأعقاب السجائر ورمادها، وبقطع صغيرة من رسالة ممزقة. أما سفيتلوفيدوف نفسه فكان جالسا فى كرسى فوتيل وفى حلة كلخاس[2].

وقال الممثل الكوميدى وهو يتطلع حوله:

---

(١) ديونيس ـ إله الخمر والمرح، وملبومينا ـ ربة التراجيديا فى الأساطير الإغريقية. **(المعرب)**.

(٢) الكاهن كلخاس ـ إحدى شخصيات أوبريت «هيلينا الرائعة» لأوفينباخ. . مقامر، عربيد يعشق الذهب. **(المعرب)**.

ـ يا ربى، إننى فى غرفة الملابس! أما حكاية! متى نعست يا ترى؟

وأصاخ السمع. كان الصمت مطبقا كصمت القبور. وذكرته علبة السجائر وورقة اليانصيب الرابحة على الفور بأن اليوم كان يوم حفلته «البنيفيس»[1]، وأنه حظى بنجاح كبير، وأنه شرب الكثير من الكونياك والنبيذ الأحمر فى فترات الاستراحة مع محبيه الذين كانوا يقتحمون عليه غرفة الملابس.

وكرر تساؤله:

ـ متى نعست يا ترى؟ آه، يا لى من عجوز مخرف! ماذا أيها الكلب العجوز! ألهذه الدرجة تسكر حتى تنام جالسا فى المقعد! شاطر!

وأحس الممثل الكوميدى بالمرح. انفجر فى ضحك ثمل يتخلله السعال، وتناول إحدى الشمعتين، وخرج من غرفة الملابس. كانت خشبة المسرح خاوية ومظلمة. ومن عمق الخشبة وجانبيها، ومن الصالة هب نسيم خفيف ولكنه محسوس. كانت تيارات الهواء تجول كالأرواح فوق الخشبة وهى تتصادم وتدوّم وتداعب لهيب الشمعة. وتراقص اللهيب وتلوى فى جميع الاتجاهات ملقيا ضوءاً ضعيفا تارة على صف الأبواب المفضية إلى غرف الملابس، وتارة على الكواليس الحمراء حيث كان ثمة دلو، وتارة على إطار كبير ملقى وسط الخشبة.

وصاح الممثل:

ـ يجوركا، يجوركا، أيها الشيطان، بتروشكا! نام الشياطين عليهم اللعنة! يجوركا!

ورد الصدى:

---

(١) حفلة يخصص إيرادها (أو جزء منه) لصالح الممثل. **(المعرب)**.

ـ آ . . آ . . آ . .

وتذكر الممثل أنه قد منح كلا من يجوركا وبتروشكا ثلاثة روبلات ليشربا فودكا بمناسبة «البنيفيس» . ومن غير المحتمل، بعد هذه المنحة السخية، أن يمكثا في المسرح للمبيت .

تأوه الممثل وجلس على كرسي بلا مسند، ووضع الشمعة على الأرض . كان رأسه ثقيلا ثملا، وقد بدأت الكمية الهائلة التي شربها من البيرة والنبيذ والكونياك «تحترق» لتوها في جسده كله، وأحس بالضعف والخوار بسبب نومه جالسا .

ودمدم وهو يبصق :

ـ سرية خيالة باتت في فمي . . آه، يالي من عجوز أحمق! ما كان يجب أن أشرب! ما كان يجب! ظهري يؤلمني، ورأسي يكاد ينفجر، وجسدي كله يرتجف . . إنها الشيخوخة .

ونظر أمامه . . كانت تلوح بالكاد كوشة الملقن والمقصورات الخاصة وحاملات النوت الموسيقية، أما الصالة كلها فكانت تبدو كحفرة سوداء بلا قرار، كشدق مفغور تطل منه ظلمة باردة صارمة . . كانت الصالة عادة متواضعة مريحة، إلا أنها بدت الآن، ليلا، عميقة بلا حدود، مقفرة كالقبر، قاسية . . وحدق الممثل في الظلام ثم في الشمعة ومضى يقول بتذمر :

ـ نعم، الشيخوخة . . مهما لففت ودرت، وتصنعت الشجاعة، ومهما تغابيت، فقد بلغت الثامنه والخمسين . . خلاص! قل على الحياة السلام! نعم يا فاسنكا[1] . . لقد خدمت على الخشبة ٣٥ سنة، ولكني فيما يبدو أرى المسرح ليلا لأول مرة . . يالها من مفارقة، أي والله . . نعم،

(١) تدليل من الاسم الكامل فاسيلي . **(المعرب)** .

لأول مرة! شيء مرعب، يا للشيطان! . . ـ وصاح وهو ينهض ـ يجوركا!

ورد الصدى:

ـ آ. . آ. . آ. .

ودوت مع الصدى في وقت واحد أجراس صلاة الصبح فى مكان بعيد، وكأنما انبعثت من أعماق الشدق المفغور. ورسم كلخاس علامة الصليب. ثم صاح:

ـ بتروشكا! أين أنتم أيها الشياطين؟ يا إلهى لماذا أذكر اسم الشيطان؟ دع عنك هذه الكلمات، كفّ عن الشراب فقد هرمت، آن أن تموت! فى الثامنة والخمسين يذهب الناس لصلاة الصبح، يستعدون لملاقاة الموت. . وأنت. . أوه يا إلهى!

ودمدم:

ـ الرحمة يارب، هذا مرعب! لو قضيت الليلة هنا بهذه الصورة فقد أموت من الخوف. هذا هو المكان الحقيقى لتحضير الأرواح!

وازداد رعبا عند ذكر كلمة «الأرواح« . . أثارت التيارات المتجولة وذبذبة البقع الضوئية خيالة وألهبته إلى أقصى درجة. . فانكمش وضمر، وانحنى ليلتقط الشمعة، وللمرة الأخيرة تطلع خلسة وبخوف طفولى إلى الحفرة المظلمة. كان وجهه الذى شوهه المكياج متبلدا خاليا من أى معنى تقريبا. وقبل أن تصل يده إلى الشمعة قفز واقفا وحملق فى الظلام بنظرة جامدة. وقف صامتا حوالى نصف دقيقة، ثم أمسك برأسه وخبط بقدميه وقد تملكه فزع غير عادي. .

وصرخ الممثل بصوت حاد غير طبيعى:

ـ من أنت؟ من أنت؟

فى إحدى المقصورات الخاصة وقف شبح بشرى أبيض. وعندما كان

الضوء يسقط ناحيته يصبح من الممكن أن تميز فيه يدين ورأسا بل ولحية بيضاء.

وكرر الممثل بصوت يائس:

ـ من أنت؟

رفع الشبح الأبيض ساقه وعبر حاجز المقصورة وقفز إلى موضع الأوركسترا، ثم سار نحو خشبة المسرح بلا صوت كالظل.

وتمتم وهو يصعد إلى الخشبة:

ـ إنه أنا!

فصرخ كلخاس وهو يتراجع:

ـ من؟

ـ أنا.. أنا.. نكيتا إيفانيتش.. الملقن. عفوا، لا داعى للقلق.

تهالك الممثل على المقعد خائر القوى وطأطأ رأسه. كان يرتجف وقد أفقده الرعب صوابه.

اقترب منه رجل طويل، معروق، أصلع، بلحية شيباء، حافى القدمين وفى الملابس الداخلية فقط، وقال:

ـ إنه أنا! إنه أنا! الملقن.

فنطق الممثل وهو يمسح براحته على جبينه ويتنفس بصعوبة:

ـ يا إلهى.. أهو أنت يا نيكيتوشكا؟ [1].. لماذا.. لماذا أنت هنا؟

ـ أنا هنا أبيت فى المقصورة الخاصة.. ليس عندى مكان آخر للمبيت.. لكن أرجوك ألا تقول لأليكسى فوميتش.

---

(١) تدليل من الاسم الكامل نيكيتا. **(المعرب)**.

ـ ها أنت ذا يا نيكيتوشكا . . ـ دمدم الممثل الخائر مادًا يده المرتعشة نحوه ـ يا إلهى، يا إلهى! . . طلبونى للظهور ست عشرة مرة، وحملوا لى ثلاثة أكاليل وهدايا كثيرة . . كانوا جميعا معجبين، ولكن لم يوقظ أحد العجوز السكران ولم يحمله إلى البيت. أنا عجوز يا نيكيتوشكا.

عمرى ٥٨ سنة. مريض! روحى الضعيفة تتعذب.

وهمّ الممثل نحو الملقن وأطبق على يده وبدنه كله يرتعش.

ودمدم وكأنما يهذى:

ـ لا تتركنى يا نيكيتوشكا . . أنا عجوز، ضعيف . . على وشك الموت . . أنا خائف!

فقال نيكيتوشكا برقة:

ـ آن لك أن تذهب إلى البيت يا فاسيلى فاسيليتش!

ـ لن أذهب. لا بيت لى. كلا، كلا!

ـ رحماك يارب! لقد نسيت أين تسكن؟

ـ لا أريد أن أذهب إلى هناك، لا أريد . . ـ دمدم الممثل فى لوعة ـ هناك أنا وحيد . . ليس عندى أحد يا نيكيتوشكا، لا أهل، ولا زوجة، ولا أولاد . . وحيد كالريح فى الخلاء . . لو مت فلن يذكرنى أحد.

انتقلت عدوى الرعشة من الممثل إلى نيكيتوشكا . . كان العجوز الثمل المنفعل يهز يد الملقن وهو يعصرها بعصبية ويلوثها بخليط المكياج والدموع. وانكمش نيكيتوشكا من البرد وطوى كتفيه.

ودمدم كلخاس:

ـ أنا خائف من وحدتى . . ليس هناك من يلاطفنى أو يعزينى، أو يضعنى، أنا الثمل، فى الفراش. لمن أنا؟ من بحاجة إلىّ؟ من يحبنى؟ لا أحد يحبنى يا نيكيتو شكا!

ـ الجمهور يحبك يافاسيلى فاسيليتش.

ـ الجمهور انصرف، وهو الآن نائم. . كلا، لا أحد بحاجة إلىّ، لا أحد يحبنى. . لا زوجة لى ولا أطفال.

ـ ياسلام، وجدت ما تأسف عليه.

ـ ولكنى إنسان، حىّ. . أنا نبيل يا نيكيتوشكا، من أصل كريم. . قبل أن أسقط فى هذه الحفرة كنت فى الخدمة العسكرية، فى سلاح المدفعية. كنت فتى وأى فتى، كنت جميلا، مندفعا، جريئا. . وأىّ ممثل كنت، يا إلهى، يا إلهى! أين ذهب ذلك كله، أين ذلك العهد؟

نهض الممثل معتمدا على يد الملقن، وطرفت عيناه بشدة كأنه خرج من الظلام إلى غرفة ساطعة النور. وسالت على خديه دموع غزيرة مخلفة خطوطا من أصباغ الماكياج. .

واستطرد يهذى:

ـ يا له من عهد! نظرت لتوى إلى هذه الحفرة فتذكرت كل شىء. . كل شىء! هذه الحفرة ابتلعت ٣٥ سنة من عمرى يا نيكيتوشكا! أنظر إليها الآن فأرى كل شىء بأدق تفاصيله كما أرى وجهك!. . أذكر عندما كنت ممثلا شابا، وبدأت تتملكنى وقدة الحماس، أحبتنى إحداهن لأدائى. . كانت جميلة، رشيقة كشجرة حور، فتية، بريئة، ذكية، حارة كفجر صيفى! كنت على يقين من أنه لو اختفت الشمس من السماء فستبقى الأرض رغم ذلك منيرة، لأنه ما كان بوسع أى ظلام أن يصمد أمامها!

كان كلخاس يتحدث بحرارة وهو يهز رأسه ويده. . وأمامه وقف نيكيتوشكا يصغى إليه حافيا وفى ملابسه الداخلية فقط. ولفهما كليهما الظلام الذى لم يكن ضوء الشمعة الواهن قادرا على تبديده. كان ذلك

مشهدا غريبا، غير عادى، لم ير مثله أى مسرح فى العالم، ولم يكن هناك من مشاهدين سوى الحفرة السوداء الصماء. .

ومضى كلخاس يقول مختنقا:

ـ لقد أحبتنى، ثم ماذا؟ أذكر وقفتى أمامها كما أقف أمامك الآن. . كانت رائعة فى تلك المرة كما لم تكن أبدا من قبل، وكانت تنظر إلىّ بعينين لن أنساهما حتى الممات! الرقة، المخمل، بريق الشباب، العمق! كنت ثملا بالنشوة، سعيداً، فجثوت أمامها على ركبتى سائلا السعادة. .

التقط الممثل أنفاسه وقال بصوت خائر:

ـ قالت لى: اترك المسرح! هل تفهم؟ كانت تستطيع أن تحب ممثلا، أما أن تصبح زوجته فلا، مستحيل! أذكر أننى فى ذلك اليوم كنت أمثل الـ . . كان دورا حقيرا، دور مهرج. وكنت أمثل بينما أحشائى تتمزق أسى وقلقا. . لم أهجر المسرح، كلا، ولكن الحقيقة تكشفت لى آنذاك! . . أدركت أنى عبد، لعبة فى أيدى أناس فارغى البال، وإنه ليس هناك فن مقدس، بل كل ذلك هذيان وخداع. فهمت ما هو الجمهور! ومنذ ذلك الوقت لم أعد أصدق التصفيق أو الأكاليل أو الإعجاب! نعم يا أخى! المتفرج يصفق لى، ويشترى صورتى بروبل، ومع ذلك فأنا غريب بالنسبة له، أنا عنده قذارة، غانية تقريبا! وهو يريد التعرف بى إرضاء لغروره، ولكنه لن يهين نفسه بتزويجى أخته أو ابنته! أنا لا أصدقه، أمقته، إنه غريب بالنسبة لى!

فقال الملقن بوجل:

ـ آن لك أن تعود إلى البيت.

فصاح كلخاس مهددا الحفرة السوداء بقبضته:

ـ أفهمهم تمام الفهم! . . من يومها فهمت. . سقطت الغشاوة عن

عينى شابا فرأيت الحقيقة . . ودفعت ثمن هذه الصحوة غاليا يا نيكيتوشكا . . بعد تلك الواقعة، بعد تلك الفتاة، أصبحت أهيم بلا معنى، أعيش دون جدوى، ولا أنظر للمستقبل . . لعبت أدوار المهرجين، وسخرت، وأفسدت العقول . . ابتذلت لسانى وشوهته، أضعت نفسى وكرامتى . . إيه، إيه! التهمتنى هذه الحفرة. لم أشعر بذلك قبلا، أما اليوم . . عندما استيقظت، نظرت إلى الوراء، فإذا ورائى ٥٨ سنة! الآن فقط أحسست بالشيخوخة! ضاع العمر!

وظل كلخاس يرتعش ويختنق . . وبعد ذلك بفترة، عندما قاده نيكيتوشكا إلى غرفة الملابس وأخذ ينزع عنه ملابسه، تداعى كلخاس وخار، لكنه لم يكف عن الدمدمة والبكاء.

البربوط[1]

صباح صيفى. والجو ساكن، إلا من أزيز جندب على الشاطئ، وفى مكان ما يزقزق عصفور صغير بوجل. وفى السماء تقف سحب زغبية جامدة، تشبه ندف الثلج المبعثر . . وبجوار حمام يجرى بناؤه، وتحت أغصان الصفصاف الخضراء يتخبط فى الماء النجار جيراسيم، وهو فلاح طويل نحيف، بشعر أحمر مجعد، ووجه مغطى بالشعر. ويزحر ويزفر، ويغمز بعينيه بشدة، وهو يحاول أن يستخرج شيئا ما من تحت جذور الصفصاف. ووجهه مغطى بالعرق. وعلى بعد ذراع من جيراسيم يقف غائصا فى الماء حتى زوره النجار لوبيم، وهو فلاح شاب أحدب، بوجه مثلث وعينين ضيقتين صينيتين. وكل من جيراسيم ولوبيم يقفان بالقمصان والسراويل. وكلاهما ازرقَّ جلده من البرد لأنهما يقفان فى الماء منذ أكثر من ساعة . .

ويصيح لوبيم الأحدب وهو يرتعش كالمحموم:

ـ ما لك تتحسس بيدك كالأعمى؟ شغل مخك!

أمسكه، أمسكه وإلا أفلت هذا الملعون، أمسكه قلت لك!

فيقول جيراسيم بصوت أبح مكتوم صادر لا من حلقه بل من أعماق بطنه:

---

(١) البربوط: سمك نهرى من فصيلة القد. (المعرب).

ـ لن يفلت. . إلى أين يذهب؟ انحشر تحت الجذر. . يا له من أملس، هذا الشيطان، لا تعرف من أين تمسكه.

ـ أمسكه من خشمه، من خشمه!

ـ خياشيمه لا تظهر. . مهلا. . أمسكته من موضع. . من شفته أمسكته. . إنه يعض، هذا الشيطان!

ـ لا تشده من شفته، لا تشده وإلا أفلت! أمسكه من خشمه، من خشمه أمسكه! عدت تتحسس بيدك كالأعمى! أما فلاح غبى، رحمتك يا رب! أمسكه! فيقلده جيراسيم مشاكسا:

ـ «أمسكه». . حضرته عامل ريِّس. . تعال أمسكه أنت، أيها الشيطان الأحدب. . ما لك واقفًا؟

ـ لو كنت أقدر لأمسكته. . وهل أستطيع بجسمى هذا أن أنزل تحت الشاطئ؟ المياه عميقة هناك!

ـ لا يهم أنها عميقة. . اسبح. .

ويضرب الأحدب بذراعيه ويسبح حتى يبلغ جيراسيم، ويتشبث بالأغصان. وما إن يحاول الوقوف على قدميه حتى يغوص فى الماء ويبقبق.

ويقول وحدقتا عينيه تدوران بغضب:

ـ ألم أقل لك عميقة! أجلس على رقبتك يعنى؟

ـ ضع قدميك على جذر. . الجذور هنا كثيرة ـ كدرجات السلم. .

ويتحسس الأحدب بكعبه حتى يعثر على جذر، فيقف عليه بعد أن يتشبث بعدة غصون معا. . ويحفظ توازنه، وبعد أن يتمركز فى الموقع الجديد ينحنى محاولا ألا يدخل الماء فمه، ويروح يفتش بيده اليمنى بين

الجذور. وتشتبك يده بالأعشاب المائية، وتنزلق على الطحلب الذى يغطى الجذور، ثم تصطدم بمخالب سرطان حادة..

ـ لم يكن ينقصنا سواك أيها الشيطان! ـ يقول لوبيم ويلقى السرطان بغضب إلى الشاطئ.

وأخيرا تعثر يده على يد جيراسيم، فتهبط معها حتى تصل إلى شىء أملس بارد.

ويبتسم لوبيم قائلا:

ـ ها هوذا! كبير هذا الشيطان.. افتح أصابعك سوف أمسكه.. من خشمه.. حاسب، لا تدفع بكوعك.. حالا.. سأمسكه.. انتظر حتى أقبض عليه.. لقد انحشر هذا الشيطان تحت الجذر بعيدا.. لا أصل إلى رأسه.. ليس هناك إلا بطن.. اقتل البعوضة على رقبتى.. آه تلسعنى! سأمسكه.. حالا.. من خشمه.. تعال من الجنب، ادفعه، ادفعه! انغزه بأصبعك!

نفخ الأحدب شدقيه، وكتم أنفاسه، وحملقت عيناه، وبدا كأنه يوشك على دس أصابعه «تحت خشمه»، إلا أن الأغصان التى كان متشبثا بها بيده اليسرى تتكسر فجأة، فيفقد توازنه و.. يهوى فى الماء! وتنطلق دوائر متموجة، مبتعدة عن الشاطئ وكأنها مذعورة، وتتصاعد من موضع السقوط الفقاقيع. ويطفو الأحدب وهو يزفر ويتشبث بالأغصان.

ويدمدم جيراسيم بصوته الأبح:

ـ المصيبة أن تغرق وأصبح أنا المسئول!.. اخرج إلى الشيطان من هنا! أنا سأسحبه!

وينشب السباب.. والشمس تحمى وتحمى، وتصبح الظلال أقصر وتنكمش على نفسها كقرون القوقعة.. وتتصاعد من الأعشاب الطويلة

التى سخنتها الشمس رائحة عسلية قوية. وعما قريب ينتصف النهار بينما لا يزال جيراسيم ولوبيم يتخبطان فى الماء تحت الصفصاف. ولا يكف الصوت «الباص» الأبح، و«التينور» الرفيع المقرور عن تعكير سكون النهار الصيفى.

- اسحبه من خشمه، اسحبه! انتظر سأدفعه! أين تدس كل هذه القبضة؟ بإصبعك لا بقبضتك يا بهيم! تعال من الجنب! من الشمال ادخل، من الشمال، فى اليمين حفرة، حاسب وإلا تعشى بك عفريت الماء! اسحبه من شفته!

وتسمع فرقعة سوط.. وعلى الشاطئ المنبسط يسير قطيع نحو المورد فى كسل، يسوقه الراعى يفيم. يسير الراعى، هذا العجوز المتهالك ذو العين الواحدة والفم الملتوى، مطأطئ الرأس ينظر تحت أقدامه. وتصل إلى النهر الشياه أولا، ثم تتبعها الخيول، ومن خلفها البقر.

ويسمع الراعى صوت لوبيم:

- ادفعه من تحت! مرر إصبعك! هل أنت أطرش؟ إخص! - فيصيح يفيم:

- ماذا تطاردون يا إخوان؟

بربوطا! لا نستطيع إخراجه. انحشر تحت الجذر!

ادخل من الجنب! ادخل، ادخل!

ويزر يفيم عينه الواحدة محدقا فى الصيادين لحظة، ثم يخلع حذاءه «اللابتى»[1]، ويلقى بالكيس عن كتفه، وينزع قميصه. ولا يستطيع أن يصبر حتى يخلع سرواله فينزل به إلى الماء وهو يرسم علامة الصليب

---

(١) حذاء كان يضع من لحاء الأشجار وينتعله فقراء الفلاحين فيما مضى فى روسيا. **(المعرب)**.

ويحافظ على توازنه بيديه النحيلتين السمراوين . . ويسير حوالى خمسين خطوة على القاع الطينى، ثم يمضى سابحا.

ويصيح :

ـ انتظروا يافتيان! انتظروا! لا تتعجلوا بإخراجه وإلا أفلت . . لا بد من المهارة!

وينضم يفيم إلى النجارين، وأخذ ثلاثتهم يتزاحمون فى مكان واحد وهم يدفعون بعضهم بعضا بالمرافق والركب ويزحرون ويسبون . . ويشرق لوبيم الأحدب بالماء فيجلجل فى الجو سعال حاد متقلص.

ويسمع صياح من الشاطئ:

ـ أين الراعى؟ يفيم! يا راع! أين أنت؟ القطيع دخل البستان! اطرده، اطرده من البستان! اطرده! أينً هذا الشقى العجوز؟

وتسمع أصوات رجال، ثم صوت امرأة . . ويخرج من وراء سياج بستان السادة الإقطاعى أندريه أندريتش مرتديا روبا من الحرير الفارسى وممسكا بجريدة فى يده . . وينظر مستفهما نحو الأصوات الآتية من النهر، ثم يسرع الخطى نحو الحمام . .

ـ ماذا هنا؟ من يصيح؟ ـ يسأل بصرامة وهو يرى من خلال أغصان الصفصاف رؤوس الصيادين الثلاثة المبللة ـ عمَّ تبحثون هنا؟

ويتمتم يفيم دون أن يرفع رأسه :

ـ سمـ . . كة . . نصطاد . .

ـ سأريك كيف تصطاد! القطيع دخل البستان وهو يصطاد السمك! متى تنتهون من بناء الحمام أيها الشيطاين؟ منذ يومين تعملان، فأين النتيجة؟

فيزحر جيراسيم :

ـ سيكو . . ن جاهزا . . الصيف طويل، ستتمكن من الاستحمام يا صاحب السعادة . . بررر، لا نستطيع إخراج البربوط من هنا . . دخل تحت الجذر وكأنما فى جحر، لا وراء ولا قدام . .

ـ بربوط؟ ـ يسأل السيد وعيناه تبرقان ـ إذن هيا أخرجوه بسرعة!

ـ فلتعطنا نصف روبل . . ونتركه لك . . بربرط كبير . . سمين كزوجة التاجر . . يساوى نصف روبل يا صاحب السعادة . . جزاء على تعبنا . . لا تعصره يا لوبيم لا تعصره وإلا هلك! ارفعه من تحت! ارفع الجذر إلى أعلى يا رجل أنت . . ما اسمك؟ إلى أعلى لا إلى أسفل أيها الشيطان! لا تخبطا بأرجلكما!

وتمضى خمس دقائق، ثم عشر . . ولا يستطيع السيد أن يصبر أكثر، فيصيح ملتفتا نحو الدار:

ـ يا فاسيلى! يا فاسكا! نادوا فاسيلى .

ويأتى الحوذى فاسيلى ركضا . يمضغ شيئا ما ويتنفس بصعوبة .

فيأمره السيد:

ـ انزل إلى الماء . . ساعدهم فى إخراج البربوط . . لا يستطيعون إخراج بربوط!

وينزع فاسيلى ملابسه بسرعة وينزل إلى الماء .

ويتمتم:

ـ حالا، حالا . . أين البربوط؟ حالا . . فى لمح البصر! أذهب أنت يا يفيم! لا مكان لعجوز مثلك هنا، لا تتدخل فى أمر لا يخصك! أين هنا البربوط؟ أنا حالا . . ها هو ذا! ارفعو أيديكم!

ـ شاطر صحيح . . بدونك نعرف . . ارفعوا أيديكم قال . . طيب هيا أخرجه!

ـ وهل يمكن إخراجه هكذا؟ لا بد من شده من رأسه!

ـ ورأسه تحت الجذر! يا لك من غبى!

ـ كفى نباحا وإلا أريتك! يا وغد!

فيتمتم يفيم:

ـ فى حضرة السيد تسب بهذه الكلمات. . لن تخرجوه يا جماعة! انحشر هناك بمهارة!

ـ انتظروا، أنا قادم. . ـ يقول السيد ويبدأ فى نزع ملابسه على عجل. ـ أربعة حمقى ولا يستطيعون إخراج بربوط!

وبعد أن ينزع أندريه أندريتش ملابسه، يقف قليلا ليبرد جسمه، ثم ينزل إلى الماء. ولكن تدخله لا يفيد بشىء.

وأخيرا يقول لوبيم:

ـ لا بد من قطع الجذر! اذهب يا جيراسيم وأحضر الفأس! هاتوا الفأس!

ويقول السيد عندما تتردد تحت الماء ضربات الفأس على الجذر:

ـ لا تقطع أصابعك! امش يا يفيم من هنا! انتظروا، أنا الذى سأخرج البربوط!. . أنتم لستم. .

وها هو ذا الجذر قد اجتث إلى نصفه. ويكسرونه قليلا، ويشعر أندريه أندريتش، بسرور بالغ أن أصابعه تدخل فى خياشيم البربوط.

ـ إننى أشده يا جماعة! لا تتزاحموا. . قفوا. . أنا أسحبه!

ويظهر فوق صفحة الماء رأس بربوط كبير، ثم جسمه الأسود بطول ذراع. ويحرك البربوط ذيله بصعوبة محاولا أن يتملص.

ـ دعك من هذا يا أخى . . لا يمكن أن تفلت! وقعت؟ هكذا!

وترتسم على الوجوه كلها ابتسامة عسلية . وتمر دقيقة فى تأمل صامت .

ويتمتم يفيم وهو يحك صدره :

ـ بربوط عظيم! حوالى عشرة أرطال . .

فيقول السيد موافقا :

ـ نعم . . انظر إلى كبده كم هى ممتلئة . . تكاد تقفز من داخله . . آه!

وفجأة يأتى البربوط بحركة حادة مباغتة بذيله إلى أعلى ، ويسمع الصيادون صوت ارتطام شديد بالماء . . ويمد الجميع أيديهم ، ولكن بعد فوات الأوان . . إذ لم يعد للبربوط أثر .

الصياد

قيلولة قائظة خانقة. ولا سحابة فى السماء. . والعشب الذى أحرقته الشمس يبدو كئيبا بائسا: فحتى لو سقط المطر فلن تعود إليه الخضرة. . والغابة تقف بأشجارها صامتة، جامدة، وكأنما تحدق ذؤاباتها فى نقطة ما، أو تنتظر حدوث شىء.

وعلى حافة الغابة يسير رجل طويل القامة، ضيق المنكبين، فى حوالى الأربعين من عمره، فى قميص أحمر وبنطال مرقع من بناطيل سيده، وحذاء طويل كبير. يسير على الطريق فى كسل وبخطوة متراخية. وعن يمينه تلوح الغابة الخضراء، وعن يساره وحتى الأفق يمتد بحر ذهبى من الحنطة الناضجة. . والرجل أحمر الوجه، عرقان. وعلى قفاه الأشقر الجميل تستقر عمرة بيضاء بمقدمة مستطيلة كمقدمات عمرات الجوكية، والظاهر أنها هدية من أحد السادة أهداها له فى لحظة كرم حاتمى. ومن كتفه يتدلى كيس صيد يرقد فيه محشورا ديك برى. ويمسك الرجل فى يديه ببندقية بماسورتين مرفوعة الزناد، ويزر عينيه محدقا فى كلبه العجوز الهزيل الذى يركض أمامه ويتشمم الأحراش. والسكون من حوله مطبق، لا يعكره صوت. . لقد اختبأ من الحر كل ما هو حىّ.

وفجأة يسمع الصياد صوتا خافتا:

ـ يجور فلاسيتش!

فينتفض، ويلتفت خلفه، ثم يقطب حاجبيه. وبجواره، وكأنما انشقت

عنها الأرض، تقف امرأة شاحبة الوجه، فى حوالى الثلاثين، ممسكة بمنجل فى يدها. وتحاول أن تحدق فى وجهه، وتبتسم بخجل.

فيقول الصياد متوقفا وهو ينزل الزناد ببطء:

ـ آه، أهو أنت يا بيلاجيا! هم!.. كيف جئت إلى هنا؟

ـ هنا تعمل نساء من قريتنا، وأنا معهن.. عاملات يا يجور فلاسيتش.

ـ طيب.. ـ يهمهم يجور فلاسيتش، ثم يواصل سيره ببطء.

وتتبعه بيلاجيا. يسيران فى صمت حوالى عشرين خطوة.

ـ لم أرك من مدة طويلة يا يجور فلاسيتش.. ـ تقول بيلاجيا وهى تتطلع بحنان إلى كتفى الصياد المتحركتين وظهره ـ من يوم أن دخلت البيت فى عيد الفصح لتشرب ماء، من يومها لم نرك. فى عيد الفصح جئتنا لدقيقة.. وفوق ذلك كنت فى.. حالة سكر.. شتمتنى وضربتنى وانصرفت.. وما أكثر ما انتظرتك!.. كلّ بصرى من النظر وأنا أنتظرك. إيه يا يجور فلاسيتش! طل علىّ ولو مرة!

ـ وما الذى أفعله عندك؟

ـ صحيح ليس هناك ما تفعله.. عندك حق.. ومع ذلك فهناك البيت وأموره.. تعال انظر.. فأنت السيد.. آه، اصطدت ديكا. يا يجور فلاسيتش! ألا تجلس لتستريح قليلا..

تقول بيلاجيا ذلك وهى تضحك كالبلهاء وتتطلع إلى أعلى، إلى وجه يجور.. وينضح وجهها بالسعادة..

ـ أجلس؟ ممكن.. ـ يقول يجور بنبرة لامبالية، ويختار موضعا بين شجرتى شوح ـ ما لك واقفة؟ اجلسى أنت أيضا!

وتجلس بيلاجيا على مسافة منه تحت الشمس اللافحة وتخفى بيدها

فمها المبتسم وهى تخجل من فرحتها. وتمر دقيقتان من الصمت.

ثم تقول بيلاجيا بصوت خافت:

ـ طل علينا ولو مرة!

فيتنهد يجور وينزع عمرته، ويمسح بكمه جبينه الأحمر ويقول:

ـ وما الداعى؟ لا حاجة إلى ذلك البتة. إذا جئت لساعة أو ساعتين فهذا تعب لا طائل منه.. سأثيرك فقط.. أما الإقامة الدائمة فى القرية فلا تطيقها روحى.. أنت تعرفين أننى رجل مدلل.. يلزمنى أن أنام على سرير، وأتناول شايا جيدا، وبحاجة إلى أحاديث مهذبة.. أنا بحاجة إلى كل وسائل الرفاهية.. فماذا لديك فى قريتك غير الفقر والهباب.. لن أتحمل يوما واحدا. ولو صدر إلىّ، مثلا، أمر يحتم علىّ العيش عندك لأحرقت الدار أو انتحرت. أنا مدلل من صغرى، ولا حيلة لى فى الأمر.

ـ وأين تعيش الآن؟

ـ عند السيد ديمترى إيفانيتش، أعمل صيادا. أقدم الطيور البرية لمائدته.. ولكنه عموما يستبقينى للمتعة..

ـ هذا العمل لا يليق بمقامك يا يجور فلاسيتش.. الناس تنظر إليه كلهو، بينما تعتبره أنت حرفة.. تراه عملا حقيقيا..

فيقول يجور وهو يتطلع إلى السماء حالما:

ـ أنت لا تفهمين ذلك يا غبية. لم تفهمى ولن تفهمى أبدا أى رجل أنا.. أنا فى رأيك رجل طائش، ضال، أما الذين يفهمون فأنا بالنسبة لهم أحسن قناص فى الناحية. السادة يدركون ذلك، بل وكتبت عنى إحدى المجلات. لا يوجد ند لى فى مجال الصيد.. أما كونى أحتقر مهنتكم الفلاحية فليس ذلك لأنى مدلل أو متكبر. إنك تعرفين، أننى منذ صغرى لم أعرف عملا غير البندقية والكلاب. ولو أخذوا منى البندقية لأمسكت

بالسنارة، ولو أخذوا السنارة فسأصطاد بيدىّ. وكنت أكسب أيضا من الخيل، كنت أطوف بالأسواق عندما يكون معى نقود. وأنت تعرفين أن الفلاح إذا ما وهب نفسه للصيد أو للخيل فعلى المحراث السلام. وإذا تقمصت الإنسان روح الحرية فلن يستطيع أحد إخراجها منه. وأيضا إذا وهب أحد السادة نفسه للتمثيل أو أى نوع آخر من الفنون، فلن يصبح أبدا موظفا أو إقطاعيا. أنت يا امرأة لا تفهمين، وهذا شىء يتطلب الفهم.

ـ أنا فاهمة يا يجور فلاسيتش.

ـ معنى ذلك أنك لا تفهمين طالما تشرعين فى البكاء..

ـ أنا.. أنا لا أبكى.. ـ تقول بيلاجيا مستديرة عنه بوجهها ـ حرام يا يجور فلاسيتش! ابق ولو يوما واحدا معى أنا التعيسة. اثنتا عشرة سنة مرت منذ أن تزوجتك و.. ولم يكن بيننا حب ولا مرة واحدة! أنا.. أنا لا أبكى!..

ويدمدم يجور وهو يحك ذراعه:

ـ حب.. لا يمكن أن يكون بيننا أى حب. أنا وأنت متزوجان بالاسم فقط، فهل فعلا نحن كذلك؟ أنا بالنسبة لك رجل متوحش، وأنت بالنسبة لى امرأة بسيطة لا تفهم. هل نحن زوجان؟ أنا رجل حر، مدلل، جوال، وأنت كادحة، فلاحة، تعيشين فى القذارة، محنية الظهر دائما. أنا أعتبر نفسى فى الصيد أول الجميع، أما أنت فتنظرين إلىّ بإشفاق.. فهل نحن زوجان؟

فتقول بيلاجيا وهى تشهق بالبكاء:

ـ ولكننا متزوجان يا يجور فلاسيتش!

ـ متزوجان بالإكراه.. هل نسيت؟ اشكرى الكونت سرجى بافليتش على ذلك و.. نفسك. فبسبب الغيرة من أنى أرمى أحسن منه ظل

الكونت يسقينى الخمر شهرا كاملا ليسكرنى، ومن الممكن دفع السكران لا إلى الزواج فحسب بل وإلى اعتناق دين آخر. وهكذا أراد أن ينتقم منى فزوجنى منك وأنا سكران. . زوّج الصياد المحترف براعية ماشية! كنت تعرفين أننى سكران فلماذا قبلت؟ أنت لست عبدة، وكنت تستطيعين أن ترفضى! طبعا زواج مربية الماشية بصياد محترف شيء مشرِّف، ولكن كان ينبغى أن يكون لديك نظر. حسنا، تعذبى الآن وابكى. الكونت يضحك وأنت تبكين. . اضربى الحائط برأسك. .

وتحل لحظة صمت. وتطير فوق طرف الغابة ثلاث بطات برية. ويتطلع يجور إليها ويتابعها بنظره إلى أن تصبح ثلاث نقاط لا تكاد ترى وتهبط بعيدا وراء الغابة.

ثم يحول نظره عن البطات إلى بيلاجيا ويسألها:

ـ وبم تعيشين؟

ـ الآن أخرج للعمل، أما فى الشتاء فآخذ طفلا من الملجأ وأطعمه بالبزازة. ويعطوننى روبلا ونصف فى الشهر.

ـ هكذا. .

ويعود الصمت من جديد. وتتناهى من الشريط المحصود أغنية تنقطع فى بدايتها. فالحر لا يدع مجالا للغناء. .

ثم تقول بيلاجيا:

ـ يقولون إنك بنيت لأكولينا بيتا جديدا.

ويصمت يجور.

ـ إذن فقلبك يميل إليها. .

فيقول الصياد وهو يتمطى:

ـ هذا هو حظك، وتلك سعادتك! اصبرى يا يتيمة. طيب، وداعًا، أطلت فى الكلام. . ينبغى أن أكون مساء فى بولتوفو. .

وينهض يجور، ويتمطى، ويتقلد البندقية. وتنهض بيلاجيا.

وتسأل بصوت خافت:

ـ ومتى ستأتى إلى القرية؟

ـ لا داعى. لن آتى أبدا وأنا مفيق، أما وأنا سكران فلا فائدة منى لك. عندما أكون سكران أصبح غضوبا. وداعا!

ـ وداعا يا يجور فلاسيتش. .

ويضع يجور العمرة على مؤخرة رأسه ويدعو الكلب بمصة من شفتيه ويواصل طريقه. وتقف بيلاجيا فى مكانها تشيعه بنظراتها. . وترى عظام ظهره المتحركة وقفاه الفتى وخطوته البطيئة اللامبالية فتمتلئ عيناها بالحزن والرقة الحانية. . وتطوف نظرتها بقوام زوجها النحيل الطويل وتلاطفه وتهدهده. . وكأنما يحس هو بهذه النظرة فيتوقف ويلتفت. . يقف صامتا، ولكن بيلاجيا تشعر من وجهه وكتفيه المرتفعتين أنه يريد أن يقول لها شيئا ما. فتقترب منه بوجل وتحدق فيه بعينين ضارعتين.

فيقول لها وهو يستدير:

ـ خذى!

ويمد لها روبلا مجعدا وينصرف بسرعة.

وتأخذ منه الروبل آليا وهى تقول:

ـ الوداع يا يجور فلاسيتش!

ويسير فى طريق طويل مستقيم كالحزام المشدود. . وتقف هى شاحبة جامدة كالتمثال، وتلتهم بعينها كل خطوة من خطواته. ها هو ذا لون

قميصه الأحمر يندمج بلون سرواله الغامق، ولا تبين خطواته، ولا تميز الكلب عن حذائه. لا ترى سوى العمرة فقط، ولكن.. ينعطف يجور فجأة يمينا إلى الغابة فتختفى العمرة فى الخضرة.

ـ الوداع يا يجور فلاسيتش!

تهمس بيلاجيا وتشب على أطراف أصابعها كى ترى ولو مرة أخرى العمرة البيضاء.

فى البيت الريفى

«أنا أحبك. أنتَ حياتى، سعادتى، كل ما أملك! اغفر لى اعترافى، ولكنى لا أقوى على العذاب فى صمت. أنا لا أرجو منك المشاركة، بل العطف. تعال اليوم فى الساعة الثامنة مساء إلى العريشة القديمة.. لا أرى لزوما للتوقيع باسمى، لكن لا تخش من رسالة مجهولة، أنا شابة، وسيمة.. فماذا تريد أيضا».

قرأ المصطاف بافل إيفانيتش فيخودتسيف، وهو رجل متزوج، مستقيم، هذه الرسالة ثم هز كتفيه، وحك جبينه فى استغراب.

وقال فى نفسه: «ما هذا بحق الشيطان؟ أنا رجل متزوج، وفجأة أتلقى هذه الرسالة الغريبة.. الحمقاء! ترى من كاتبها؟»

قلب بافل إيفانيتش الرسالة أمام عينيه، ثم قرأها ثانية، وبصق.

وقال فى نفسه مقلدا عبارة الرسالة فى سخرية: «أنا أحبك».. تظن أنها وجدت صبيا! إذن فسوف أجرى ركضا لألقاك فى العريشة!.. إننى يا سيدتى نسيت من زمان هذه القصص الغرامية وكل هذه الفلور دامور[1].. هم!.. لا بد أنها امرأة طائشة منحرفة.. آه من هؤلاء النساء! أية لعوب - أستغفر الله - ينبغى أن تكون لكى تكتب رسالة كهذه إلى رجل

(١) زهرة الحب، من الفرنسية: Fleur d'amour. **(المعرب)**.

غريب، وفوق ذلك متزوج! انحلال ما بعده انحلال!»

خلال ثماني سنوات من الحياة الزوجية نسى بافل إيفانيتش المشاعر الرقيقة، ولم يكن يتلقى أية رسائل، اللهم إلا بطاقات التهنئة، ولذلك فرغم محاولته التظاهر بالرصانة أمام نفسه، إلا أن الرسالة المذكورة أربكته بشدة وأثارته.

وبعد ساعة من تسلمها رقد على الكنبة وهو يفكر:

«بالطبع أنا لست صبيا ولن أجرى إلى هذا الراندى فو الأحمق، ولكن من الطريف أن أعرف: ترى من كتبها؟ همْ. . الخط حريمى بلا شك. . والرسالة مكتوبة بصدق وحرارة، ومن ثَم يستبعد أن تكون نكتة. . ربما كانت امرأة مضطربة عقليا أو أرملة. . الأرامل عموما رعناوات وشاذات. همْ. . ولكن يا ترى من تكون؟»

زاد من صعوبة حل هذه المسألة أنه لم يكن لدى بافل إيفانيتش فى البلدة الريفية كلها من المعارف النسائية سوى زوجته.

وفكر مستغربا: غريبة. . «أنا أحبك». . متى تمكنت من حبى؟ امرأة مدهشة! هكذا أحبت، بلا مقدمات، حتى دون أن تتعرف بى أو تعرف أى رجل أنا. . يبدو أنها صبية جدا ورومانسية إذا كان فى وسعها أن تعشق من نظرتين أو ثلاث. . ولكن. . من هى؟»

وفجأة تذكر بافل إيفانيتش أنه بالأمس، وأول أمس أيضا، عندما كان يتنزه فى ميدان البلدة، التقى عدة مرات بشقراء شابة، كانت تختلس إليه النظر بين الحين والحين، وعندما جلس على الأريكة، جلست بالقرب منه. .

وفكر فيخودتسيف: «هى؟ غير معقول! وهل يمكن لمخلوق رهيف، نورانى أن يحب قرموطا عجوزا سبقيما مثلى؟ لا، هذا مستحيل!».

وأثناء الغداء حدق بافل إيفانيتش فى زوجته ببلاده وهو يفكر:

إنها تكتب أنها شابة ووسيمة.. إذن فليست عجوزا.. همْ.. لو أردنا الصدق، وبصراحة، فأنا لست عجوزا ودميما إلى حد يمنع مَن الوقوع فى غرامى.. أليست زوجتى تحبنى؟ وفضلا عن ذلك فالحب أعمى، والقرد فى عين أمه غزال..»

وسألته زوجته:

ـ فيم تفكر؟

فكذب قائلا:

ـ أبدا.. لا شىء.. يبدو عندى صداع..

وقرر أنه من الغباء أن يعير اهتماما لشىء تافه كهذه الرسالة الغرامية، وسخر منها ومن كاتبتها، ولكن يا للأسف! ما أقوى الشيطان الوسواس. وبعد الغداء تمدد بافل إيفانيتش على سريره، وبدلا من أن ينام وأخذ يفكر:

«ولكنها، فى الغالب، تؤمل فى مجيئى! يا لها من حمقاء! نعم، أتخيل كيف ستنفعل وترتعش أردافها المستعارة عندما لا تجدنى فى العريشة!.. ولكنى لن أذهب.. ما لى وما لها!»

ولكن، أكرر، ما أقوى الشيطان الوسواس.

فبعد نصف ساعة فكر المصطاف: «ولكن ماذا لو ذهبت.. هكذا.. حب استطلاع.. أذهب وأنظر من بعيد لأعرف من هى.. من الطريف فعلا لو ألقى نظرة! شىء مضحك لا أكثر! وبالفعل، لماذا لا أضحك قليلا إذا كانت هناك فرصة لذلك؟»

ونهض بافل إيفانيتش من سريره وبدأ يرتدى ثيابه.

ـ إلى أين تتأنق هكذا؟ ـ سألته زوجته وقد لاحظت أنه يرتدى قميصا نظيفا ورابطة عنق حديثة.

ـ أبدا . . أريد أن أتنزه قليلا . . يبدو عندى صداع . . هِمْ . .

تأنق بافل إيفانيتش، وانتظر بداية الساعة الثامنة، وخرج من البيت. ودق قلبه عندما لاحت لناظريه على خلفية خضراء ساطعة غمرها ضوء الشمس الغاربة جموع المصطافين والمصطافات الأنيقة.

وفكر وهو يختلس النظر بخجل إلى وجوه المصطافات:

«ترى من منهن؟ ولكنى لا أرى الشقراء . . هِمْ . . إذا كانت هى صاحبة الرسالة، فإذن هى الآن جالسة فى العريشة» . . .

ودلف فيخودتسيف إلى ممر بين الأشجار بدت فى نهايته «العريشة القديمة» من خلف أوراق أشجار الزيزفون الباسقة . . ومضى نحوها على مهل . .

وفكر وهو يتقدم مترددا: «سأطل من بعيد . . ما لى أخاف؟ أنا لست ذاهبا إلى راندى فو! يا لى من أحمق! أقدم بجرأة! وماذا لو دخلت العريشة؟ لا، لا . . لا داعى!»

وازدادت دقات قلب بافل إيفانيتش . . وعلى الرغم منه، تخيل لا إراديا عتمة العريشة . . ومضت فى خياله الشقراء الرشيقة فى فستان أزرق فاتح، وبأنف أقعى . . وتصور كيف تقترب منه بوجل، وهى تخجل من حبها، وبدنها كله يرتعش، وأنفاسها تتردد بحرارة و . . وفجأة تطوقه بذراعيها فى عناق عنيف.

وفكر وهو يطرد من رأسة الأفكار الحرام: «لو لم أكن متزوجا لهان الأمر . . وعموما . . لا مانع أن تجرب ذلك مرة فى العمر، وإلا فقد تموت دون أن تدرى ما هذا . . وزوجتى . . حسنا، ماذا سيحدث لها؟ الحمد لله لم أبتعد عنها خطوة واحدة طوال ثمانى سنوات . . ثمانى سنوات من الخدمة المثالية! يكفيها هذا . . شىء محنق. طيب، ماذا لو خنتها نكاية بها!»

اقترب بافل إيفانيتش مرتعش البدن مبهور الأنفاس من العريشة المغلَّفة بأغصان الكروم البرية، وأطل داخلها. . وهبت عليه رطوبة وروائح عطنة. .

وفكر وهو يدخل العريشة: «يبدو ليس هناك أحد. . »، وعلى الفور رأى شبحا بشريا فى ركن العريشة. . .

كان شبح رجل. . وعندما حدق بافل إيفانيتش وعرف فيه شقيق زوجته، الطالب ميتيا، الذى يعيش عندهم فى البيت الريفى.

ودمدم بصوت ساخر: آه. . أهو أنت؟»، ونزع قبعته وجلس.

فأجاب ميتيا:

ـ نعم أنا. .

مرت دقيقتان فى صمت. .

ثم قال ميتيا:

اعذرنى يا بافل إفانيتش إذا رجوتك أن تتركنى بمفردى. . إننى أفكر فى موضوع رسالة علمية و. . ووجود أى شخص هنا يشوش علىّ. .

فقال بافل ايفانيتش بدعة:

ـ فلتذهب إلى الممر المظلم. . فى الهواء الطلق يسهل التفكير، ثم إنه. . يعنى. . أريد أن أنام قليلا على هذه الأريكة. . الجو هنا ليس حارا. .

فدمدم ميتيا بسخط:

ـ أنت تريد أن تنام وأنا أريد أن أفكر فى الرسالة. . الرسالة أهم. .

وحل الصمت من جديد. . وإذا ببافل إيفانيتش، الذى ترك لخياله

العنان وأصبح يسمع بين الحين والحين وقع خطوات، يقفز فجأة ويقول بصوت باك:

ـ إننى أرجوك يا ميتيا! أنت أصغر منى وينبغى أن تستجيب لرجائى . . إننى مريض و . . وأريد أن أنام . . اذهب!

ـ هذه أنانية . . لماذا ينبغى أن تبقى أنت لا أنا؟ لن أذهب . . هذه مسألة مبدأ . .

ـ أرجوك! فلأكن أنانيا، طاغية، أحمق . . إننى أرجوك! مرة فى حياتى أرجوك! استجب!

فهز متيتا رأسه سلبا . .

وفكر بافل إيفانيتش: «يا له من وغد! لن يتم الراندى فو فى حضوره! مستحيل فى حضوره!»

ـ اسمع يا ميتيا، أرجوك آخر مرة . . برهن على أنك إنسان ذكى، عطوف ومثقف!

فهز ميتيا كتفيه:

ـ أنا لا أفهم إلحاحك علىّ! قلت لك لن أذهب يعنى لن أذهب . . سأبقى هنا كمبدأ . .

وفى تلك اللحظة أطل فى العريشة فجأة وجه نسائى ذو أنف أقعى .

وعندما رأى الوجه ميتيا وبافل إيفانيتش عبس واختفى . .

وفكر بافل إيفانيتش وهو ينظر إلى ميتيا بحقد: «ذهبت! رأت هذا الوغد فذهبت! ضاع كل شىء» .

وانتظر فيخودتسيف قليلا ثم نهض وارتدى قبعته وقال:

ـ أنت حيوان، وغد، سافل! نعم! حيوان! هذه خسة و. . حماقة! كل شىء بيننا انتهى!

فدمدم ميتيا وهو ينهض أيضا ويرتدى قبعته:

ـ سعيد جدا! أتعرف أنك بحضورك الآن ارتكبت فى حقى عملا دنيئا لن أغفره لك طول العمر!

وخرج بافل إيفانيتش من العريشة وقد أعماه الغضب، ومضى نحو بيته الصيفى بخطوات سريعة. . ولم يهدىء ثائرته حتى منظر المائدة المعدة للعشاء.

قال فى نفسه منفعلا: مرة فى حياتى تتاح لى هذه الفرصة فيفسدونها علىّ! إنها الآن تشعر بالإهانة. . إنها محطمة!»

وأثناء العشاء دفن بافل إيفانيتش وميتيا وجهيهما فى الأطباق وصمتا مكفهرين. . كانا يمقتان بعضهما البعض من صميم قلبيهما.

وهاجم بافل إيفانيتش زوجته:

ـ ما لك تبتسمين؟ الحمقاوات وحدهن يبتسمن بلا سبب!

فنظرت الزوجة إلى وجه زوجها الغاضب وانفلتت منها ضحكة. .

وسألته:

ـ ما هذه الرسالة التى تسلمتها صباح اليوم؟

فارتبك بافل إيفانيتش:

ـ أنا؟. . لم أتسلم أيه رسالة. . أنت تختلقين. . هذه تهيؤات. .

ـ دعك من المراوغة! اعترف بأنك تسلمتها! هذه الرسالة أنا التى أرسلتها! أقسم لك! ها. . ها!

تضرج بافل إيفانيتش وانحنى فوق الطبق. ودمدم:

ـ مزاح سخيف.

ـ وماذا أفعل.. كان ينبغى أن نغسل الأرضية اليوم. فكيف نطردكما من البيت؟ بهذه الطريقة فقط.. لا تغضب منى، يا عزيزى.. ولكى لا تشعر بالملل فى العريشة أرسلت لميتيا رسالة مماثلة! هل كنت فى العريشة يا ميتيا؟

ضحك ميتيا ضحكة قصيرة، ولم يعد ينظر إلى غريمه بحقد.

توافه الحياة

توجه نيقولاى إيليتش بليايف، أحد أصحاب العقارات فى بطرسبرج، ومن المترددين كثيرا على سباق الخيل، وهو رجل شاب، فى حوالى الثانية والثلاثين، ممتلئ الجسم، وردى البشرة، توجه ذات مساء إلى السيدة أولجا إيفانوفنا إيرنينا التى كان يعاشرها، أو التى كانت له معها، على حد تعبيره، قصة طويلة مملة. وبالفعل، فالصفحات الأولى من هذه القصة، تلك الصفحات التى كانت شيقة ملهمة، قد فرغ من قراءتها منذ أمد بعيد، وامتدت الصفحات الآن ببطء، خلوة من أى شىء جديد أو شيق.

وعندما لم يجد بطلنا أولجا إيفانوفنا فى البيت، استلقى على أريكة فى غرفة الجلوس، وشرع ينتظرها.

وسمع صوتا طفوليا يقول:

ـ مساء الخير يا نيقولاى إيليتش. ماما ستعود قريبا. لقد ذهبت مع سونيا إلى الخياطة.

فى غرفة الجلوس ذاتها استلقى على الكنبة أليوشا ابن أولجا إيفانوفنا. وهو صبى فى حوالى الثامنة، رشيق، معتنى به، يرتدى سترة مخملية وجوربا طويلا من التريكو الأسود حسب أحدث موضة. كان راقدا على وسادة من الحرير الأطلسى، ويبدو أنه كان يقلد لاعب الأكروبات الذى رآه مؤخرا فى السيرك، فقد كان يرفع عاليا ساقيه بالتناوب. وعندما تتعب ساقاه الرشيقتان، يطلق العنان ليديه، أو يقفز بحدة ويجثم على أربع

محاولا أن يقف على يديه. وكان يفعل ذلك كله بوجه فى غاية الجدية، وهو يزحر بمعاناة، وكأنما كان هو نفسه غير راض إذ وهبه الله هذا الجسد القلق.

فقال بلبايف:

- آه، مرحبا يا صديقى. أهو أنت؟ لم ألاحظ وجودك. هل ماما بصحة طيبة؟

تشقلب أليوشا، الذى أمسك بمشط قدمه اليسرى بيده اليمنى واتخذ وضعا غير عادى تماما، ثم قفز واقفا، وأطل على بلبايف من خلف أباجورة كبيرة منتفخة.

وقال وهو يهز كتفيه:

- ماذا أقول لك؟ ماما فى الواقع لا تشعر بنفسها فى صحة طيبة أبدا. فهى امرأة، والمرأة، يا نيقولاى إيليتش، لديها دائما شىء ما مريض.

ولما لم يكن لدى بلبايف ما يفعله، فقد أخذ يتأمل وجه أليوشا. فطوال فترة معرفته بأولجا إيفانوفنا لم يعر الصبى أدنى اهتمام، ولم يلاحظ وجوده أبدا... مجرد صبى يلوح لناظريه، أما ما سبب وجوده هنا، وأى دور يؤديه، فهذا ما لم يشأ، لأمر ما، أن يفكر فيه.

وفى عتمة الغسق ذكّره وجه أليوشا ذو الجبين الشاحب والعينين السوداوين غير البراقتين، ذكره على غير توقع بأولجا إيفانوفنا عندما كانت فى أولى صفحات القصة. فأحس برغبة فى ملاطفة الصبى.

فقال له:

- تعال هنا يا صغير! دعنى أنظر إليك عن قرب. وقفز الصبى من فوق الكنبة وركض إلى بلبايف ووضع نيقولاى إيليتش يده على كتف الصبى النحيلة وقال:

ـ حسنا؟ ماذا؟ كيف الحال؟

ـ ماذا أقول لك؟ كان الحال فى السابق أفضل بكثير.

ـ لماذا؟

ـ بسيطة جدا! فى السابق كنت أنا وسونيا ندرس الموسيقى والقراءة فقط، أما الآن فعلينا أن نحفظ أشعارا بالفرنسية. أنت حلقت منذ وقت قريب.

ـ نعم، منذ وقت قريب.

ـ لقد لاحظت ذلك. أصبحت لحيتك أقصر. اسمحى لى أن ألمسها... ألا يؤلمك؟

ـ كلا، لا يؤلمنى.

ـ وما السبب أنك عندما تشد شعرة واحدة تشعر بالألم وعندما تشد شعرا كثيرا لا تشعر أبدا بأى ألم؟ ها ـ ها! أتدرى، خسارة أنك لا تطلق سوالفك. لو حلقت هنا قليلا، أما هنا، من الجنبين، فتترك الشعر...

والتصق الصبى ببليايف وراح يعبث بسلسلته. وقال:

ـ عندما أدخل المدرسة ستشترى لى ماما ساعة. وسأطلب منها أن تشترى لى سلسلة مثل هذه... أوه، يا لها من مدلاة! بابا عنده مدلاة مثلها بالضبط، ولكن عندك هنا خطوط أما هو فعنده حروف... وفى الوسط عنده صورة ماما. أصبح لدى بابا الآن سلسلة أخرى، ليست حلقات، بل شريطا..

ـ ومن أين عرفت؟ هل تقابل بابا؟

ـ أنا؟ م.. لا! أنا.. لا

أحمر أليوشا وأخذ يخدش المدلاة بظفرة باهتمام وهو فى ارتباك شديد من اكتشاف كذبه. وحدق بليايف فى وجهه مليا ثم سأله:

ـ هل تقابل بابا؟

ـ لـ . . لا!

ـ لا ، خبرنى بصراحة . . فأنا أرى من وجهك أنك تكذب . . مادمت قد ثرثرت فلا داعى إذن للمراوغة . قل ، هل تراه؟ خبرنى كأصدقاء .

واستغرق أليوشا فى التفكير . ثم سأل :

ـ ألن تقول لماما؟

ـ وهل هذا معقول!

ـ كلمة شرف؟

ـ كلمة شرف .

ـ أقسم!

ـ أوه يا لك من صعب! من تظننى؟

تلفت أليوشا حواليه ، واتسعت عيناه وقال هامسا :

ـ لكن أستحلفك ألا تقول لماما . . وعموما لا تقل لأحد لأنه سر . لو عرفت ماما ، لا قدر الله ، فسيحل العقاب بى وبسونيا وببيلاجيا . . حسنا ، اسمع . أنا وسونيا نقابل بابا كل ثلاثاء وجمعة ، عندما تصحبنا بيلاجيا للتنزه قبل الغداء ، نذهب إلى محل حلوى «أبفل» ، وهناك يكون بابا فى انتظارنا . . وهو دائما يجلس فى غرفة مستقلة ، أتدرى ، تلك الغرفة التى بها طاولة مرمرية وطفاية على شكل أوزة بدون ظهر . .

ـ وماذا تفعلون هناك؟

ـ لا شىء! فى البداية نتبادل التحية ، ثم نجلس جميعا إلى الطاولة ويضيفنا بابا قهوة وشطائر . أتدرى ، سونيا تأكل الشطائر باللحم ، أما أنا فلا أطيق شطائر اللحم! أنا أحب الشطائر بالكرنب والبيض . ونأكل حتى

الشبع، إلى درجة أننا فيما بعد، أثناء الغداء، نحاول أن نأكل أكثر حتى لا تلاحظ ماما أننا سبق أن أكلنا.

ـ وعم تتحدثون هناك؟

ـ مع بابا؟ عن كل شيء. وهو يقبلنا ويعانقنا، ويروى لنا مختلف النكات والحوادث المضحكة. أتدرى، إنه يقول إننا عندما نكبر فسوف يأخذنا إليه. وسونيا لا تريد، أما أنا فموافق. بالطبع سأشتاق إلى ماما، ولكنى سأكتب لها رسائل! شيء غريب.. سيكون بإمكانى أن أزورها فى الأعياد، أليس كذلك؟ ويقول بابا أيضا إنه سيشترى لى حصانا. شخص طيب جدا! أنا لا أدرى لماذا لا تدعوه ماما للعيش معنا وتحرم علينا مقابلته. إنه يحب ماما جدا. ودائما يسألنا عن صحتها وعما تفعله. وعندما كانت مريضة أمسك رأسه بيديه هكذا و.. أخذ يهرول.. ودائما يطلب منا أن نطيعها ونحترمها. اسمع، هل صحيح أننا تعساء؟

ـ همْ.. ولماذا؟

ـ بابا يقول هذا. يقول: أنتم أطفال تعساء. غريب أن تسمع منه هذا الكلام. يقول: أنتم تعساء، وأنا تعيس، وماما تعيسة. صلوا لله من أجلكم ومن أجلها.

وتوقفت نظرة أليوشا على طائر محنط واستغرق فى التفكير.

وقال بلیایف بصوت كالخوار.

ـ هكذا.. إذن فأنتم تعقدون المؤتمرات فى محلات الحلوى. وماما لا تعرف؟

ـ لا.. ومن أين تعرف! بيلاجيا لا يمكن أن تقول لها. وأول أمس ضيفنا بابا كمثرى. حلوة كالمربى! أنا أكلت اثنتين.

ـ هم.. وهذا.. اسمع، وبابا لا يقول عنى شيئا؟

ـ عنك؟ ماذا أقول لك؟

حدق اليوشا فى وجه بلبايف متفحصا ثم هز كتفيه.

ـ لا يقول شيئا ذا بال.

ـ وتقريبا، ماذا يقول؟

ـ ألن تغضب؟

ـ هل هذا معقول! أهو يسبنى؟

ـ لا يسبك، ولكن، أتدرى.. غاضب عليك. يقول إن ماما تعيسة بسببك، وإنك.. قضيت عليها. إنه كما تعلم غريب! إننى أحاول أن أفهمه أنك طيب، ولا تصرخ فى ماما أبدا، ولكنه فقط يهز رأسه.

ـ إذن فهو يقول إننى قضيت عليها؟

ـ نعم، لا تغضب يا نيقولاى إيليتش!

نهض بلبايف، ووقف قليلا، ثم أخذ يذرع غرفة الجلوس.

ودمدم وهو يهز كتفيه ويبتسم بسخرية.

ـ هذا غريب و.. مضحك! هو المذنب فى كل شىء ومع ذلك فأنا الذى قضيت عليها، هه؟ انظروا، يا له من حمل وديع. إذن فقد قال لك إننى قضيت على أمك؟

ـ نعم، ولكن.. لقد قلت إنك لن تغضب!

ـ أنا لست غاضبا و.. وليس هذا شأنك! لا، هذا.. إن هذا مضحك! أنا الذى وقعت فى مطب، ثم إذا بى أنا المذنب!

ودق جرس الباب. فوثب الصبى من مكانه وانطلق خارجا. وبعد دقيقة دخلت غرفة الجلوس سيدة ومعها طفلة صغيرة.. كانت تلك أولجا إيفانوفنا، والدة أليوشا. وتبعها أليوشا وهو يقفز ويغنى بصوت عال ويهز ذراعيه. وأومأ بلبايف برأسه محييا، ثم واصل سيره فى الغرفة.

ودمدم وهو يزفر :

ـ طبعا ، من غيرى الآن يمكن توجيه الاتهام إليه؟ إنه محق! إنه زوج مهان!

فسألت أولجا إيفانوفنا :

ـ عم تتحدث؟

ـ عمّ؟ . . إذن فلتسمعى المواعظ التى يلقيها زوجك الموقر! لقد ظهر أننى وغد وشرير ، قضيت عليك وعلى الأولاد . كلكم تعساء ، وأنا السعيد الوحيد! سعيد إلى درجة فظيعة ، فظيعة!

ـ أنا لا أفهم يا نيقولاى عمّ تتحدث!

فقال بليايف مشيرا إلى أليوشا :

ـ فلتسمعى إذن هذا السنيور الصغير!

احمر أليوشا ، ثم امتقع فجأة ، وتقلص وجهه كله من الفزع .

وهمس بصوت عال :

ـ نيقولاى إيليتش! هس!

ونظرت أولجا إيفانوفنا بدهشة إلى أليوشا ، ثم إلى بليايف ، ثم إلى أليوشا مرة أخرى .

واستطرد بليايف يقول :

ـ هيا اسأليه! خادمتك بيلاجيا ، هذه الحمقاء ، تتردد على محلات الحلوى وترتب اللقاءات هناك مع الوالد المحترم . ولكن ليست هذه القضية ، القضية هى أن الوالد المحترم ضحية ، أما أنا فشرير ، سافل ، حطمت حياتكم . .

فتأوه أليوشا :

ـ نيقولاى إيليتش! لقد أعطيتنى كلمة شرف! فأشاح بليايف بيده :

ـ إيه، دعنى! الأمر الآن أهم من أية كلمات شرف. ما يثير سخطى هو الرياء، الكذب!

فقالت أولجا إيفانوفنا وقد ترقرقت الدموع فى عينيها :

ـ أنا لا أفهم! ـ وخاطبت ابنها : ـ اسمع يا لولكا، هل تقابل أباك؟

بيد أن أليوشا لم يكن يصغى إليها بل كان يحدق فى بليايف بارتياع.

وقالت الأم :

ـ مستحيل! سأذهب إلى بيلاجيا وأستجوبها.

وخرجت أولجا إيفانوفنا.

فقال أليوشا وبدنه كله يرتجف :

ـ اسمع، ألم تعطنى كلمة شرف!

فأشاح بليايف نحوه بيده ومضى يذرع الغرفة. كان مستغرقا فى غضبه ولم يعد يلاحظ وجود الصبى كما فى السابق. لقد كان ـ وهو الرجل الجاد الكبير ـ فى شغل عن الصبيان. أما أليوشا فقد انزوى فى الركن، وأخذ يروى لسونيا بارتياع كيف خدع. كان يرتجف ويتلجلج، ويبكى، . . كانت تلك أول مرة فى حياته يصطدم بالكذب وجها لوجه، وبهذه الفظاظة. لم يكن يعرف من قبل أنه يوجد فى هذه الدنيا، بالإضافة إلى الكمثرى الحلوة والشطائر والساعات الثمينة، كثير من الأشياء الأخرى التى لا أسماء لها فى لغة الأطفال.

الأعداء

فى حوالى الساعة العاشرة من مساء مظلم فى شهر سبتمبر توفى بالدفتيريا الابن الوحيد لدى الطبيب الريفى الدكتور كيريلوف، الطفل أندرية ذو الأعوام الستة. وعندما جثت زوجة الدكتور على ركبيتها أمام سرير الصبى الميت وقد دهمتها أول نوبة يأس، دوى فى المدخل بحدة رنين الجرس.

كان الخدم جميعا قد صرفوا منذ الصباح بسبب الدفتيريا. فذهب كيريلوف ليفتح الباب بنفسه، كما هو، بدون سترة، فى صديرى مفكوك الأزرار، ودون ن يمسح وجهه المبلل ويديه المبللتين اللتين كواهما حامض الكربوليك. كان المدخل مظلما فلم يميز فى الشخص القادم سوى قامة متوسطة وملحفة بيضاء، ووجه كبير بالغ الشحوب إلى درجة بدا معها أن المدخل أضاء قليلا بظهوره..

وسأل القادم بسرعة:

ـ الدكتور موجود؟

فأجاب كيريلوف:

ـ أنا موجود. ماذا تريدون؟

ـ آه، أهو أنت؟ سعيد جدا! ـ قال القادم بفرح وأخذ يبحث فى الظلام عن يد الدكتور حتى وجدها فضغط عليها بقوة بين كفيه ـ سعيد جدا..

جدا! إننا معارف! . . أنا أبوجين . . تشرفت برؤيتكم صيفا عند آل جنوتشيف . سعيد جدا إذ وجدتك . . أتوسل إليك أن تأتى معى الآن . . زوجتى فى حالة خطرة . . معى عربة . .

بدا واضحا من صوت القادم وحركاته أنه كان فى حالة انفعال شديد . كان يتكلم بسرعة وبصوت مرتعش وهو لا يكاد يقوى على كتم لهاثه ، وكأنما أفزعه حريق أو كلب مسعور ، ولاحت فى حديثه نبرة جبن غير مفتعلة . وككل المذعورين والمذهولين كان يتكلم بجمل قصيرة حادة ويتفوه بكلمات زائدة كثيرة لا دخل لها إطلاقا بالموضوع .

ومضى يقول :

ـ خشيت ألا أجدك . . تعذبت كثيرا وأنا فى الطريق إليك . . أرجوك البس ثيابك وهيا بنا . . حدث ذلك هكذا : جاءنى بابتشينسكى ، ألكسندر سيميونوفوفتش ، أنت تعرفه . . وتحدثنا . . ثم جلسنا نشرب الشاى . وفجأة صرخت زوجتى ، وأمسكت بقلبها وسقطت على ظهر الكرسى . وحملناها إلى الفراش و . . دلكت صدغيها بالنشادر ، ورششتها بالماء . . ولكنها ترقد كالميتة . . أخشى أن يكون ذلك أنورسما[1] . . هيا بنا . . لقد مات والدها بالأنورسما . .

كان كيريلوف يصغى إليه صامتا ، وبدا وكأنه لا يفهم الروسية .

وعندما ذكر أبوجين مرة أخرى بابتشينسكى ووالد زوجته ، وراح من جديد يبحث فى الظلام عن يد الدكتور ، هز هذا رأسه وقال بتبلد وهو يمط كل كلمة :

ـ عفوا ، أنا لا أستطيع أن أذهب . . منذ خمس دقائق . . مات ابنى . .

فهمس أبوجين وهو يتراجع خطوة :

---

(١) تمدد مرضى فى شرايين القلب . (**المعرب**) .

ـ كـيف؟! يا إلهى، فى أية سـاعـة مـشـؤومـة جئت! يا له من يوم منحوس.. منحوس بصورة غريبة! ما هذا التوافق.. كأنما عن عمد!

أمسك أبوجين بمقبض الباب وطأطأ رأسه متفكرا. ويبدو أنه كان متـرددا ولا يدرى مـاذا يفـعل: هل ينصـرف أم يواصل الإلحـاح على الدكتور.

ثم قال بحرارة وهو يشد كيريلوف من ذراعه:

ـ اسمع، إننى أفهم حالتك تماما! ويشهد الله كم أخجل وأنا أسعى فى هذه اللحظات إلى الاستحواذ على اهتمـامك، ولكن ماذا أفعل؟ احكم بنفسك.. إلى من أستطيع أن أتوجه؟ ليس هنا طبيب غيرك. أتوسل إليك أن تأتى معى! أنا لا أطلب شيئًا لنفسى.. لست أنا المريض!

وساد الصمت. استدار كيريلوف موليا ظهره إلى أبوجين، ووقف قليلا، ثم خرج ببطء من المدخل إلى الصالة. وبدا من مشيته الآلية غير الواثقة، ومن الاهتمام الذى سوى به الأباجورة الكثة على المصباح المنطفئ فى الصالة والذى قلب به صفحات كتاب سميك ملقى على الطاولة، أنه لم تكن لديه فى هذه اللحظة أية نوايا أو رغبات، ولم يكن يفكر فى شىء، وربما لم يعد يذكر أن هناك شخصا غريبا ينتظر فى المدخل. ويبدو أن عتمة الصالة وسكونها قد زادا من ذهوله. وعندما سار من الصالة إلى غرفة مكتبه كان يرفع قدمه اليمنى أعلى مما ينبغى، ويبحث بيديه عن قوائم الأبواب، وفى تلك اللحظة أفصحت هيئته كلها عن نوع من الحيرة وكأنما دخل شقة غريبة، أو أنه سكر بشدة لأول مرة فى حياته فاستسلم فى حيرة لهذا الإحساس الجديد. وعلى أحد جدران غرفة المكتب، وعبر خزانات الكتب امتد شريط ضوئى عريض. وكان هذا الضوء قادما مع رائحة الكربوليك والأثير الثقيلة الخانقة من البـاب الموارب المفضى من المكتب إلى غرفة النوم.. وغاص الدكتور فى الكرسى أمام الطاولة.

ونظر بعينين ناعستين إلى كتبه المضاءة حوالى دقيقة، ثم نهض ومضى إلى غرفة النوم.

وهنا، فى غرفة النوم، أطبق سكون الموت. كان كل شىء، بأدق تفصيلاته، يدل بجلاء على العاصفة التى مرت منذ قليل، وعلى الإرهاق، ثم أخلد كل شىء الآن إلى الراحة. وأضاءت الغرفة بسطوع الشمعة الموضوعة على الكرسى فى زحمة القوارير والعلب والبرطمانات، والمصباح الكبير على الكمودينو. وعلى السرير، بجوار النافذة مباشرة، تمدد الصبى بعينين مفتوحتين وتعبير دهشة على وجهه. كان ساكنا بلا حراك، ولكن بدا أن عينيه المفتوحتين تظلمان أكثر مع كل لحظة وتغوصان داخل الجمجمة. وجثت أمه على ركبتيها أمام السرير وقد وضعت يديها على جسده ودفنت وجهها فى طيات الفراش. كانت مثل الصبى ساكنة، ولكن أية حركة حية تجلت فى ثنايا جسدها وفى ذراعيها! كانت ملتصقة بالسرير بكل كيانها، وبقوة ونهم، كأنما كانت تخشى أن تتحرك فتخل بهذا الوضع الساكن المريح الذى وجدته أخيرا لجسدها المنهك. كان كل شىء جامدا. . البطاطين، والخرق، الطسوت، وبرك المياه على الأرضية، والفرش والملاعق المتناثرة فى كل مكان، وزجاجة المحلول الجيرى البيضاء، والهواء نفسه، الخانق الثقيل. . وبدا كل ذلك غارقا فى السكينة.

توقف الدكتور بجوار زوجته، ودس يديه فى جيبى سرواله وأمال رأسه جانبا وحدق فى ابنه. وكان وجهه يعبر عن اللامبالاة، ومن القطرات الدقيقة فحسب التى كانت تلمع فى لحيته كان واضحا أنه بكى منذ قليل.

لم يكن فى الغرفة ذلك الرعب الذى يراود الذهن عند الحديث عن الموت. ففى ذلك الجمود الشامل، وفى وضع الأم، وفى لامبالاة وجه الدكتور كان ثمة شىء جذاب، يأسر القلب، وهو بالذات ذلك الجمال المرهف الذى لا يكاد يلحظ للمأساة الإنسانية، ذلك الجمال الذى لن يعرف الناس قريبا كيف يفهمونه ويصفونه، والذى لا يحسن التعبير عنه،

فيما يبدو، سوى الموسيقى. وكان هذا الجمال ملموسا أيضا فى السكون الجهم. وكان كيريلوف وزوجته صامتين، لا يبكيان، كأنما يدركان، إلى جانب وطأة المصاب، كل وجدانية وضعهما؛ فكما انقضى شبابهما فى حين ما، يمضى الآن، مع رحيل ولدهما، إلى الأبد وبلا رجعة حقهما فى إنجاب الأطفال! فالدكتور فى الرابعة والأربعين، وقد شاب شعره وأصبح أشبه بالعجوز. أما زوجته المنطفئة المريضة ففى الخامسة والثلاثين. ولم يكن أندريه ابنهما الوحيد فحسب، بل والأخير أيضا.

وعلى عكس زوجته كان الدكتور ينتمى إلى ذلك الطراز من الشخصيات التى تشعر فى حالة الألم النفسى بالحاجة إلى الحركة. فبعد أن وقف بجوار زوجته حوالى خمس دقائق، خرج من غرفة النوم وهو يرفع قدمه اليمنى عاليا، ودلف إلى غرفة صغيرة تشغل نصفها كنبة كبيرة عريضة. ومنها انتقل إلى المطبخ. وتسكع قليلا بجوار الفرن وفراش الطاهية، ثم انحنى وخرج من باب صغير إلى المدخل.

وهنا رأى ثانية الملحفة البيضاء والوجه الشاحب.

وتنهد أبوجين وهو يمسك بمقبض الباب وقال:

ـ أخيرا! فلنرحل لو سمحت!

انتفض الدكتور، ثم تطلع إليه فتذكر..

وقال له وهو يستعيد حيويته:

ـ اسمع، لقد قلت لك إننى لا أستطيع الذهاب! ما أغرب هذا!

فقال أبوجين بصوت ضارع واضعا يده على صدره:

ـ يا دكتور، أنا لست بليد الإحساس، وأقدر وضعك تماما.. كم آسى لك! لكنى لا أطلب شيئا لنفسى.. زوجتى تحتضر! لو أنك سمعت تلك الصرخة ورأيت وجهها، لأدركت سبب إلحاحى! يا إلهى، لقد ظننت أنك

ذهبت لترتدى ثيابك! الوقت ضيق يا دكتور! فلنذهب أرجوك.

فقال كيريلوف ببطء:

ـ لا أستطيع أن أذهب!

وخطا نحو الصالة.

ومضى أبوجين فى أثره وأمسك بكمه.

ـ لديك فجيعة، أنا أدرك ذلك، ولكنى لا أدعوك لعلاج أسنان ولا لوضع تقرير فنى، بل لإنقاذ حياة بشرية! ـ ومضى يتوسل إليه كالشحاذ ـ هذه الحياة فوق أية فجيعة شخصية! حسنا، إننى أسألك النخوة، أسألك بطولة! باسم المحبة الإنسانية!

فقال كيريلوف بعصبية:

ـ المحبة الإنسانية سكين ذو حدين. وباسم المحبة الإنسانية نفسها أرجوك أن تتركنى. حقا شىء غريب! أنا لا أكاد أقوى على الوقوف بينما تخوفنى بالمحبة الإنسانية! أنا لا أصلح لشىء الآن.. لن أذهب مهما كان، وكيف أترك زوجتى؟ لمن؟ كلا، كلا..

ولوح كيريلوف بيديه وعاد أدراجه.

ومضى يقول بفزع:

ـ لا.. لا تطلب! اعذرنى.. نعم، حسب المجلد الثالث عشر لمجموعة القوانين يتوجب علىّ أن أرحل معك، ومن حقك أن تجرجرنى من قفاى.. هيا، تفضل جرجرنى، ولكن.. أنا غير صالح.. لا أقدر حتى على الكلام.. أعذرنى..

فقال أبوجين وهو يمسك الدكتور من كمه ثانية:

ـ لا داعى لأن تتحدث معى بهذه اللهجة يا دكتور. دعنا من هذا المجلد الثالث عشر! ليس من حقى أبدا أن أجبرك على شىء. إذا شئت أن ترحل

فلترحل، وإذا لم تشأ سامحك الله. لكنى لا أخاطب إرادتك بل أخاطب مشاعرك. هناك امرأة شابة تحتضر! لقد قلت إن ابنك مات الآن، فمن غيرك يستطيع أن يفهم بلواى؟

كان صوت أبوجين يرتعش من الانفعال. وكان فى هذه الرعشة وفى نبرة الصوت من قوة الإقناع أكثر مما فى كلماته. كان أبوجين صادقا، ولكن الملفت للانتباه أنه مهما قال من عبارات، فقد كانت كلها تبدو جوفاء، بلا نبض، أو زاهية بصورة لا تليق وكأنما تهين جو شقة الدكتور والمرأة المحتضرة بعيدا. وحتى هو أحس بذلك، ولهذا فقد حاول بكل قواه، خشية ألا يُفهم، أن يضفى على صوته نعومة ورقة كى يؤثر فى الطبيب إن لم يكن بالكلمات، فبصدق النبرة على الأقل. وعموما فالكلمات مهما كانت جميلة وعميقة فإنها لا تؤثر إلا فى ذوى النفوس اللامبالية ولا تستطيع دائما أن ترضى السعداء أو التعساء. ويبدو أن أسمى تعبير عن السعادة أو التعاسة هو فى أغلب الأحوال الصمت. فالعشاق يفهمون بعضهم بعضا عندما يصمتون، أما الخطبة الحارة المشبوبة الملقاة على القبر فلا تؤثر إلا فى الغرباء، بينما تبدو لأرملة المتوفى وأولاده باردة تافهة.

وقف كيريلوف صامتا. وعندما تفوه أبوجين ببضع عبارات أخرى عن رسالة الطبيب السامية، وعن التضحية بالنفس وما إلى ذلك، سأله الطبيب عابسا:

ـ هل المسافة بعيدة؟

ـ حوالى ١٣ ـ ١٤ فرسخا. خيولى ممتازة يا دكتور! أعدك بشرفى أن أحملك إلى هناك وأعود بك فى ساعة واحدة. ساعة واحدة فقط!

أثرت الكلمات الأخيرة على الدكتور بأقوى من الاستشهاد بمحبة البشر ورسالة الطبيب. ففكر قليلا ثم قال متنهدا:

ـ حسنا، لنذهب!

ومضى نحو مكتبه بسرعة، بخطوة أصبحت واثقة، ثم عاد بعد قليل فى سترة طويلة. وساعده أبوجين المسرور وهو يدور حوله ويحك الأرض بقدميه على ارتداء المعطف وخرج معه من البيت.

كان الجو فى الخارج مظلما وإن كان أخف ظلمة من المدخل. وبدت فى الظلام بوضوح قامة الدكتور الطويلة المحنية بلحيته الطويلة الضيقة وأنفه المعقوف. أما أبوجين، فقد أصبح ظاهرا منه الآن، بخلاف شحوبه، رأسه الكبير وعليه طاقية طلابية صغيرة لا تكاد تغطى يافوخه. وكانت الملحفة تلوح من الأمام فقط، أما من الخلف فقد اختفت خلف شعره المرسل.

ودمدم أبوجين وهو يساعد الدكتور على ركوب العربة:

- ثق يا دكتور أننى سأعرف كيف أقدر شهامتك. سنصل بسرعة. هيا يا لوقا، يا عزيزى، انطلق بأسرع ما يمكن! أرجوك!

وساق الحوذى العربة بسرعة. ساروا فى البداية بحذاء صف من المبانى البائسة على امتداد فناء المستشفى، وساد الظلام إلا فى عمق الفناء، حيث انبعث ضوء ساطع من إحدى النوافذ عبر الحديقة، ولاحت ثلاث نوافذ فى الطابق الأعلى من مبنى المستشفى أكثر شحوبا من الجو. ثم دلفت العربة فى ظلام كثيف، وفاحت رائحة رطوبة فطرية وتناهى همس الأشجار. وجفلت الغربان النائمة وسط أوراق الشجر وقد أيقظها ضجيج العجلات وأطلقت نعيقا شاكيا قلقا، كأنما كانت تعلم أن الدكتور قد مات ابنه وأن أبوجين زوجته مريضة. ثم ومضت أشجار متفرقة ثم حرش، وتلألأت بركة جهمة ارتمت فوقها ظلال طويلة سوداء، وانسابت العربة فى سهل منبسط. وتناهى نعيق الغربان مكتوما بعيدا من ورائهم، ثم سرعان ما تلاشى تماما.

ظل كيريلوف وأبوجين صامتين طوال الوقت. مرة واحدة تنهد أبوجين بعمق وتمتم:

ـ يا له من عـذاب! إنك لا تحب أقـرباءك إلى هذه الدرجـة إلا عندمـا تواجه بخطر فقدانهم.

وعندما عبرت العربة النهر بهدوء انتفض كيريلوف كأنما أفزعته طرطشة الماء وتململ بقلق.

ثم قال بأسى:

ـ اسمع، اتركنى أرجوك. سآتى إليك فيما بعد. أريد فقط أن أرسل الممرض إلى زوجتى. إنها وحدها!

لزم أبوجين الصمت. ومرت العربة فوق الشاطئ الرملى وهى تهتز وتصطك بالأحجار، ثم واصلت سيرها. واستبدت الوحشة بكيريلوف فنظر حوله بقلق. على ضوء النجوم الشحيح لاح من خلفهم الطريق وصفصاف الشاطئ المتلاشى فى الظلام. وإلى اليمين ترامى سهل منبسط بلا حدود كالسماء أيضًا. وفى أطرافه البعيدة تناثرت أضواء كابية هنا وهناك ربما من غازات مستنقعات تحترق. وإلى اليسار، بحذاء الطريق، امتد تل مدغل بالأحراش الخفيفة، وفوق التل انتصب بلا حراك هلال كبير أحمر، تلفه غلالة ضبابية رقيقة، وتحيط به سحب صغيرة، بدت كأنها ترقبه من جميع الجهات وتحرسه كى لا يغيب.

ولاح فى الطبيعة كلها شىء ما ميئوس منه ومريض وكابدت الأرض، مثل امرأة ساقطة تجلس وحدها فى غرفة مظلمة وتحاول ألا تفكر فى الماضى، كابدت ضنى ذكريات الربيع والصيف، وأخذت تنتظر فى فتور وتبلد مجىء الشتاء المحتم. وحيثما جال البصر تبدت الطبيعة حفرة مظلمة سحيقة الأغوار وباردة، حفرة لن يستطيع الخروج منها لا كيريلوف، ولا أبوجين، ولا الهلال الأحمر..

وكلما اقتربت العربة من الهدف ازداد فروغ صبر أبوجين. كان يتململ، ويقفز واقفا، وينظر إلى الأمام من فوق كتفى الحوذى. وحينما

توقفت العربة أخيرا عند سلم المدخل المغطى بكسوة مخططة جميلة، وعندما نظر إلى النوافذ المضاءة فى الطابق الثانى، أصبح مسموعا اضطراب أنفاسه.

وقال وهو يدخل مع الدكتور إلى الردهة ويفرك راحتيه بانفعال.

ـ لو حدث لها شىء فـ. . لن أحتمل. ـ ثم أضاف وهو يصيخ السمع إلى السكون: ـ ولكنى لا أسمع جلبة، إذن فالأمور على ما يرام حتى الآن.

لم تسمع فى الردهة أصوات أو وقع أقدام، وبدا البيت كله نائما رغم الأنوار الساطعة. وأصبح الآن فى وسع الدكتور وأبوجين، اللذين لم يريا بعضهما البعض إلا فى الظلام، أن يتأمل كل منهما الآخر. كان الدكتور طويلا، محنى القامة، مهمل الثياب، ولم يكن جميل الوجه، وكان شفتاه الغليظتان كشفاة الزنوج، وأنفه المعقوف، ونظرته الذابلة اللامبالية تعبر عن شىء حاد منفر وقاس.

وكان رأسه المشعث، بصدغيه الغائرين، والشيب المبكر فى لحيته الطويلة الضيقة، التى كان ذقنه يلوح من بين شعرها، ولون بشرته الرمادى الشاحب، وحركاته الخرقاء الحادة. . كان كل ذلك يبعث بغلاظته على الاعتقاد بأنه عانى من الفاقة والبؤس، وأرهقته الحياة والناس. ولم يكن من الممكن أن تصدق، عندما تنظر إلى قامته الجافة، أن لدى رجل كهذا زوجة، وأنه يمكن أن يبكى على ابنه المتوفى. أما أبوجين فكان شيئا آخر. كان رجلا متين الجسم، رصينا، أشقر، كبير الرأس، وكانت تقاطيع وجهه ضخمة ولكنها ناعمة، ولباسه أنيق حسب آخر موضة. ولاح فى قامته، وفى سترته المزررة المحبوكة، وفى عرفة المسدل، وفى وجهه، شىء ما نبيل كما فى الأسود. وكان يسير منتصب الرأس، منفوخ الصدر، ويتحدث بنغمة «باريتون» لطيفة، وتجلت فى الطريقة التى نزع بها ملحفته وسوى بها

شعر رأسه رشاقة مرهفة، نسائية تقريبا. وحتى شحوبه، والذعر الطفولى الذى كان يتطلع به إلى أعلى الدرج وهو يخلع ملابسه الثقيلة، لم يفسدا هيئته، ولم ينتقصا من الشبع والصحة والثقة التى كان جسمه يطفح بها.

وقال وهو يصعد الدرج:

ـ ليس هناك أحد ولا أسمع شيئا. ليس هناك جلبة. استر يا رب!

وقاد الدكتور من الردهة إلى صالة كبيرة لاح فيها معزف أسود وتدلت من سقفها نجفة ملفوفة فى كيس أبيض. ومن هنا دلفا معا إلى غرفة جلوس صغيرة ولكنها مريحة جدا وجميلة ومعبأة بعتمة وردية لطيفة.

وقال أبوجين:

ـ اجلس هنا يا دكتور.. سأعود حالا. سأذهب لأنظر وأنبههم.

وبقى كيريلوف وحده. ويبدو أن فخامة غرفة الجلوس والعتمة المريحة، ووجوده هو نفسه فى بيت غريب وغير معروف، هذا الوجود الذى كان أشبه بمغامرة، كل ذلك لم يحرك فيه شيئا. جلس فى المقعد وأخذ يتأمل يديه اللتين كواهما حامض الكربوليك. ولمح أباجورة قانية الحمرة، وصندوق فيولنشيلو، ونظر بطرف عينه إلى الجهة التى كانت تصدر منها تكتكة ساعة فلاحظ ذئبا محنطا، وكان مهيبا وشبعان مثل أبوجين نفسه.

ساد الهدوء.. وفى مكان ما، فى الغرف المجاورة صاح أحدهم بصوت عال: «آه»، ورن باب زجاجى، وربما باب صوان، ثم هدأ كل شىء ثانية. وانتظر كيريلوف حوالى خمس دقائق، ثم كفّ عن تأمل يديه، ورفع عينيه إلى الباب الذى اختفى أبوجين خلفه.

عند عتبة ذلك الباب وقف أبوجين، ولكنه كان أبوجين آخر. اختفت من وجهه دلائل الشبع والرشاقة المرهفة، وشوه وجهه ويديه ووقفته تعبير

بشع لا يعرف إن كان من الرعب أم من الألم البدنى المضنى. كان أنفه وشفتاه وشواربه وكل ملامحه تتحرك، وبدا كأنها تريد أن تنفصل عن وجهه، أما عيناه فكأنما كانتا تضحكان ألما. .

وتقدم أبوجين بخطوات ثقيلة واسعة إلى وسط الغرفة، وانحنى وتأوه وهز قبضتيه.

ـ خدَعَتْنى! ـ صاح مشددا على آخر الكلمة ـ خدعتنى! هَرَبَتْ! ادّعت المرض وأرسلتنى فى طلب الدكتور فقط لكى تهرب مع هذا المهرج بابتشينسكى! يا إلهى!

اقترب أبوجين من الدكتور بخطوات ثقيلة، ومد نحو وجهه قبضتيه البيضاوين الطريتين وهو يهزهما، ومضى يقول:

ـ هربت! خدعتنى! فما الداعى لهذا الكذب؟ يا إلهى! يا إلهى! ما الداعى لهذا التحايل القذر، لهذه التمثيلية الشيطانية الأفعوانية؟ ماذا فعلت لها؟ هربت!

وطفرت الدموع من عينيه. ودار على قدم واحدة، ومضى يذرع الغرفة. أصبح الآن، بسترته القصيرة، وسرواله العصرى الضيق الذى بدت فيه ساقاه نحيلتين بما لا يتفق مع جسمه، وبرأسه الكبير وعرفه، أصبح شبيها بالأسد إلى حد كبير. وأشرق وجه الدكتور اللامبالى بفضول. فنهض وطاف على أبوجين بعينيه. وسأله:

ـ عفوا، ولكن أين المريضة؟

ـ المريضة! المريضة! ـ صرخ وهو يضحك ويبكى ويواصل هز قبضتيه. هذه ليست مريضة بل ملعونة! يا للدناءة! يا للوضاعة! الشيطان نفسه لا يمكن أن يهتدى إلى شىء أحط من ذلك! أبعدتنى لكى تهرب، تهرب مع مهرج، مع بهلوان بليد، مع عاهر! يا إلهى، كان أفضل لو ماتت! لن

أحتمل! أنا لن أحتمل!

شد الدكتور قامته. وطرفت عيناه وامتلأتا بالدموع، وتحركت لحيته الضيقة يمينا ويسارا، مع فكه.

وسأل وهو يتلفت حوله بفضول:

ـ عفوا، كيف هذا؟ ابنى مات، وزوجتى تعانى الفجيعة، وحيدة فى البيت.. وأنا لا أكاد أقوى على الوقوف، لم أنم ثلاث ليال.. ثم ماذا؟ يضطروننى إلى اللعب فى كوميديا مبتذلة، لعب دور الديكور! أنا.. أنا لا أفهم!

بسط أبوجين إحدى قبضتيه وقذف على الأرض برسالة مجعدة وداس عليها بقدميه كما يداس على حشرة بغية سحقها.

وقال من بين أسنانه المطبقة وهو يهز إحدى قبضتيه أمام وجهه وبتعبير شخص داس أحدهم على إصبع قدمه المريضة:

ـ وأنا لم أر شيئا.. لم أفهم! لم ألاحظ أنه يزورنا كل يوم. لم ألاحظ أنه جاء اليوم فى عربة! لماذا جاء فى عربة؟ لم أفطن، يا لى من زكيبة!

ودمدم الدكتور:

ـ لا أفهم.. ما معنى هذا؟ هذه سخرية بالناس، امتهان للعذاب الإنسانى! هذا شىء لا يعقل.. أول مرة فى حياتى أرى هذا!

هز الدكتور كتفيه وأشاح بيديه بدهشة متبلدة لإنسان بدأ يفهم لتوه فقط أنه أهين إهانة بالغة، وهو لا يدرى ماذا يقول أو ماذا يفعل، فتهالك على المقعد بإعياء.

ومضى أبوجين يقول بصوت باك:

ـ لنفرض أنك لم تعودى تحبيننى وأحببت شخصا آخر، لك الله،

ولكن ما الداعى للخداع، ما الداعى لهذه الحيلة الدنيئة الغادرة؟ ما الداعى؟ وعلام؟ ماذا فعلت لك؟ اسمع يا دكتور، ـ قال بحرارة وهو يقترب من كيريلوف ـ لقد كنت بالصدفة شاهدا على بلواى. ولن أخفى عنك الحقيقة. أقسم لك أننى أحببت هذه المرأة، أحببتها بخنوع كالعبد. من أجلها ضحيت بكل شىء: تخاصمت مع أهلى، هجرت الوظيفة والموسيقى، وغفرت لها ما لم أكن أستطيع أن أغفره حتى لأمى أو أختى.. لم أنظر إليها أبدا نظرة شزرة.. لم يبدر عنى أى مبرر، فلماذا هذا الكذب؟ أنا لا أطالبها بالحب. ولكن ما الداعى لهذا الخداع المقرف؟ إذا كنت لا تحبين فلتقولى ذلك مباشرة، بشرف، خاصة وأنت تعرفين نظرتى إلى هذه الأمور..

كان أبوجين يفضى بما فى قلبه للدكتور بصدق، والدموع تملأ عينيه، وجسده كله يرتعش. كان يتكلم بحرارة، ضاما كلتا يديه إلى قلبه، ويفشى كل أسراره العائلية دون أدنى تردد، بل بدا وكأنه سعيد بأن هذه الأسرار قد انطلقت أخيرا لتخرج من صدره. ولو أنه تكلم هكذا ساعة أو ساعتين، ولو أنه فضفض عن نفسه لأحس قطعا بارتياح. ومن يدرى، فلو أن الدكتور أصغى إليه، وواساه بمودة فربما، وكما يحدث كثيرا، أذعن لبلواه دون تذمر، ودون أن يرتكب حماقات لا داعى لها.. ولكن الأمور سارت بشكل آخر. فبينما كان أبوجين يتكلم تغير الدكتور المهان تغيرا ملحوظا. تراجعت اللامبالاة والدهشة من على وجهه شيئا فشيئا ليحل محلهما تعبير الإهانة المرة والسخط والغضب. أصبحت ملامحه أكثر حدة وخشونة ونفورا. وعندما قرب أبوجين من عينيه صورة امرأة شابة بوجه جميل ولكنه جاف غير معبر كوجه الراهبة، وسأله هل تستطيع بالنظر إلى هذا الوجه أن تتصور أنه يمكن أن يعبر عن الكذب، قفز الدكتور فجأة، ولمعت عيناه، وقال وهو يضغط على كل كلمة بخشونة:

ـ لماذا تقول لى كل هذا؟ أنا لا أرغب فى سماعه! لا أرغب! ـ صرخ

وهو يدق الطاولة بقبضته ـ لست بحاجة إلى أسرارك المبتذلة، عليها اللعنة! إياك أن تقول لى هذه الأشياء الوضيعة! أم إنك تظن أننى لم أُهَنْ بما فيه الكفاية؟ أننى خادم يمكن إهانته بلا نهاية؟ نعم؟

تراجع أبوجين مبتعداً عن كيريلوف وهو يحدق فيه بذهول.

ومضى الدكتور يقول ولحيته تهتز.

ـ لماذا جئت بى إلى هنا؟ إذا كنتم من الشبع تتزوجون، ومن الشبع تركبكم الشياطين فتختلقون الميلودرامات، فما دخلى أنا؟ ما لى أنا بقصصكم الغرامية؟ دعونى وشأنى! تمرنوا على المشاجرات النبيلة، تصوروا أنكم أصحاب أفكار إنسانية، اعزفوا (ونظر الدكتور إلى صندوق الفيولنشيلو) اعزفوا على الكونترباص، وعلى البوق، اسمنوا كالديوك المعلوفة، لكن إياكم والسخرية بكرامة الناس! إذا لم يكن فى وسعكم أن تحترموها فاعفوها على الأقل من اهتمامكم!

فسأل أبوجين وهو يتضرج:

ـ اسمح لى، ما معنى هذا؟

ـ معناه أنه من الحقارة والانحطاط أن تهزأوا بالناس إلى هذه الدرجة! إننى طبيب، وأنتم تعتبرون الأطباء، والعمال عموما، الذين لا تنبعث منهم روائح العطور والدعارة، تعتبرونهم خدما لكم وقليلى الذوق، حسنا، فلتعتبروهم كما تشاءون، لكن أحدا لم يعطكم الحق فى أن تجعلوا من شخص يعانى قطعة ديكور!

ـ كيف تجرؤ على أن تقول لى هذا؟ ـ سأل أبوجين بصوت خافت، واحمر وجهه ثانية من الغضب فى هذه المرة.

ـ بل كيف جرؤت أنت على المجيء بى إلى هنا، لأسمع هذه الأشياء الوضيعة، وأنت تعلم مدى فجيعتى ـ صرخ الدكتور ودق الطاولة بقبضته ثانية ـ من الذى أعطاك الحق فى السخرية بآلام الآخرين إلى هذا الحد؟

فصرخ أبوجين :

ـ أنت جننت! ليس هذا كرم أخلاق! أنا نفسى تعيس جدا و . . و . .

فضحك الدكتور ضحكة احتقار قصيرة وقال :

ـ تعيس . . دع هذه الكلمة فهى لا تخصك . فالعاطلون الذين لا يجدون ما يسددون به كمبيالاتهم يعتبرون أنفسهم أيضا تعساء . والديك المعلوف ، الذى يخنقه الدهن ، أيضا تعيس . يا للنفوس الحقيرة!

فصرخ أبوجين محتدا :

ـ قف عند حدك يا سيد! مثل هذه الكلمات تستوجب . . الضرب! فاهم؟

ودس أبوجين يده فى جيبه بسرعة ، وأخرج منه محفظته ، واستل منها ورقتين ماليتين وألقى بهما على المائدة .

وقال ومنخاراه يرتعشان :

ـ خذ ، هذه أتعابك!

فصاح الدكتور وهو يكنس النقود بيده من فوق الطاولة إلى الأرض :

ـ إياك أن تعرض علىّ نقودا! الإهانة لا يدفع ثمنها نقودا!

وقف أبوجين والدكتور وجها لوجه ، وأخذا فى سورة الغضب يكيلان بعضهما للبعض الإهانات الباطلة . ويبدو أنهما لم يتفوها فى حياتهما أبدا ، ولا حتى فى الهذيان ، بمثل هذه الكلمات الظالمة والقاسية والخرقاء . لقد تكشفت فى كل منهما بقوة أنانية التعساء . فالتعساء أنانيون ، شريرون ، ظالمون ، قساة ، وأقل من الحمقى قدرة على فهم بعضهم بعضا . التعاسة لا تجمع بين الناس بل تفرقهم ، وحتى فى تلك الأحوال التى قد يخيل لك فيها أن تشابه البلوى ينبغى أن يربط بين الناس ، يرتكب من المظالم والشرور أكثر بكثير مما فى أوساط الهانئين نسبيا .

وصاح الدكتور وهو يختنق :

ـ لتأمر بتوصيلى إلى البيت!

فقرع أبوجين الجرس بحدة. وعندما لم يأت أحد تلبية لطلبه قرع الجرس مرة ثانية ثم ألقى به على الأرض فى غضب. وارتطم الجرس بالبساط بصوت مكتوم وصدر عنه أنين شاك كأنما لفظ آخر أنفاسه. وجاء الخادم.

فانفجر فيه أبوجين وهو يشد قبضتيه :

ـ أين اختفيتم أيها الملاعين؟ أين كنت الآن؟ امش من هنا وقل لهم أن يعدوا العربة لهذا السيد ويعدوا لى الحنطور! ـ وصاح عندما استدار الخادم لينصرف ـ انتظر! إياك أن يبقى إلى الغد أى واحد من الخونة فى البيت! كلكم مطرودون! سأستأجر غيركم! أيها الأوغاد!

لزم أبوجين والدكتور الصمت فى انتظار العربات. وعادت إلى الأول مظاهر الشبع والرشاقة الرهيفة. وأخذ يذرع غرفة الجلوس وهو يهز رأسه برشاقة ويدبر، فيما يبدو، أمرا ما. لم تخمد سورة غضبه بعد، ولكنه حاول أن يبدو كأنه لا يلاحظ عدوه.. أما الدكتور فكان واقفا، مرتكزا بإحدى يديه على حافة الطاولة وهو ينظر إلى أبوجين بذلك الاحتقار العميق الوقح بعض الشيء والقبيح، الذى لا ينظر به سوى الفاجعة والبؤس عندما يريان امامهما الشبع والرفاهية.

وفيما بعد، عندما استقل الدكتور العربة ورحل، ظلت عيناه تنظران بنفس الاحتقار. كان الجو مظلما، أشد ظلاما بكثير مما كان منذ ساعة. واختفى الهلال الأحمر خلف تل، وانتشرت السحب التى كانت تحرسه واستقرت بجوار النجوم بقعا داكنة. ودق الحنطور ذو الفوانيس الحمراء بعجلاته على الطريق ولحق بالدكتور وسبقه. كان يركبه أبوجين الذى رحل ليحتج ويرتكب حماقات ما..

وظل الدكتور طوال الطريق يفكر لا فى زوجته ولا فى ابنه أندريه، بل فى أبوجين وسكان البيت الذى تركه منذ قليل. وكانت أفكاره ظالمة وقاسية بصورة لا إنسانية. كان فى تفكيره يدين أبوجين وزوجته وبابتشينسكى وكل من يعيشون فى العتمة الوردية ويتضوعون عطرا، وظل طوال الوقت يمقتهم ويحتقرهم إلى حد الألم فى القلب. واستقر فى ذهنه اعتقاد راسخ حول هؤلاء الأشخاص.

وسوف يمر الزمن، وسوف تمر فجيعة كيريلوف، بيد أن هذا الاعتقاد الظالم، غير الجدير بالقلوب البشرية لن يزول، وسيبقى فى ذهن الدكتور حتى الممات.

مغنية الكورس

ذات مرة، عندما كانت أكثر صبى وجمالا وأقوى صوتا، جلس عندها فى البيت الصيفى، فى السندرة، عشيقها نيقولاى بتروفتش كولباكوف. كان الجو حارا وخانقا إلى درجة لا تطاق. وقد فرغ كولباكوف لتوه من الغداء ومن شرب زجاجة كاملة من الخمر الردىء، وكان مزاجه معتلا وصحته متوعكة. كان كلاهما يضجر وينتظر انحسار الحر حتى يخرجا للتنزه.

وفجأة، وعلى غير انتظار، قرع جرس الباب، فقفز كولباكوف، الذى كان بلا حلة وفى شبشب ونظر إلى «باشا».

فقالت المغنية:

ـ ربما كان ساعى البريد، أو إحدى صديقاتى.

لم يكن كولباكوف ليخجل من صديقة «باشا» أو من ساعى البريد، ولكنه على أية حال غرف ملابسه تحت إبطه ومضى إلى الغرفة الداخلية، بينما هرعت «باشا» لتفتح الباب. ولدهشتها الشديدة لم يكن على العتبة لا ساعى البريد ولا صديقتها، بل امرأة لا تعرفها، شابة، جميلة، ترتدى ملابس محترمة، وتشير كل الدلائل إلى أنها من بيئة راقية.

كانت المرأة الغريبة شاحبة، تلهث كأنها ارتقت درجا عاليا.

وسألتها «باشا»:

ـ أى خدمة؟

لم ترد السيدة فورا. خطت خطوة إلى الأمام، وتفحصت الغرفة ببطء، ثم جلست متهالكة كأنما لا تستطيع الوقوف من التعب أو المرض. ثم أخذت تحرك شفتيها الشاحبتين فترة طويلة وهى تحاول أن تلفظ شيئا ما.

وأخيرا سألت وقد رفعت إلى «باشا» عينين واسعتين بجفنين أحمرين من البكاء:

ـ هل زوجى عندك؟

ـ أى زوج؟ ـ تمتمت «باشا»، وفجأة تملكها الرعب إلى درجة تثلجت معها أطرافها ـ أى زوج؟ ـ كررت وقد بدأت ترتعش.

ـ زوجى.. نيقولاى بتروفتش كولباكوف.

ـ لا.. لا يا سيدتى.. أنا لا أعرف أى زوج.

ومرت دقيقة صمت. مسحت المرأة المجهولة شفتيها الشاحبتين بمنديلها عدة مرات، ولكى تتغلب على الرجفة الداخلية كتمت أنفاسها، أما «باشا» فوقفت أمامها متسمرة بلا حراك وهى تتطلع إليها بحيرة وخوف.

وسألت السيدة بصوت أصبح حازما، وابتسمت ابتسامة غريبة:

ـ إذن تقولين إنه ليس هنا؟

ـ أنا.. أنا لا أعرف عمن تسألين.

فدمدمت المرأة المجهولة وهى تلقى على «باشا» نظرة حقد وتقزز:

ـ أنت لئيمة، منحطة، حقيرة.. نعم، نعم.. لئيمة. يسعدنى جدا أننى أستطيع، أخيرا، أن أقول لك هذا!

وشعرت «باشا» أنها تثير فى نفس هذه المرأة المتشحة بالسواد وذات العينين الغاضبتين والأنامل الدقيقة البيضاء، إحساسا بأنها شىء كريه

بشع، فتملكها الخجل من خديها الأحمرين المتفخين ومن النمش على أنفها، ومن قُصَّتها المنسدلة على جبينها والتى لا تستجيب أبدا للتمشيط إلى أعلى. وخيل إليها أنها لو كانت نحيفة، بدون مساحيق وبدون قُصة، لكان من الممكن إخفاء سوء سلوكها، ولما خافت وخجلت إلى هذا الحد من الوقوف أمام هذه المرأة المجهولة الغامضة.

واستطردت السيدة تسأل:

ـ أين زوجى؟ على العموم سيان إن كان هنا أم لا، ولكنى يجب أن أقول لك إنه تم اكتشاف تبديد أموال وأنهم يبحثون عن نيقولاى بتروفتش.. يريدون إلقاء القبض عليه.. انظرى ماذا فعلت به!

نهضت السيدة وتمشت فى الغرفة بانفعال شديد. ونظرت إليها «باشا» وقد عجزت من الخوف عن فهم شىء.

وقالت السيدة:

ـ سوف يعثرون عليه اليوم ويعتقلونه.. ـ وشهقت باكية، وتجلت الإهانة والحزن فى هذا الصوت. ـ أنا أعرف من الذى دفع به إلى هذه الفظاعة! أنت لئيمة، حقيرة! مخلوق كريه، مرتزق! (والتوت شفتا المرأة وتقلص أنفها من التقزز). ـ أنا عاجزة.. اسمعى أيتها المرأة المنحطة! أنا عاجزة، أنت أقوى منى، ولكن لى من يدافع عنى وعن أولادى! الرب يرى كل شىء! إنه عادل! سينتقم منك لكل دمعة من دموعى، ولكل ليالى السهاد! سيأتى اليوم الذى تتذكريننى فيه!

وساد الصمت من جديد. كانت السيدة تروح وتجىء فى الغرفة وهى تلوى ذراعيها، بينما ظلت «باشا» تحدق فيها ببلادة وحيرة وعدم فهم وتتوقع منها شيئا ما رهيبا.

وفجأة قالت وهى تنخرط فى البكاء:

ـ أنا لا أعرف شيئا يا سيدتى!

فصاحت السيدة وحدجتها بنظرة غاضبة لاهبة:

ـ كذابة! أنا أعرف كل شىء! أعرفك من زمان! أعرف أنه فى الشهر الأخير كان يتردد عليك كل يوم!

ـ نعم. وماذا فى ذلك؟ يزورنى ضيوف كثيرون، أنا لا أجبر أحدا على المجىء. كل واحد حر فيما يفعله.

ـ إننى أقول لك: تم اكتشاف تبديد أموال! اختلس أموالا عهدة وبددها! من أجل واحدة.. مثلك، من أجلك أقدم على جريمة. ـ وقالت السيدة بنبرة حازمة وهى تتوقف قبالة «باشا». ـ اسمعى، لا يمكن أن تكون لديك مبادئ، أنت تعيشين فقط لتجلبى الشر، وهذا هو هدفك، ولكنى لا أظن أنك بلغت من الانحطاط إلى الدرجة التى لم يبق فيها لديك أثر لإحساس إنسانى! إن لديه زوجة وأطفالا.. لو حكموا عليه وسجنوه فسنموت أنا والأولاد جوعا.. افهمى هذا! ولكن توجد وسيلة لإنقاذه وإنقاذنا من البؤس والفضيحة. لو أنا أعدت اليوم تسعمائة روبل فسيدعونه وشأنه. تسعمائة روبل فقط!

فسألت «باشا» بصوت خافت:

ـ أية تسعمائة روبل؟.. أنا.. أنا لا أعرف.. لم آخذ شيئا..

ـ أنا لا أطلب منك تسعمائة روبل.. فليس لديك نقود، كما أننى لا أطمع فى أملاكك. أنا أطلب شيئا آخر.. الرجال عادة ما يهدون للنساء من أمثالك أشياء ثمينة. أعيدى فقط الأشياء التى أهداها لك زوجى!

فهتفت «باشا» وقد بدأت تدرك:

ـ يا سيدتى، لم يهد لى أى شىء!

ـ فأين ذهبت النقود؟ لقد بدد مالى وماله ومال العهدة. . فأين ذهب هذا كله؟ اسمعى، إننى أرجوك! لقد كنت غاضبة ووجهت إليك إساءات كثيرة ولكنى أعتذر. أنا أعرف أنك تمقتيننى، ولكن إذا كنت قادرة على الشفقة فضعى نفسك فى مكانى! أتوسل إليك، أعطينى الأشياء!

ـ همْ. . ـ قالت «باشا» وهزت كتفيها. ـ بكل سرور، ولكن أقسم لك بالله إنَه لم يهد لى أى شىء. صدقينى. ـ ثم ارتبكت المغنية وقالت: ـ على العموم أنت على حق. لقد أهدانى ذات مرة قطعتين. تفضلى، خذيهما إذا شئت. .

وسحبت «باشا» أحد أدراج التسريحة، وأخرجت منه سواراً ذهبيا مجوفا، وخاتما صغيرا بحجر عقيق:

وقالت وهى تمدهما للضيفة:

ـ تفضلى!

وتضرج وجه السيدة وارتعش. لقد أحست بإهانة. وقالت:

ـ ما هذا الذى تعطينه لى؟ إننى لا أطلب منك صدقة، بل أطلب ما ليس ملكك. . ما اعتصرته، مستغلة وضعك، من زوجى. . من هذا الرجل الضعيف البائس. . يوم الخميس، عندما رأيتك مع زوجى عند المرفأ، كنت تضعين بروشات وأساور غالية. إذن فلا معنى لأن تمثلى معى دور الحمل الوديع! إننى أرجوك للمرة الأخيرة: هل ستعطيننى الأشياء أم لا؟

ـ فقالت «باشا» وقد بدأت تغضب:

ـ يا لك من غريبة حقا!. . أؤكد لك أننى لم آخذ من زوجك نيقولاى بتروفتش أى شىء سوى هذا السوار والخاتم. لم يكن يأتى إلىّ إلا بفطائر حلوة.

فضحكت السيدة المجهولة بسخرية:

ـ فطائر حلوة . . الأولاد فى البيت لا يجدون ما يأكلونه ، وههنا يأكلون فطائر حلوة . إذن فأنت ترفضين رفضا قاطعا إعادة الأشياء؟

وعندما لم تتلق السيدة ردا جلست وهى تحدق فى شىء ما .

ثم قالت :

ـ وما العمل الآن؟ إذا لم أحصل على تسعمائة روبل فسوف يهلك ، وأنا والأولاد أيضا سنهلك . ترى هل أقتل هذه الحقيرة أم أركع أمامها على ركبتى؟

ودفنت السيدة وجهها فى المنديل وأعولت .

وتردد صوتها من خلال الدموع :

ـ أرجوك! أنت نهبت زوجى ودمرته ، هيأ أنقذيه . . ليس بقلبك شفقة عليه ، ولكن الأولاد . . الأولاد . . ما ذنبهم؟

وتخيلت «باشا» الأولاد الصغار وهم يقفون فى الطريق ويبكون من الجوع فأجهشت هى أيضا بالبكاء .

وقالت :

ـ وماذا أستطيع يا سيدتى؟ أنت تقولين إننى حقيرة نهبت نيقولاى بتروفتش ، ولكنى أقسم لك ، والله شاهد ، إننى لم أستفد منه شيئا . . فى كورسنا موتيا وحدها التى لديها عشيق غنى ، أما نحن جميعا فنأكل لقمتنا بالكفاف . نيقولاى بتروفتش سيد متعلم ومهذب ، ولهذا كنت أستقبله فلا يمكننا ألا نستقبل الضيوف .

ـ أنا أطلب الأشياء! أعطينى الأشياء! إننى أبكى . . أتذلل . . تفضلى ، سأركع على ركبتى! تفضلى!

صرخت «باشا» رعبا وأشاحت بيديها . وأحست أن هذه السيدة

الشاحبة الجميلة، التى تتحدث بعبارات سامية، كما فى المسرح، تستطيع بالفعل أن تركع أمامها على ركبتيها، وبالذات بدافع الكبرياء، والنبل، ولكى تعلى من قدرها وتحط من قدر المغنية.

وارتبكت «باشا» مهرولة وهى تمسح دموعها وتقول:

ـ حسنا، سأعطيك الأشياء! تفضلى! ولكنها ليست من نيقولاى بتروفتش.. أهداها لى ضيوف آخرون.. فليكن كما تشائين..

وسحبت الدرج العلوى للكمودينو، وأخرجت منه بروشا بفصوص من الماس، وعقدا من المرجان، وعدة خواتم، وسوارا، وأعطت كل ذلك للسيدة.

واستطردت «باشا» تقول وقد أهانها التهديد بالركوع على الركبتين:

ـ خذيها إذا شئت، ولكنى لم أستفد من زوجك شيئا. خذى، اشبعى! وإذا كنت محترمة.. وزوجته الشرعية، فلتمسكى به إلى جوارك.. يعنى! أنا لم أدعه إلىّ، هو الذى جاء بنفسه..

نظرت السيدة من خلال دموعها إلى الأشياء التى قدمت لها وقالت:

ـ ليس هذا كل شىء.. هذه لا تبلغ قيمتها حتى خمسمائة روبل.

فألقت «باشا» من الكمودينو فى حدة بساعة ذهبية، وعلبة سجائر، وأزرار أساور قميص، وقالت وهى تباعد ذراعيها:

ـ ليس عندى شىء آخر. فتشى إذا شئت! فتنهدت الضيفة، ولفت الأشياء فى منديلها بأصابع مرتعشة، وخرجت دون أن تنبس بكلمة، بل حتى لم تومئ برأسها.

وفتح باب الغرفة المجاورة، ودخل كولباكوف. كان شاحبا ورأسه ينتفض فى عصبية، كأنما تناول لتوه دواء مرا. وترقرقت عيناه بالدموع. وهاجمته «باشا»:

ـ ما هى الأشياء التى أهديتها لى؟ متى كان ذلك لو سمحت؟

فدمدم كولباكوف وهز رأسه:

ـ الأشياء.. الأشياء أمر تافه! يا إلهى! لقد بكت أمامك، تذللت..

فصرخت «باشا»:

ـ إننى أسألك: أية أشياء أهديتها لى؟

ـ يا إلهى، هى الشريفة، الأبية، الطاهرة.. أرادت أن تركع على ركبتيها أمام.. أمام هذه العاهرة! أنا الذى أوصلتها إلى هذا الحد! أنا سمحت بهذا!

وأمسك رأسه بين يديه وتأوه:

ـ لا، لن أغفر لنفسى هذا أبدا! لن أغفر! ـ وصاح بنفور وهو يتراجع عن «باشا» ويصدها بيدين مرتعشتين: ـ ابتعدى عنى.. يا حقيرة! أرادت أن تركع على ركبتيها.. وأمام من؟ أمامك! أوه يا إلهى!

وارتدى ملابسه بسرعة، واتجه نحو الباب وهو يتحاشى «باشا» بتقزز، وخرج.

استلقت «باشا» فى الفراش وأخذت تنتحب بصوت عال. كانت تشعر الآن بالأسف على أشيائها التى أعطتها فى لحظة تهور، كما كانت تشعر بالإهانة. وتذكرت كيف ضربها أحد التجار منذ ثلاث سنوات دون سبب أو ذنب، فعلا نحيبها.

فى البيت

ـ جاء رسول من آل جريجوريف يطلب كتابا، ولكنى قلت إنكم لستم فى المنزل. وحمل ساعى البريد جرائد ورسالتين. وبالمناسبة يا يفجينى بتروفيتش أرجو أن تولوا اهتمامكم إلى سيريوجا. فقد لاحظت اليوم، وأول أمس، أنه يدخن. وعندما بدأت أوبخه سد أذنيه كالعادة وأخذ يغنى بصوت عال لكيلا يسمع ما أقول.

كان يفجينى بتروفتش بيكوفسكى وكيل نيابة الناحية، قد عاد لتوه من جلسة المحكمة وفرغ من نزع قفازه فى غرفة مكتبه، فنظر إلى المربية التى كانت تبلغه هذا التقرير وضحك.

وقال وهو يهز كتفيه:

ـ سيريوجا يدخن.. إننى أتخيل منظر هذا الصغير والسيجارة فى فمه! ولكن كم عمره؟

ـ فى السابعة. قد يبدو لكم هذا غير جدى، ولكن التدخين فى سنه عادة سيئة ومضرة، والعادات السيئة ينبغى القضاء عليها فى بدايتها.

ـ أنت على حق تماما. ومن أين يحصل على التبغ؟

ـ من درج مكتبكم.

ـ حقا؟ فى هذه الحالة أرسليه إلىّ.

وبعد انصراف المربية جلس بيكوفسكى فى المقعد أمام مكتبه، وأغمض

عينيه، وأخذ يفكر. ولسبب ما رسم فى خياله صورة لابنه سيريوجا وفى فمه سيجارة ضخمة طويلة، وتلفه سحب دخان السجائر، فجعلته هذه الصورة الكاريكاتيرية يبتسم. وفى الوقت نفسه أثار وجه المربية الجاد المهموم فى نفسه ذكريات الماضى البعيد، المنسى تقريبا، عندما كان التدخين فى المدرسة أو فى غرفة الأطفال يثير فى نفوس المدرسين والآباء رعبا غريبا، غير مفهوم تقريبا. كان ذلك رعبا بالفعل. وكانوا يضربون الأولاد بقسوة، ويفصلونهم من المدرسة، ويفسدون عليهم مستقبلهم، رغم أن أحدا من المدرسين أو الآباء لم يكن يعلم بالضبط ما هو الضرر من التدخين وما هى الجريمة فى ذلك. وحتى أذكى الأشخاص لم يترددوا فى مكافحة الرذيلة التى لم يكونوا يفهمونها. وتذكر يفجينى بتروفيتش ناظر مدرسته، ذلك العجوز المثقف جدا والطيب القلب والذى كان يتملكه الرعب إلى درجة الشحوب عندما يضبط تلميذا يدخن، فيجمع على الفور مجلس المربين ويحكم على المذنب بالفصل. يبدو أن تلك هى طبيعة قانون الحياة المشتركة: فكلما ازداد الشر غموضا أصبحت مقاومته أكثر ضراوة وفظاظة.

وتذكر وكيل النيابة اثنين أو ثلاثة من المفصولين، وتابع مجرى حياتهم بعد ذلك، فلم يستطع أن يمنع نفسه من التفكير بأن العقاب كثيرا ما يعود بشر أكثر من الجريمة نفسها. فالجسم الحىّ يملك القدرة على التكيف السريع والتعود والتأقلم مع أى وسط، وإلا لكان على الإنسان أن يشعر فى كل لحظة بمدى انعدام الحكمة فى أساس نشاطه الحكيم، وبضآلة الحقيقة المستوعبة والثقة، حتى فى تلك الأنشطة المسئولة وذات الآثار الخطيرة كالنشاط التربوى، والقانونى والأدبى. .

أخذت مثل هذه الأفكار الخفية الغائمة، والتى لا تراود إلا الذهن المتعب ساعة الراحة، تدور فى رأس يفجينى بتروفتش. كانت تظهر من حيث لا يعرف ونسبب لا يدريه، وتبقى فى رأسه قليلا، فتبدو وكأنها

تزحف فوق المخ دون أن تغوص عميقا فيه. وبالنسبة للأشخاص الذين يتوجب عليهم أن يفكروا بطريقة رسمية، وفى اتجاه واحد لساعات طويلة وربما لأيام، تمثل مثل هذه الأفكار المنزلية الحرة نوعا من الراحة والاستجمام اللذيذ.

كانت الساعة حوالى التاسعة مساء. وفوق غرفة المكتب، فى الطابق الثانى، وراء السقف، كان شخص ما يسير من ركن لركن، وأعلى من ذلك، فى الطابق الثالث تردد عزف ثنائى على البيانو. وأضفت خطوات ذلك الشخص الذى كان، حسبما بدا من مشيته العصبية، يعذبه التفكير، أو يعانى من ألم فى أسنانه، والأنغام الرتيبة، أضفت على هدوء المساء جوا ناعسا يبعث على الاستسلام للتفكير الكسول. وعبر غرفتين تناهى حديث المربية مع سيريوجا فى غرفة الأطفال.

وأخذ الصبى يغنى:

ـ با.. با وصل! با.. با وصـ..ـل! با... با.. با!

وصرخت المربية بصوت رفيع كطائر مذعور:

votre pere vous appelle, allez vite![1] إننى أخاطبك!

وقال يفجينى بتروفتش لنفسه: «ولكن ماذا أقول له؟»

وقبل أن يهتدى إلى شىء دخل غرفة المكتب ابنه سيريوجا، الصبى ذو الأعوام السبعة. كان شخصا لا يمكن الحكم على جنسه سوى من ملبسه.. قليل الحجم، شاحب الوجه، هشا.. كان ذابل الجسم مثل نبات دفيئة، وبدا كل شىء فيه رقيقا وناعما جدا: حركاته، وشعره المجعد الخصلات، ونظرته، وسترته المخملية.

وقال بصوت ناعم وهو يعتلى ركبتى أبيه ويقبله فى عنقه بسرعة:

---

(١) والدك يدعوك، هيا بسرعة (بالفرنسية فى الأصل) **(المعرب)**.

ـ مرحبا بابا! هل دعوتنى؟

فأجاب وكيل النيابة وهو ينحيه عنه :

ـ اسمح لى، اسمح لى يا سيرجى يفجينيتش[1]. قبل القبلات ينبغى علينا أن نتحدث، ونتحدث بجدية. . إننى غاضب منك ولم أعد أحبك. نعم، فلتعلم يا أخى أننى لا أحبك، وأنك لست ابنى. . نعم.

تطلع سيريوجا إلى أبيه باهتمام، ثم حول نظره إلى الطاولة وهز كتفيه.

ثم سأل بدهشة وعيناه تطرفان :

ـ وماذا فعلت لك؟ أنا لم أدخل مكتبك اليوم ولا مرة، ولم ألمس شيئا.

ـ اشتكت لى نتاليا سيميونوفنا الآن من أنك تدخن. . هل هذا صحيح؟ هل تدخن؟

ـ نعم، دخنت مرة. . هذا صحيح!

فقال وكيل النيابة عابسا ليخفى ابتسامته :

ـ انظر، ها أنت ذا فوق ذلك تكذب. لقد رأتك نتاليا سيميونوفنا تدخن مرتين. إذن فأنت قد ضبطت متلبسا بثلاثة أعمال سيئة : فأنت تدخن، وتأخذ تبغا ليس لك من المكتب، وتكذب. ثلاثة ذنوب!

فقال سيريوجا متذكرا بينما ابتسمت عيناه :

ـ آه، نعم! هذا صحيح، صحيح! أنا دخنت مرتين : اليوم ومن قبل.

ـ هل رأيت؟ إذن مرتين وليس مرة واحدة. . أنا غير راض عنك أبدا، أبدا! كنت صبيا طيبا من قبل، أما الآن فأرى أنك فسدت وأصبحت سيئا.

وسوى يفجينى بتروفيتش ياقة سيريوجا وفكر :

---

(١) المخاطبة بالاسم الكامل واسم الأب تستخدم مع الكبار للاحترام. ويريد الأب هنا أن يضفى على حديثه مع ابنه الصغير طابع الجدية. **(المعرب)**.

«ماذا أقول له بعد؟»

ثم استطرد يخاطبه:

ـ نعم، هذا أمر سيىء. لم أكن أتوقع ذلك منك. فأولا، لا يحق لك أن تأخذ تبغا ليس ملكك. من حق كل إنسان أن يستخدم فقط ما يملكه، أما إذا استولى على ما ليس له فهو.. فهو إنسان سيىء! (وفكر يفجينى بتروفتش: «ليس هذا هو المطلوب قوله!») فمثلا نتاليا سيميونوفنا عندها صندوق ملابس. إنه صندوقها، ولا يحق لنا، أقصد أنا وأنت، أن نمسه، لأنه ليس صندوقنا. أليس كذلك؟ وأنت لديك لعب وصور.. وأنا لا أستولى عليها، أليس كذلك؟ ربما كنت أريد أن أستولى عليها.. ولكنها ليست لى، بل لك!

فقال سيريوجا وقد رفع حاجبيه:

ـ خذها إذا كنت تريد! لا تخجل يا بابا من فضلك، خذها! هذا الكلب الأصفر على مكتبك هو كلبى، ولكنى لا أقول شيئا.. فليبق على مكتبك!

فقال بيكوفسكى:

ـ أنت لا تفهمنى. هذا الكلب أنت أهديتنيه، فهو الآن ملكى، وبوسعى أن أفعل به ما أريد. ولكنى لم أعطك التبغ! التبغ ملكى أنا! (وفكر وكيل النيابة: «ليس هذا ما ينبغى أن أوضحه! ليس هذا أبدا!») ولو أردت أنا أن أدخن تبغا ليس لى، فعلىّ قبل كل شىء أن أستأذن..

أخذ بيكوفسكى يشرح لابنه ما معنى الملكية، وهو يشبك العبارة بالعبارة فى كسل ويتصنع لهجة الأطفال. وكان سيريوجا يصغى إليه باهتمام وهو يحدق فى صدره (كان يحب التحدث مع أبيه فى أوقات المساء)، ثم اتكأ على طرف المكتب وزر عينيه القصيرتى النظر محدقًا فى الأوراق والمحبرة. وطافت نظراته على المكتب ثم توقفت على زجاجة صمغ عربى.

وسأل فجأة وهو يقرب الزجاجة من عينيه :

ـ بابا ، ممّ يصنع الصمغ؟

فأخذ بيكوفسكى الزجاجة منه ووضعها فى مكانها ، وأكمل :

ـ وثانيا أنت تدخن . . وهذا شىء سيىء جدا! فإذا كنت أنا أدخن فهذا لا يعنى أبدا أن التدخين مسموح به . أنا أدخن وأعرف أن ذلك ليس من الحكمة ، وأوبخ نفسى ولا أحبها بسبب ذلك . . (وفكر بيكوفسكى : «يا لى من مرب مكار!») . ـ التبغ ضار جدا بالصحة ، ومن يدخن يموت مبكرا . والتدخين ضار بصفة خاصة بالصغار أمثالك . فصدرك ضعيف ، وأنت لم تصبح قويا بعد ، والتدخين يصيب الضعفاء بالسل وغيره من الأمراض . عمك أجناتى مثلا مات بالسل . لو لم يكن يدخن فربما عاش حتى اليوم .

تطلع سيريوجا مفكرا إلى المصباح ، وتحسس الأباجورة بإصبعه وتنهد . وقال :

ـ كان عمى أجناتى يعزف جيدا على الكمان! كمانه الآن عند آل جريجوريف!

واتكأ سيريوجا ثانية على طرف المكتب واستغرق فى التفكير . وعلى وجهه الشاحب استقر تعبير وكأنما كان يصغى أو يتابع سير أفكاره الخاصة . وبدا فى عينيه الواسعتين اللتين لا تطرفان حزن أو شىء أشبه بالذعر . ربما كان يفكر الآن فى الموت الذى اختطف منذ زمن قريب أمه وعمه أجناتى . فالموت يحمل إلى العالم الآخر الأمهات والأعمام ، بينما يبقى أولادهم وكماناتهم على الأرض . ويعيش الموتى فى السماء ، فى مكان ما قرب النجوم ، وينظرون من هناك إلى الأرض . ترى هل يتحملون ألم الفراق؟

وفكر يفجينى بتروفتش : «ماذا أقول له؟ إنه لا يصغى إلىّ . يبدو أنه لا يعير أهمية لذنوبه ولا لحججى . كيف أقنعه؟» .

ونهض وكيل النيابة وأخذ يذرع غرفة المكتب. وأخذ يفكر:

« فى الماضى، على أيامى، كانت هذه المسائل تحل بمنتهى البساطة: كانوا يجلدون الصبى المتلبس بالتدخين. وكان الجبناء وضعفاء القلوب يقلعون فعلا عن التدخين. أما الأكثر شجاعة وذكاء فكانوا، بعد العلقة، يخبئون التبغ فى رقبة الحذاء العالى ويدخنون فى الحظيرة. وعندما يضبطون الصبى فى الحظيرة ويجلدونه ثانية، كان يذهب إلى شاطئ النهر ليدخن.. وهكذا دواليك حتى يكبر. كانت أمى تغدق علىّ النقود والحلوى حتى لا أدخن. أما الآن فتعتبر هذه الوسائل تافهة ولا أخلاقية. فالمربى الحديث، وقد تسلح بالمنطق، يحاول أن يجعل الطفل يتقبل المبادئ الخيرة لا بدافع الخوف أو الرغبة فى التميز أو طمعا فى مكافأة، بل عن وعى».

وبينما كان يتمشى ويفكر، اعتلى سيريوجا الكرسى الموضوع بجوار المكتب وبدأ يرسم. وحتى لا يلوث الأوراق الرسمية ويعبث بالمحبرة وضعت على المكتب رزمة من الورق المقصوص خصيصًا له وقلم ازرق.

وقال وهو يرسم بيتا ويلعب حاجبيه:

- جرحت الطباخة اليوم أصبعها عندما كانت تخرط الكرنب. وصرخت عاليا لدرجة أننا خفنا جميعا وركضنا إلى المطبخ. أما غبية! نصحتها نتاليا سيميونوفنا بأن تبلل أصبعها بالماء البارد، لكنها أخذت تمصه.. كيف يمكن أن تضع فى فمها هذا الإصبع القذر؟ أليس هذا عيبا يا بابا؟

ثم روى بعد ذلك أنه أثناء الغداء أتى إلى الفناء عازف جوال ومعه فتاة كانت تغنى وترقص على أنغام الموسيقى.

وفكر وكيل النيابة: «إن لديه تيار أفكاره الخاصة! لديه فى رأسه عالمه

الصغير الخاص، وبطريقته الخاصة يعرف ما هو المهم وغير المهم. ولا يكفى للاستحواذ على انتباهه وإدراكه أن تتصنع لهجته، وإنما ينبغى كذلك أن تعرف كيف تفكر بطريقته. كان من الممكن أن يفهمنى تماما لو أننى بالفعل كنت آسفا على التبغ، لو أننى غضبت وبكيت.. ولهذا فالأمهات لا غنى عنهن فى التربية لأنهن قادرات على الإحساس بما يحس به الأطفال، وعلى البكاء والضحك معهم.. ولن تصل إلى شيء بالمنطق والوعظ. حسنا، فماذا أقول له؟ ماذا؟»

وبدا ليفجينى بتروفتش غريبا ومضحكا أنه، وهو القانونى المحنك، والذى قضى نصف عمره فى التمرس بشتى أنواع المنع والإنذار والعقوبة، أصبح مرتبكا تماما ولا يعرف ماذا يقول للصبى.

وأخيرا قال:

ـ اسمع، أعطنى كلمة شرف بأنك لن تدخن بعد الآن.

فقال سيريوجا مغنيا، وهو يضغط بشدة على القلم وينحنى فوق الرسم:

ـ كلـ.. مة شر.. فـ! كلـ.. م.. ة شر.. فـ! رفـ.. رفـ..

وسأل بيكوفسكى نفسه: «وهل هو يعرف ما معنى كلمة شرف؟ كلا، إننى مرب سيىء. لو أن أحدا من المربين أو من زملائى القضاة أطل الآن فى رأسى لاعتبرنى خرقة، بل وربما اتهمنى بالإفراط فى التحذلق.. ولكن المشكلة أن كل هذه القضايا الخبيثة تحل فى المدرسة أو المحكمة على نحو أبسط بكثير مما فى البيت. فأنت هنا تتعامل مع مخلوقات تحبها بجنون، والحب يفرض متطلباته ويعقد المسألة. لو لم يكن هذا الصبى ابنى، لو كان تلميذى أو أحد المتهمين لما ترددت هكذا، ولما تشتت أفكارى!..»

جلس يفجينى بتروفتش إلى المكتب وتناول أحد رسومات سيريوجا.

كان الرسم يصور منزلا بسقف معوج ودخانا يتصاعد من المدخنة حتى طرف الورقة على شكل تعرجات حادة كالبرق. وبجوار المنزل وقف جندى يحمل بندقية بحربة على شكل رقم (4)، وبنقطتين بدلا من العينين.

وقال وكيل النيابة:

ـ الإنسان لا يمكن أن يكون أعلى من المنزل. انظر.. السقف لديك يصل إلى كتف الجندى.

وتسلق سيريوجا ركبتيه وظل يتحرك طويلا ليتخذ وضعا مريحا.

وقال بعد أن تأمل رسمه:

ـ لا يا بابا! لو رسمت الجندى صغيرا فلن تظهر عيناه.

فهل كان عليه أن يجادله؟ لقد اقتنع وكيل النيابة من واقع ملاحظاته اليومية لابنه أن لدى الأطفال، مثلما لدى الأقوام المتوحشة، نظرتهم الفنية الخاصة ومتطلباتهم المتميزة التى تستعصى على فهم الكبار. وربما لو راقب أحد الكبار سيريوجا بانتباه لبدا له صبيا شاذا. فقد كان يعتبر من الممكن والمعقول أن يرسم الناس أعلى من المنازل، ويعبر بالقلم، إلى جانب الأشياء، عن أحاسيسه الخاصة. فقد كان يصور مثلا أنغام الأوركسترا على شكل بقع دخانية دائرية، ويصور الصفير على شكل خيط لولبى.. كان الصوت فى مفهومه يرتبط ارتباطا وثيقا بالشكل واللون، فعندما يلون الحروف كان دائما يصبغ حرف (اللام) باللون الأصفر، وحرف (الميم) باللون الأحمر، وحرف (الألف) باللون الأسود، وهلم جرا.

وألقى سيريوجا بالرسم وتململ فى جلسته ثانية متخذا وضعا مريحا، ثم أخذ يعبث بلحية أبيه. فى البداية مسدها بعناية، ثم فرق شعرها وأخذ يمشطه ليجعله مثل السوالف.

ودمدم :

ـ الآن أصبحت تشبه إيفان ستيبانوفتش. أما الآن فتشبه . . بوابنا. بابا، لماذا يقف البوابون بجوار الأبواب؟ لكى يمنعوا اللصوص من الدخول؟

أحس وكيل النيابة بأنفاس سيريوجا على وجهه، وكان خده يلمس شعره بين الحين والحين، فأحس فى قلبه بدفء ونعومة، كأنما لم تكن يداه فحسب بل وروحه كلها تستلقى على مخمل سترة سيريوجا. وحدق فى عينى الصبى الواسعتين السوداوين، فخيل إليه أنه قد أطلت عليه من الحدقتين الواسعتين أمه وزوجته وكل من أحبهم فى يوم ما.

وقال فى نفسه: «فلتحاول إذن أن تجلده. . هيا ابتكر عقابا لو استطعت! كلا، أين نحن من المربين. قبلا كان الناس بسطاء، يفكرون أقل، ولذلك كانوا يحسمون القضايا بجرأة. أما نحن فنفكر أكثر من اللازم، والمنطق قد أغرقنا تماما. . كلما كان الإنسان أكثر تطورا وتفكيرا وغوصا فى دقائق الأمور، أصبح أقل جرأة وأكثر وسوسة، وأشد وجلا فى التصدى للمسألة. وبالفعل، لو أمعنا التفكير، فأية شجاعة وثقة فى النفس ينبغى أن تكون لدى المرء لكى يقدم على تعليم الآخرين، والحكم عليهم، وتأليف الكتب السميكة. .»

ودقت الساعة العاشرة.

فقال وكيل النيابة :

ـ حسنا يا بنى، حان وقت النوم. ودّعنى وانصرف. فعبس سيريوجا وقال :

ـ لا يا بابا. سأبقى قليلا. احك لى شيئا. احك لى حكاية!

ـ طيب، لكن بعد الحكاية تذهب إلى الفراش فورا.

كان من عادة يفجينى بتروفتش فى الأمسيات الخالية أن يحكى

الحكايات لسيريوجا. ومثل معظم الأشخاص العمليين لم يكن يحفظ قصيدة شعر واحدة، ولا يذكر حكاية واحدة، ولهذا كان يلجأ إلى الارتجال فى كل مرة. وفى العادة كان يبدأ بالعبارة التقليدية: «كان يا ما كان، فى سالف العصر والأوان»، ثم يحشد كمًّا من الهراء البرىء ولا يعرف أبدا عندما يبدأ كيف سيكون وسط الحكاية ونهايتها. كان يعتمد على الحظ والبديهة فى رسم الصور والأشخاص والظروف. أما الموضوع والموعظة فينبثقان تلقائيا، دون علاقة بإرادة الراوى. وكان سيريوجا يهوى كثيرا هذه القصص المرتجلة، ولاحظ وكيل النيابة أنه كلما جاء الموضوع بسيطا دون تعقيد، كان تأثيره على الصبى أقوى.

وبدأ يحكى وقد رفع نظره إلى السقف:

ـ اسمع.. كان يا ما كان، فى سالف العصر والأوان، كان هناك ملك عجوز عجوز، بلحية شيباء طويلة و.. وبشوارب هائلة. وكان يعيش فى قصر زجاجى يلمع ويتلألأ فى الشمس مثل قطعة كبيرة من الجليد النقى. أما القصر يا أخى فكان وسط حديقة ضخمة، حيث كانت تنمو ماذا؟.. أشجار البرتقال.. والكمثرى.. والكرز.. وتزهر أزهار الأقحوان، والورود، والسوسن، وتنشد الطيور الزاهية الألوان.. نعم.. وكانت تتدلى من الأشجار أجراس زجاجية صغيرة، وعندما تهب الريح، ترن بصوت رقيق، يخلب الألباب. فالزجاج يصدر صوتا أرق وأنعم من المعدن.. حسنا، وماذا كان هناك أيضا؟ كانت النافورات تتدفق فى الحديقة.. أتذكر النافورة التى رأيتها فى دار خالتك سونيا الريفية؟ مثلها بالضبط كانت النوافير فى حديقة الملك، ولكنها أكبر بكثير، وكانت تيارات الماء المتدفقة منها تصل إلى قمة أعلى شجرة حور..

وفكر يفجينى بتروفتش قليلا ثم استطرد:

ـ وكان لدى الملك العجوز ابن وحيد، هو وريث العرش والمملكة. كان صبيا صغيرا هكذا مثلك. وكان ولدا طيبا. لم يكن يتدلل أبدا، وكان ينام

مبكرا، ولا يلمس شيئا على المكتب. . وعموما كان ولدا شاطرا. لم يكن يعيبه إلا شىء واحد: لقد كان يدخن. .

أصغى سيريوجا بتركيز وهو يحدق فى عينى أبيه بعينين لا تطرفان. ومضى وكيل النيابة يحكى وهو يفكر: «وماذا بعد؟» وبعد أن لت وعجن كثيرا، كما يقال، أنهى الحكاية هكذا:

ـ ومن التدخين مرض ولى العهد بالسل ومات وهو فى العشرين من عمره. وأصبح الملك العجوز، المريض المهدم، بلا معين. ولم يعد هناك من يرعى شئون المملكة ويحمى القصر. فجاء الأعداء وقتلوا الملك العجوز، وهدموا القصر، ولم يعد فيه الآن كرز أو طيور أو أجراس. . هكذا يا أخى. .

بدت هذه النهاية ليفجينى بتروفتش نفسه مضحكة وساذجة، إلا أن الحكاية بمجملها تركت فى نفس سيريوجا أثرا قويا. وعاد الحزن وشىء أشبه بالرعب يلف عينيه. وظل حوالى دقيقة يحدق فى النافذة المظلمة وهو مستغرق فى التفكير، ثم انتفض وقال بصوت متهدج:

ـ لن أدخن مرة ثانية. .

وبعد أن ودع أباه وانصرف لينام، أخذ الأب يذرع الغرفة بهدوء من ركن لركن وهو يبتسم.

وفكر فى نفسه: «قد يقال إن ما أثر عليه هو الجمال والشكل الفنى. فليكن، ولكن هذا ليس بشىء مطمئن. إنه مع ذلك ليس وسيلة حقيقية. . لماذا ينبغى تقديم الموعظة والحقيقة ليس بصورتهما المجردة، النيئة، بل بالخلطات، وبقشرة سكرية مذهبة كحبات الدواء؟ ليس هذا طبيعيا. . إنه خداع، تزوير. . تحايل. . »

وتذكر القضاة المحلفين، الذى لا بد أن تُسمعهم «خطبة عصماء»،

وعامة الناس الذين لا يستوعبون التاريخ إلا من خلال الملاحم والسير والروايات التاريخية، وتذكر نفسه، هو الذى استقى خبرة الحياة لا من المواعظ والقوانين، بل من الحكايات والروايات والأشعار . .

«ينبغى أن يكون الدواء حلوا، والحقيقة جميلة . . وهذه النزوة قد أباحها الإنسان لنفسه منذ عهد آدم . . وعموما . . ربما كان كل ذلك طبيعيا وهكذا ينبغى للأمور أن تكون . . وهل تخلو الطبيعة من الخداع المفيد والأوهام . . » .

وشرع يعمل، بينما ظلت الأفكار المنزلية الكسولة تهوم فى رأسه طويلا . ولم تعد أنغام العزف تسمع ولكن ساكن الطابق الثانى ظل يخطو من ركن لركن . .

الصبيان

صاح أحدهم فى الفناء :

ـ فولوديا وصل !

وصرخت نتاليا وهى تندفع إلى غرفة الطعام :

ـ فولوديا وصل ! آه ، يا إلهى !

وهرولت أسرة كوروليف ، التى كانت تنتظر وصول ابنها فولوديا بين لحظة وأخرى ، إلى النوافذ . كانت هناك عربة واسعة تقف بجوار المدخل ، ومن الخيول الثلاثة البيضاء تصاعد بخار كثيف . كانت العربة خاوية ، لأن فولوديا كان يقف الآن فى المدخل وهو يفك القلنسوة بأصابع محمرة من البرد . وكان معطفه المدرسى والكاب وخف حذائه وشعر فوديه مغطاة بالحبب الثلجى ، وانبعثت منه كله ، من قمة رأسه حتى أخمص قدميه ، رائحة صقيع لذيذة ، بحيث تراودك الرغبة وأنت تتطلع إليه أن تنتفض من البرد وتقول : «برر!» واندفعت أمه وعمته نحوه تعانقانه وتقبلانه ، وارتمت نتاليا على قدميه وبدأت تنزع حذاءه اللباد ، وأطلقت شقيقاته صراخا ، وصرت الأبواب واصطفقت ، أما والد فولوديا ، فقد هرول إلى الدهليز فى الصديرى وقد أمسك بمقص فى يده ، وصاح بخوف :

كنا ننتظر مجيئك أمس ! أكان السفر طيبا ؟ على ما يرام ؟ آه ، يا إلهى ، هلا تركتموه يسلم على أبيه ؟ أم أننى لست أباه ، هه ؟

ـ هَوْ! هَوْ!

نبح «ميلورد» الكلب الضخم الأسود بصوت غليظ، وهو يخبط بذيله على الأثاث والجدران.

واختلطت كل الأصوات فى صوت واحد شامل، فرح، استمر حوالى دقيقتين. وعندما مرت أول موجة فرح، لاحظ آل كوروليف أنه بالإضافة إلى فولوديا، كان هناك فى الدهليز شخص صغير آخر، ملتف بالمناديل والشيلان والقلنسوات ومغطى بحبب الثلج. كان واقفا فى الركن بلا حراك، يحجبه ظل معطف كبير من فراء الثعلب.

وسألت الأم بهمس:

ـ فولوديا، ومن هذا؟

واستدرك فولوديا فقال:

ـ آه! يشرفنى أن أقدم لكم رفيقى تشيتشيفيتسين، التلميذ بالصف الثانى.. لقد أحضرته معى ليمكث فى ضيافتنا قليلا..

وقال الأب بفرح:

ـ تشرفنا، أهلا وسهلا.. عفوا، فإننى بملابس البيت بدون سترة.. تفضل! يا نتاليا، ساعدى السيد تشيربيتسين على خلع ملابسه! يا إلهى، اطردوا هذا الكلب من هنا! يا للعنة!

وبعد قليل، جلس فولوديا وصديقه تشيتشيفيتسين إلى المائدة لتناول الشاى وقد أذهلهما صخب اللقاء، وحمرة البرد لم تذهب بعد من وجهيهما. وكانت شمس الشتاء تمر عبر الثلج وتعاريج الجليد على النوافذ وتتراقص على السماور وتغسل أشعتها الصافية فى طبق الغسيل. كانت الغرفة دافئة، وأحس الصبيان فى جسديهما بالدفء يصارع البرد، وكل منهما لا يريد أن يتنحى للآخر.

وقال الأب بصوت منغم، وهو يدير بين أصابعه سيجارة من التبغ الأشقر الغامق:

ـ ها هو ذا عيد الميلاد يقترب! ألم نكن فى الصيف منذ وقت قريب، عندما بكت أمك وهى تودعك؟ وها أنت ذا قد عدت. . نعم، الزمن يا أخى يمضى بسرعة! وقبل أن تفتح فمك دهشة تجد الشيخوخة قد دهمتك. كُلْ يا سيد تشيبيسوف، أرجوك، لا تستح! نحن بسطاء.

كانت شقيقات فولوديا الثلاث: كاتيا وسونيا وماشا ـ أكبرهن فى الحادية عشرة ـ جالسات إلى المائدة لا يحولن أعينهن عن الشخص الجديد. كان تشيتشيفيتسين من عمر أخيهن وطوله، ولكنه لم يكن مثله مليئا ولا أبيض، بل نحيلا، أسمر، وجهه مغطى بالنمش، وكان شعره خشنا مجعدا، وعيناه ضيقتين، وشفتاه غليظتين، وعموما فقد كان قبيحا جدا، ولولا أنه كان يرتدى سترة التلاميذ لكان من الممكن أن تظنه ابن الطاهية. وكان عبوسا، وظل صامتا طوال الوقت، ولم يبتسم مرة واحدة. وقررت الفتيات وهن ينظرن إليه، أنه على الأرجح شخص ذكى جدا وعالم. كان يفكر طوال الوقت فى شىء ما، وكان مشغولا بأفكاره حتى إنه كان ينتفض عندما يسألونه عن شىء ما، ويهز رأسه ويطلب إعادة السؤال.

ولاحظت الفتيات أن فولوديا الذى كان دائما مرحا وثرثارا، أصبح قليل الكلام، ولم يبتسم ابتسامة واحدة، وكأنما لم يكن مسرورا بعودته إلى البيت. وأثناء تناول الشاى لم يخاطب شقيقاته سوى مرة واحدة، بكلمات غريبة. فقد أشار بإصبعه إلى السماور وقال:

ـ فى كاليفورنيا يشربون الجن بدلا من الشاى.

كان هو أيضا مشغولا بأفكار ما، ويبدو من النظرات القليلة التى تبادلها مع صديقه تشيتشيفيتسين أنه كان هناك بين الصبيين شىء مشترك.

وبعد تناول الشاى ذهب الجميع إلى غرفة الأطفال. وجلس الأب

والبنات إلى المائدة وانكبوا على العمل الذى قطعه مجىء الصبيين. كانوا يصنعون أزهارًا وشرائط زينة من الورق الملون لتزيين شجرة عيد الميلاد. كان ذلك عملا ممتعا وصاخبا. وكانت الفتيات يستقبلن كل زهرة جديدة بصيحات الإعجاب، بل وبصيحات الذعر وكأن هذه الزهرة سقطت من السماء. وكان الأب أيضا يبدى إعجابه، ويلقى أحيانا بالمقص على الأرض فى غضب لأنه ليس حادا. وكانت الأم تهرول إلى غرفة الأطفال بوجه يبدو عليه الهم الشديد فتسأل:

ـ من أخذ مقصى؟ هل أخذته مرة أخرى يا إيفان نيقولايفيتش؟

فيرد إيفان نيقولايفيتش بصوت باك ويرتمى بظهره على مسند المقعد متخذا وضع شخص مهان:

ـ يا إلهى، المقص يأخذونه منى.

ولكنه بعد دقيقة يعود إلى إبداء أعجابه.

كان فولوديا فى المرات السابقة يشارك أيضا فى إعداد زينة شجرة عيد الميلاد، أو ينطلق إلى الفناء ليتفرج على الحوذى والراعى وهما يصنعان تلا من الثلج، ولكنه الآن، هو وتشيتشيفيتسين، لم يلقيا بالا إلى الورق الملون، ولم يذهبا إلى الإسطبل مرة واحدة، بل جلسا بقرب النافذة وأخذا يتهامسان. ثم فتحا الأطلس الجغرافى وصارا يتأملان خريطة ما.

وقال تشيتشيفيتسين بصوت خافت:

ـ أولا إلى بيرم.. ومن هنا إلى تيومين.. ثم تومسك.. ثم.. ثم.. إلى كامتشاتكا.. ومن هناك ينقلنا الأدلاء بالقوارب عبر مضيق بيرينغ.. وها هى ذى أمريكا.. هنا الكثير من حيوانات الفراء..

وسأل فولوديا:

ـ وكاليفورنيا؟

ـ كاليفورنيا أسفل قليلا . . المهم أن نصل إلى أمريكا، أما كاليفورنيا فليست بعيدة. ويمكننا أن نحصل على الطعام بالصيد والنهب.

وظل تشيتشيفيتسين طوال اليوم يتحاشى الفتيات، ويتطلع إليهن شزرا. وبعد شاى المساء تصادف أن بقى بمفرده مع الفتيات خمس دقائق لا أكثر. كان الصمت محرجا. فسعل بصرامة، وفرك يده اليسرى براحته اليمنى، ونظر إلى كاتيا عابسا وسأل:

ـ هل قرأت ماين ريد؟

ـ كلا، لم أقرأه. . اسمع، هل تجيد التزحلق على الجليد؟

كان تشيتشيفيتسين غارقا فى أفكاره، فلم يجب على هذا السؤال، بل نفخ شدقيه بشدة، وأطلق زفرة وكأنه يشعر بحر شديد. ورفع عينيه مرة أخرى إلى كاتيا وقال:

ـ عندما يركض قطيع البيسون عبر البمباس ترتج الأرض، وفى تلك الأثناء تصهل الموستانغ وترفس بأرجلها وهى مذعورة.

وابتسم تشيتشيفيتسين بحزن وأضاف:

ـ والهنود الحمر أيضا يهاجمون القطارات. ولكن أسوأ شىء هو الموسكيتو والترميت[1].

ـ و ما هذا؟

ـ إنها أشبه بالنمل ولكنها بأجنحة. ولدغاتها مؤلمة. أتعرفين من أنا؟

ـ السيد تشيتشيفيتسين.

---

(١) البيسون هوالثور البرى الأمريكى؛ والبمباس إقليم البرارى فى أمريكا الجنوبية، والموستانغ هو الحصان البرى والموسكيتو هو البعوض، والترميت هو النمل الأبيض. (**المعرب**).

ـ كلا. أنا مونتيغومو، مخلب الصقر، زعيم المنتصرين.

وتطلعت ماشا، أصغر الفتيات، إليه، ثم حولت نظرها إلى النافذة التى كان المساء هبط وراءها، وقالت وهى شاردة:

ـ مساء الأمس طبخنا عدس[1].

كانت عبارات تشيتشيفيتسين غير المفهومة أبدا، وكذلك همسه المستمر مع فولوديا، وعدم انخراط فولوديا فى اللعب واستغراقه فى التفكير.. كل ذلك كان غامضا وغريبا. فأخذت الشقيقتان الكبريان، كاتيا وسونيا، تراقبان الصبيين بيقظة.. وعندما أوى الصبيان إلى فراشهما فى المساء، تسللت الفتاتان إلى باب غرفتهما وأخذتا تسترقان السمع إلى حديثهما. أوه، ماذا سمعتا! لقد كان الصبيان يستعدان للهرب إلى مكان ما فى أمريكا للبحث عن الذهب. كان لديهما كل ما يلزم للرحلة: مسدس، ومديتان، وخبز مجفف، وعدسة لأشعال النار، بوصلة، وأربعة روبلات. وعلمتا أنه على الصبيين قطع عدة آلاف من الكيلومترات سيرا على الأقدام، وسيكون عليهما أثناء الطريق أن يصارعا النمور والمتوحشين، ثم أن ينقبا عن الذهب والعاج، ويقتلا الأعداء، وينضما إلى قراصنة البحر، ويشربا الجن، وفى نهاية المطاف أن يتزوجا حسناوين وأن يعملا فى فلاحة المزارع. كان فولوديا وتشيتشفيتسين يتحدثان بحماس وكل منهما يقاطع الآخر. وكان تشيتشيفيتسين يسمى نفسه أثناء الحديث «مونتيغومو، مخلب الصقر» وينادى فولوديا «يا أخى الأصفر الخدين».

وقالت كاتيا لسونيا وهما تأويان إلى الفراش:

ـ إياك أن تقولى لماما. سيحضر لنا فولوديا من أمريكا ذهبا وعاجا، ولو قلت لماما فلن يسمحوا له بالذهاب.

---

(١) الاسم: تشيتشيفيتسين مشتق من كلمة: «تشيتشيفيتسا»، وتعنى فى الروسية: «عدس». **(المعرب)**.

وقبيل ليلة الميلاد ظل تشيتشيفتسين يفحص خريطة آسيا طوال النهار ويسجل أشياء ما، بينما مضى فولوديا يطوف بالغرف عابسا، شاردا ومنتفخا كأنما لدغته نحلة. وفى إحدى المرات توقف أمام الأيقونة فى غرفة الأولاد ورسم علامة الصليب وقال:

ـ يا إلهى، سامح عبدك المذنب! يا إلهى، احفظ أمى المسكينة البائسة!

وفى المساء أجهش بالبكاء. وعندما مضى إلى فراشه عانق أباه وأمه وأخواته طويلا. كانت كاتيا وسونيا تدركان الأمر، أما الأخت الصغرى ماشا فلم تفهم شيئا، لم تفهم شيئا على الإطلاق، ولكنها عندما نظرت إلى تشيتشيفيتسين شردت وقالت وهى تنهد:

ـ دادة تقول عندما يأتى الصيام ينبغى أن نأكل الحمص والعدس.

وفى يوم الميلاد نهضت كاتيا وسونيا فى ساعة مبكرة، وذهبتا لترياكيف سيهرب الصبيان إلى أمريكا. وتسللتا إلى باب غرفتهما.

ـ إذن فلن تذهب؟ ـ قال تشيتشيفيتسين بغضب ـ قل: لن تذهب؟

وبكى فولوديا بصوت خافت وهو يقول:

ـ يا إلهى! كيف أذهب؟ إننى أشفق على ماما.

ـ يا أخى الأصفر الخدين، أرجوك، هيا نذهب! ألم تؤكد لى بأنك ستذهب. تغرينى بالذهاب وعندما تحين الساعة تجبن!

ـ أنا.. أنا،.. لم أجبن، ولكنى.. أشفق على ماما.

ـ قل: ستذهب أم لا؟

ـ سأذهب، ولكن.. انتظر. أريد أن أبقى قليلا فى البيت.

فقال تشيتشيفيتسين بحزم:

ـ إذن سأذهب وحدى! سأمضى بدونك. كان يدعى أنه يريد أن يصيد النمور ويحارب، إذن أعطنى طلقاتى!

وأجهش فولوديا ببكاء مرير، حتى أن شقيقتيه لم تتمالكا نفسيهما وبكيتا أيضا. وساد الصمت.

وعاد تشيتشيفيتسين يسأل:

ـ إذن فلن تذهب؟

ـ سأ.. سأذهب.

ـ هيا البس إذن!

ومضى تشيتشيفيتسين، لكى يقنع فولوديا، يثنى على أمريكا، ويزأر كالنمر، ويقلد الباخرة، ويسب، ووعد فولوديا بأن يعطيه كل ما يحصل عليه من عاج وجلود الأسود والنمور.

وبدا هذا الصبى النحيل الأسمر، ذو الشعر الخشن والوجه المغطى بالنمش، بدا للفتاتين صبيا رائعا لا مثيل له. لقد كان بطلا، شخصا حازما مقداما، وكان يزأر بحيث يخيل إليك وأنت خلف الباب أنه نمر أو أسد حقيقى.

وعندما عادت الفتاتان إلى غرفتهما لتبدلا ملابسهما قالت كاتيا بعينين مليئتين بالدموع:

ـ آوه، كم أنا خائفة!

وقبل أن يجلسوا إلى الغداء فى الساعة الثانية كان كل شيء هادئا، ولكن عندما جلسوا إلى المائدة اكتشفوا أن الصبيين غير موجودين فى المنزل. وأرسلوا من يبحث عنهما فى غرفة الخدم، وفى الإسطبل، وفى بيت الخولى، ولكنهما لم يكونا هناك. وأرسلوا فى أثرهما إلى القرية فلم

يجدوهما هناك. ثم تناولوا الشاى بعد ذلك بدون الصبيين. وعندما جلسوا إلى العشاء كانت الأم فى غاية القلق حتى إنها بكت. وفى الليل أرسلوا من يبحث عنهما فى القرية ثانية، ثم بحثوا عند النهر بالمصابيح. يا إلهى، أى هرج حدث!

وفى اليوم التالى جاء رئيس الشرطة، وجلس فى غرفة الطعام يكتب ورقة ما. وبكت الأم.

ولكن ها هى ذى عربة تتوقف بجوار المدخل. ويتصاعد البخار من ثلاثة جياد بيضاء.

وصاح أحدهم فى الفناء:

- فولوديا وصل!

وصرخت نتاليا وهى تندفع إلى غرفة الطعام:

- فولوديا وصل!

ونبح «ميلورد» بصوته الغليظ: «هَوْ! هَوْ!». واتضح أن الصبيين استوقفا فى المدنية، فى نزل المسافرين (وأخذا هناك يسألان أين يباع البارود). وما إن دلف فولوديا إلى الدهليز حتى انفجر منتحبا وارتمى على صدر أمه.

وأخذت الفتاتان ترتعشان وهما تفكران فيما سيحدث بعد ذلك، وسمعتا الأب وهو يسوق فولوديا وتشيتشيفيتسين إلى غرفة مكتبه، حيث تحدث إليهما طويلا. وتحدثت الأم أيضا وهى تبكى.

قال الأب:

- هل هذا ممكن؟ لو علموا، لا قدر الله، فى المدرسة، فسوف تفصلان. وأنت يا سيد تشيتشيفيتسين، ألا تخجل؟ عيب عليك! أنت

المحرض، وآمل أن يعاقبك والداك. هل هذا ممكن؟ أين قضيتما الليل؟

فأجاب تشيتشيفيتسين بفخر:

- فى المحطة!

وبعد ذلك تمدد فولوديا وأخذوا يضعون على رأسه المناشف المبللة بالخل. وأرسلوا برقية إلى مكان ما، وفى اليوم التالى وصلت امرأة، هى أم تشيتشيفيتسين، وأخذت ابنها.

وعندما كان تشيتشيفيتسين يستعد للرحيل ارتسمت على وجهه ملامح الصرامة والكبرياء، وودع الفتيات دون كلمة، غير أنه أخذ من كاتيا كراسة وكتب فيها للذكرى:

«مونتيغومو، مخلب الصقر».

المعلم

كان فيودور لوكيتش صيسويف، المعلم بمدرسة الفابريقة التى تنفق عليها «مانيفاتورة كوليكين وأبنائه»، يستعد لحفل الغداء الرسمى. وكانت إدارة الفابريقة تقيم سنويا، بعد انتهاء الامتحانات، حفل غداء يحضره مفتش المدارس الشعبية وكل من شهدوا الامتحانات وإدارة الفابريقة.
ورغم الشعبية وكل من شهدوا الامتحانات وإدارة الفابريقة. ورغم الطابع الرسمى لتلك الحفلات فقد كانت تستمر دائما فترة طويلة، وتتميز بالمرح والطعام اللذيذ. إذ ينسى المعلمون عبادة الألقاب ولا يتذكرون إلا جهودهم الشريفة، فيأكلون حتى الشبع، ويسكرون فى انسجام، ويثرثرون إلى أن تبح أصواتهم، وينصرفون فى ساعة متأخرة من المساء بينما تدوى فى البلدة كلها أصوات غنائهم وقبلاتهم. وقد شهد صيسويف من هذه الحفلات ثلاث عشرة حفلة، بقدر عدد السنوات التى عمل فيها بمدرسة الفابريقة.

وسعى، وهو يستعد للحفلة الرابعة عشرة، أن يضفى على نفسه هيأة احتفالية لائقة إلى أقصى حد. فقضى ساعة كاملة ينظف بالمقشة حلته السوداء الجديدة، ووقف أمام المرآة نفس المدة تقريبا وهو يرتدى قميصا عصريا. وانحشرت أزرار أساور القميص فى العروات، فأثار ذلك عاصفة من الشكاوى والوعيد واللوم ضد زوجته. وخارت قوى الزوجة المسكينة وهى تجرى وتدور حوله. وفى النهاية أصبح هو أيضا منهكا تماما. وعندما

جاؤوه من المطبخ بحذائه النظيف لم يجد فى نفسه القدرة على انتعاله. فاضطر أن يستلقى ليستريح قليلا، وشرب ماء.

وتنهدت زوجته قائلة:

ـ كم أصبحت ضعيفا! كان من الأفضل ألا تذهب إلى هذا الحفل.

فنهرها المعلم بغضب:

ـ وفِّرى نصائحك أرجوك!

كان متكدرا للغاية، لأنه لم يكن راضيا أبدا عن الامتحانات الأخيرة. وقد مرت هذه الامتحانات بصورة رائعة، وحصل جميع صبيان المرحلة الأخيرة على شهادات وجوائز، وأبدى الرؤساء، من الفابريقة والجهات المسئولة، ارتياحهم إلى ما تحقق من نجاح، ولكن ذلك لم يكن كافيا بالنسبة للمعلم. لقد أحزنه أن التلميذ بابكين، الذى لم يكن يخطئ أبدا فى الكتابة، ارتكب ثلاثة أخطاء فى امتحان الإملاء؛ كما لم يستطع التلميذ سرجييف، بسبب الاضطراب، معرفة حاصل ضرب ١٧ فى ١٣. لقد اختار المفتش، وهو رجل شاب قليل الخبرة، موضوعا صعبا للإملاء، أما معلم المدرسة المجاورة، لابونوف، الذى طلب منه المفتش أن يملى الموضوع، فقد تصرف «بصورة لارفاقية»، فعندما كان يملى كان ينطق الكلمات كما تلفظ لا كما تكتب، وكأنما كان يلوكها فى فمه.

وبعد أن انتعل المعلم حذاءه بمساعدة زوجته، وألقى على نفسه نظرة أخرى فى المرآة، تناول عصاه المعقدة، ومضى إلى حفل الغداء. وقرب باب شقة مدير الفابريقة، حيث يقام الاحتفال، وقع له حادث غير سار. فقد داهمه السعال فجأة.. وبسبب هزات السعال طارت القبعة من على رأسه، وسقطت العصا من يديه، وعندما خرج المعلمون والمفتش من شقة المدير ركضا وقد سمعوا سعاله، وجدوه جالسا على الدرجة السفلى يتصبب عرقا.

ودهش المفتش وسأله:

ـ أهو أنت يا فيودور لوكيتش؟ إذن، لقد جئت؟

ـ وماذا هناك؟

ـ من الأفضل أن تلزم البيت يا عزيزى. أنت اليوم مريض جدا..

ـ أنا اليوم كما كنت بالأمس. أما إذا كان حضورى يضايقكم فأستطيع أن أنصرف.

ـ ما هذا الكلام يا فيودور لوكيتش؟ ما الداعى لأن تقول هذا؟ أهلا ومرحبا! على العموم لسنا نحن أصحاب الحفل بل أنت. بالعكس نحن فى غاية السرور، بالشرف!..

كان كل شيء معدا للاحتفال فى شقة مدير الفابريقة. ففى غرفة الطعام الكبيرة، ذات نسخ اللوحات الزيتية الألمانية على حيطانها وأريج زهور الجيرانيوم ورائحة طلاء الأثاث، امتدت طاولتان؛ واحدة كبيرة للغداء، وأخرى أصغر منها للمزات. ومن النافذة المسدلة الستائر تسلل بوهن ضوء الظهيرة القائظ.. وبدا ظلام الغرفة الغسقى، والمناظر السويسرية على الستائر، والجيرانيوم، والمرتدلا المقطعة شرائح رقيقة فى الأطباق.. بدا كل ذلك مشوبا بالسذاجة وعاطفية المراهقات، ويشبه صاحب الشقة نفسه، ذلك الألمانى الصغير البشوش، ذا الكرش المدور والعينين المداهنتين الودودتين. وكان أدولف أندرييتش برونى (هكذا كان يدعى صاحب الشقة) يهرول بجوار طاولة المزات، كأنما يطفئ حريقا، ويملأ الكؤوس، ويضع المزة فى الأطباق، وهو يسعى بكل جهده إلى إرضاء الجميع، وإضحاكهم وإظهار مودته. كان يربت على الأكتاف، ويحدق فى الوجوه، ويقهقه، ويفرك راحتيه، وباختصار كان يتمسح متوددا ككلب طيب.

وقال بصوت متهدج عندما رأى صيسويف:

ـ فيودور لوكيتش.. من أرى! يا لها من سعادة! لقد جئت رغم مرضك!.. يا سادة، اسمحوا لى أن أسعدكم.. فيودور لوكيتش جاء!

كان المربون يتزاحمون حول طاولة المزات وهم يأكلون. وتجهم صيسويف، إذ لم يعجبه أن رفاقه بدأوا فى تناول الطعام والشراب ولم ينتظروه. ورأى بينهم لابونوف، ذلك الذى أملى موضوع الإملاء فى الامتحان، فاقترب منه وقال:

ـ هذه ليست روحا رفاقية! نعم! السادة المحترمون لا يُملون هكذا!

فقال لابونوف مقطبا:

ـ يا إلهى، مازلت تتحدث عن نفس الشىء! ألم تمل ذلك؟

ـ نعم، عن نفس الشىء! تلميذى بابكين لم يكن يخطئ أبدا! أنا أعرف لماذا أمليت بهذه الطريقة. كنت تريد أن يرسب تلاميذى، لكى تبدو مدرستك أفضل.

أنا فاهم كل شىء!

فدمدم لابونوف بغضب:

ـ ما لك تتمحك! لماذا تتحرش بى بحق الشيطان؟ فتدخل المفتش بوجه يتصنع البكاء:

ـ كفاكم يا سادة! لا داعى للاحتداد من أجل أشياء تافهة. ثلاثة أخطاء.. لا أخطاء.. أليس الأمر سيان؟

ـ كلا، ليس سيان. تلميذى بابكين لم يرتكب أبدا أى خطأ.

فمضى لابونوف يقول وهو يزفر بانزعاج:

ـ إنه يتحرش بى! يستغل وضعه كرجل مريض ويفترس الجميع! ولكنى يا سيدى لن أراعى أنك مريض!

فصاح صيسويف بغضب:

ـ دعوا مرضى وشأنه ما دخلكم بذلك؟ الكل يرددون: مريض! مريض! مريض! لا حاجة بى إلى مواساتكم! ثم لماذا قررتم أننى مريض؟ كنت مريضا قبل الامتحانات، هذا صحيح، أما الآن فقد شفيت تماما، ولم يبق إلا بعض الضعف.

فقال مدرس الدين، الأب نيقولاى، وكان قسا شابا، يرتدى غفّارة بنية أنيقة وسروالا مسدلا فوق الحذاء الطويل:

ـ احمد الله أنك شفيت. ينبغى أن تفرح، ولكنك تنفعل وما شابه ذلك.

فقاطعه صيسويف:

ـ وأنت أيضا فيك الخير! الأسئلة ينبغى أن تكون مباشرة، واضحة، لكنك ألقيت عليهم ألغازا. هذا لا يجوز!

واستطاعوا بعد جهود مشتركة أن يهدئوه، وأجلسوه إلى المائدة. وظل طويلا ينتقى أى شراب يشرب، ثم قطب وجهه وشرب نصف كأس من شراب منزلى أخضر، وبعدها شد إليه قطعة كعكة وأخذ يستبعد من حشوتها بعناية قطع البيض والبصل. ومن القضمة الأولى خيل إليه أن الكعكة قليلة الملح. فملحها، وعلى الفور أبعدها عنه بغضب لأنها أصبحت زائدة الملح.

أجلسوا صيسويف على الغداء بين المفتش وبرونى. وفور الفراغ من الحساء، بدأت الأنخاب حسب التقليد المتبع من زمان.

ونهض المفتش، فقال:

ـ يسرنى ويشرفنى أن أتوجه بالشكر إلى رعاة المدرسة الغائبين عن الحفل، الشقيقين دانيلا بتروفتش و. . و. . و. . فذكره برونى:

ـ وإيفان بتروفتش.

ـ وإيفان بتروفتش كوليكين، اللذين لم يبخلا بالمال على المدرسة، وأقترح أن نشرب هذا النخب فى صحتهما. . فقفز برونى كالملدوغ وقال:

ـ ومن جانبى أقترح أن نشرب فى صحة مفتش المدارس الشعبية المحترم بافل جناديفتش نداروف.

تحركت المقاعد، وتبسمت الوجوه، وبدأ قرع الكؤوس المعهود. وكان النخب الثالث مخصصا دائما لصيسويف. وفى هذه المرة أيضا نهض وراح يتكلم. اكتسب وجهه سيماء الجدية، وبعد أن تنحنح أعلن قبل كل شىء أنه لا يملك موهبة الفصاحة، ولم يستعد لإلقاء الكلمة. ثم قال بعد ذلك: إنه خلال أربعة عشر عاما من الخدمة واجه الكثير من المؤامرات والدسائس بل وحتى الوشايات ضده، وإنه يعرف أعداءه والواشين به، ولكنه لا يريد أن يفصح عن أسمائهم «خوفا من أن يفسد شهية البعض». ورغم المؤامرات فقد احتلت مدرسة كوليكين المركز الأول فى المحافظة كلها، «ليس من الناحية المعنوية فحسب، بل من الناحية المادية أيضا».

ومضى يقول:

ـ فى كل مكان يتقاضى المعلمون ٢٠٠ أو ٣٠٠ روبل، أما أنا فأتقاضى ٥٠٠ روبل، وعلاوة على ذلك فقد جرى تصليح شقتى بل وتأثيثها على حساب الفابريقة. وفى هذا العام غطيت جميع جدران الشقة بالورق الجديد. .

ثم أفاض المعلم بعد ذلك فى الحديث عن السخاء فى تزويد التلاميذ بالأدوات المكتبية بالمقارنة مع تلاميذ المدارس الحكومية ومدارس المجالس

المحلية. والمدرسة مدينة بكل ذلك، حسب رأيه، لا لأصحاب الفابريقة، المقيمين فى الخارج ولا يعلمون ربما حتى بوجود المدرسة، بل للشخص الذى يملك، رغم أصله الالمانى وعقيدته البروتستانتية، روحا روسية. تحدث صيسويف طويلا، وهو يتوقف لالتقاط أنفاسه، محاولا أن يضفى على حديثه أسلوبا فخما معقدا، فجاءت كلمته مقبضة منفرة. وأشار عدة مرات إلى أعداء له، ولجأ إلى التلميح، وكرر ما قاله، وتنحنح بينما كانت أصابعه تتحرك بصورة قبيحة. وأخيرا أدركه التعب، وتصبب عرقه، وأخذ يتحدث بصوت خافت لاهث، كأنما يحدث نفسه، وأنهى حديثه بصورة مضطربة:

ـ وهكذا، أقترح أن نشرب فى صحة برونى، أعنى فى صحة أدولف أندرييتش الذى يجلس هنا، بيننا.. وعموما.. ومفهوم.

وعندما أنهى كلمته تنفس الجميع الصعداء، كأنما رش أحدهم فى الجو رذاذا باردا فبدد الحر الخانق. ويبدو أن برونى وحده هو الذى لم يشعر بالنفور. فقد تهللت أساريره، وقلب عينيه العاطفتين، وهز يد صيسويف بتأثر، وتمسح متوددا من جديد كالكلب.

وقال وهو يضع يده اليسرى على قلبه:

ـ أوه، أشكرك! أنا سعيد جدا بأنك تفهمنى! أتمنى لك كل التوفيق، من صميم قلبى! لكنى أريد أن أقول إنك تبالغ فى تقدير دورى. المدرسة مدينة بازدهارها لك، لك وحدك يا صديقى المبجل فيودور لوكيتش! لولاك لما تميزت بشىء عن المدارس الأخرى! إنك تظن أن هذا الألمانى يتحدث مجاملا، يتكلم بلباقة. ها ـ ها! كلا يا عزيزى فيودور لوكيتش، إننى إنسان شريف ولا أجامل أبدا. وإذا كنا ندفع لك خمسمائة روبل فى السنة فهذا يعنى أنك عزيز علينا. أليس كذلك؟ يا سادة، ألست أقول الحق؟ ما كنا لندفع لأحد غيرك مثل هذا المبلغ.. عفوك، إن المدرسة الجيدة هى شرف للفابريقة!

فقال المفتش :

ـ أريد أن أعترف لكم بصراحة بأن مدرستكم حقا غير عادية . لا تظنوا هذا مديحا . على الأقل أنا لم أر مدرسة مثلها طوال حياتى . لقد حضرت الامتحانات عندكم وكنت طوال الوقت مندهشا . . ما أروعهم من أولاد! يعرفون الكثير ، ويجيبون على الأسئلة بطلاقة ، وعلاوة على ذلك فهم من نوع خاص ، ليسوا مذعورين ، صادقون . . ومن الواضح أنهم يحبونك يا فيودور لوكيتش . أنت مرب حتى النخاع ، لا بد أنك ولدت معلما . ولديك كل المؤهلات لذلك : التوجه الموروث ، والخبرة الطويلة ، وحب المهنة . . والمرء ليدهش . . فرغم ضعف صحتك تمتلك كل هذه الطاقة ، وهذه المعرفة العميقة بالعمل ، وهذه الـ . . التفهم . . الصلابة والثقة! صحيح ما قاله أحدهم فى مجلس المدرسة من أنك شاعر فى مهنتك . . نعم بالضبط ، شاعر!

وانطلق جميع الحاضرين فى صوت واحد يتحدثون عن موهبة صيسويف البارزة . وكأنما انفجر سد يحجز المياه ، إذ تدفقت الكلمات الصادقة المعجبة التى لا يقولها المرء عندما يكون مفيقا يحسب حساب الكلمات ويحترس . ونسوا كلمة صيسويف ، وطبعه الذى لا يحتمل ، وتعبير وجهه الشرير الكريه . انطلقت ألسنة الجميع ، حتى المدرسين الجدد الصامتين الوجلين ، أولئك الشبان البؤساء المنكمشين ، الذين لم يكونوا يخاطبون المفتش إلا بـ «يا صاحب المعالى» . وكان من الواضح أن صيسويف فى مجاله شخصية مشهورة .

ولما كان قد ألف النجاح والمديح خلال أربعة عشر عاما من الخدمة ، فقد أصغى بلا مبالاة إلى طنين محبيه المعجب .

وبدلا منه كان برونى يستمتع بالإطراء . كان الألمانى يتصيد كل كلمة ، ويتهلل ، ويصفق ، ويتضرج خجلا ، كأنما كان المديح موجها إليه لا إلى المعلم .

وكان يصيح :

ـ برافو، برافو! لقد خمنت أفكارى! . . ممتاز! . .

ويحدق فى وجه المعلم كأنما يريد أن يشاركه سعادته. وفى النهاية لم يطق صبرا فقفز ناهضا، وصاح فطغى صوته الرفيع المعول على جميع الأصوات :

ـ يا سادة! اسمحوا لى بكلمة! هس! لا أجد ما أرد به على كل كلماتكم إلا أن أقول : إن إدارة الفابريقة لن تُبقى فى عنقها دين فيودور لوكيتش! . .

وصمت الجميع. ورفع صيسويف عينيه نحو وجه الألمانى المتورد.

ومضى برونى يقول وقد خفض صوته وأضفى على وجهه سيماء الجدية :

ـ إننا نعرف كيف نقدر الناس. وردا على كل ما قلتموه أود أن أخبركم بأن . . أسرة فيودور لوكيتش ستكون مؤمنّة، وأنه فى هذا الصدد قد وضعنا لها رصيدا فى البنك منذ شهر.

نظر صيسويف مستفهما إلى الألمانى ثم إلى رفاقه وكأنما يستغرب : لماذا ستؤمن أسرته وليس هو نفسه؟ وهنا قرأ فى جميع الوجوه، وفى جميع العيون الجامدة المحدقة فيه شيئا ليس بالمواساة أو الشفقة، وهو ما لم يكن يطيقه، بل شيئا آخر، ناعما، رقيقا، وفى نفس الوقت منذرا بالشر إلى أقصى حد، شيئا يشبه الحقيقة الرهيبة، بعث على الفور فى جسده كله البرودة، وفى روحه يأسا لا يوصف. وفجأة قفز واقفا وقد شحب وجهه وانقلب، وأمسك برأسه. ووقف هكذا حوالى ربع دقيقة، وهو يتطلع أمامه فى رعب، محدقا فى نقطة واحدة، كأنما رأى أمامه ذلك الموت القريب الذى تحدث عنه برونى، ثم جلس وأجهش بالبكاء.

وسمع وهو يبكى أصواتا منفعلة :

ـ كفى! . . ماذا بك؟ . . هاتوا ماء! اشرب قليلا!

وبعد قليل هدأ المعلم، إلا أن المرح السابق لم يعاود المحتفلين. وانتهى الغداء فى صمت وتجهم وفى وقت مبكر بكثير عما كان فى السنوات السابقة.

وعندما عاد صيسويف إلى البيت كان أول ما فعله أن نظر فى المرآة.

وقال فى نفسه وهو ينظر إلى عينيه بالدوائر السوداء المحيطة بهما وإلى خديه الغائرين: «ما كان ينبغى طبعا أن استسلم للبكاء هناك! لون وجهى اليوم أحسن بكثير مما كان بالأمس. عندى فقر دم والتهاب فى المعدة، والسعال بسبب المعدة».

وإذ ارتاح إلى ذلك وأخذ يخلع ملابسه ببطء وينظف بالمقشة حلته السوداء مدة طويلة، ثم طواها بعناية وأغلق الكمودينو عليها.

ثم اقترب من الطاولة حيث رصت كومة من دفاتر التلاميذ، فانتقى من بينها دفتر بابكين، وجلس واستغرق فى تأمل الخط الطفولى الجميل. .

وفى تلك الأثناء، وبينما كان يتفحص إملاء تلاميذه، كان طبيب المجلس المحلى جالسا فى الغرفة المجاورة، ويقول همسا لزوجة صيسويف إنه ما كان يجوز السماح بالذهاب إلى الحفل لرجل لم يبق أمامه فى الحياة، على ما يبدو، أكثر من أسبوع.

فولوديا

فى يوم أحد صيفى، وفى حوالى الساعة الخامسة مساء كان فولوديا، الفتى ذو السبعة عشر عاما، القبيح الوجه، العليل والخجول، جالسا فى عريشة بحديقة دار آل شوميخين الريفية، مستسلما للضجر. وجرت أفكاره المقبضة فى ثلاثة اتجاهات. فأولا: كان عليه غدا، الاثنين، أن يؤدى امتحان الرياضيات. وكان يعرف أنه إذا لم يوفق غدا فى حل المسألة التحريرية، فسوف يفصلونه لأنه قضى سنتين فى الصف السادس، وكانت درجة أعمال السنة فى الجبر لديه ٢ ٣/٤[١]. وثانيا: كان وجوده عند آل شوميخين، هؤلاء الأغنياء مدعى الأرستقراطية يثير فى نفسه شعورا مستمرا بالمهانة. كان يخيل إليه أن مدام شوميخينا وبنات أخواتها ينظرن إليه وإلى Maman نظرتهن إلى الأقارب الفقراء والطفيليين، وأنهن لا يحترمن maman ويسخرون منها. وذات مرة سمع صدفة مدام شوميخينا وهى تتحدث فى الشرفة مع ابنة خالتها آنّا فيودوروفنا وتقول أن maman مازالت تتصابى وتتزوق، وأنها لا تسدد أبدا خسائرها فى اللعب ولديها ولع بأحذية الغير وتبغهم. وكان فولوديا يتوسل كل يوم إلى maman ألا تذهب إلى آل شيوميخين، ويوضح لها الدور المهين الذى تلعبه عند هؤلاء السادة، وكان يحثها ويتطاول عليها، ولكن هذه المرأة المدللة الطائشة،

---

(١) وفق نظام التعليم الروسى كانت النهاية العظمى للدرجات هى خمس درجات، والحاصل على أقل من ٣ درجات يعتبر راسبا. **(المعرب)**.

التى بددت فى حياتها ثروتين، ثروتها وثروة زوجها، والميالة دوما إلى المجتمع الراقى، لم تكن تفهمه، فكان على فولوديا أن يصحبها مرتين فى الأسبوع إلى الدار الريفية المقيتة.

وثالثا: لم يكن فى وسعه أن يتخلص لحظة واحدة من شعور غريب غير مريح، كان جديدا عليه تماما.. فقد خيل إليه أنه قد وقع فى حب آنّا فيودوروفنا، ابنة خالة مدام شوميخينا وضيفتها. كانت سيدة نشطة، عالية الصوت ومازحة، فى حوالى الثلاثين، عفية، قوية، وردية البشرة، ذات كتفين مستديرتين، وذقن مستدير سمين، وابتسامة دائمة على شفتيها الدقيقتين. لم تكن جميلة أو صبية، وكان فولوديا يدرك ذلك جيدا، ولكنه لسبب ما لم يستطع أن يمنع نفسه من التفكير فيها والنظر إليها، عندما كانت، وهى تلعب الكروكيت، تهز كتفيها المستديرتين وتحرك ظهرها الأملس، أو عندما كانت تتهالك فى المقعد بعد ضحك طويل وركض على السلم، وتغمض عينيها وهى تلهث مدعية أنها تشعر فى صدرها بالضيق والاختناق. وكانت متزوجة. وكان زوجها، وهو معمارى رصين، يحضر مرة فى الأسبوع إلى الدار الريفية، فيشبع نوما، ثم يعود أدراجه إلى المدينة. وقد بدأ هذا الشعور الغريب يراود فولوديا عندما وجد نفسه، بلا سبب، يمقت هذا المعمارى، وفى كل مرة يرحل فيها هذا الرجل إلى المدينة يحس بالفرح.

وها هو ذا الآن، وهو جالس فى العريشة يفكر فى امتحان الغد وفى maman التى يسخرون منها، يشعر برغبة قوية فى رؤية نيوتا (هكذا كان آل شوميخين يدعون آنّا فيوروروفنا)، وفى سماع ضحكها وحفيف فستانها.. ولم تكن هذه الرغبة تشبه ذلك الحب النقى، الشاعرى، الذى كان يعرفه من الروايات ويحلم به كل مساء عندما يأوى إلى الفراش؛ بل كانت رغبة غريبة، غير مفهومة، يخجل منها ويخشاها، كأنها شىء قبيح للغاية وملوث، من الصعب أن يعترف به حتى لنفسه..

وقال لنفسه :

ـ ليس هذا حبا . لا أحد يقع فى حب سيدات فى الثلاثين ومتزوجات . . هذه مجرد قصة غرامية صغيرة . . نعم قصة غرامية . .

وبينما مضى يفكر فى هذه القصة الغرامية تذكر خجله الذى لا يقهر ، وخلو وجهه من الشارب ، وامتلاءه بالنمش ، وعينيه الضيقتين ، ووضع نفسه فى الخيال بجوار نيوتا ، فبدا له اجتماع هذا الزواج مستحيلا . عندئذ سارع إلى تخيل نفسه جميلا ، جريئا ، حاضر البديهة ، متأنقا حسب آخر موضة . .

وفى قمة أحلامه ، وهو جالس فى زاوية العريشة المظلمة متكورا يحدق فى الأرض ، تردد وقع خطوات خفيفة . كان أحدهم يسير فى الممر على مهل . وسرعان ما خفتت الخطوات ولاح شىء أبيض عند مدخل العريشة .

وسأل صوت نسائى :

ـ هل يوجد هنا أحد؟

وعرف فولوديا هذا الصوت فرفع رأسه مذعورا .

ـ من هنا؟ ـ سألت نيوتا وهى تدخل العريشة . ـ آه ، أهو أنت يا فولوديا؟ ماذا تفعل هنا؟ تفكر؟ كيف يمكن أن تفكر ، تفكر ، تفكر طول الوقت . . بهذه الطريقة ستصاب بالجنون!

نهض فولوديا ونظر إلى نيوتا مرتبكا . كانت عائدة لتوها من السباحة . وتدلت على كتفها ملاءة وفوطة ، وبرزت من تحت منديل رأسها الحريرى الأبيض خصلات شعرها المبتلة الملتصقة بجبينها . وفاحت منها رائحة رطبة منعشة ، رائحة النهر وصابون زيت اللوز . وكانت تلهث من السير السريع . وكان زر بلوزتها العلوى مفكوكا فرأى فولوديا عنقها وصدرها .

وسألت نيوتا وهى تشمل فولوديا بنظرتها :

ـ ما لك ساكتًا؟ ليس من الأدب أن تصمت عندما تكلمك سيدة. يا لك من عجل يا فولوديا! دائما تجلس صامتا وتفكر، كأنك أحد الفلاسفة. ليس فيك حيوية أو نار أبدا! حقا أنت كريه. . في مثل سنك ينبغى أن تعيش، وتقفز، وتثرثر، وتغازل النساء، وتعشق.

حدق فولوديا فى الملاءة التى تثبتها ذراع بيضاء ممتلئة، وراح يفكر. .

وقالت نيوتا باستغراب :

ـ إنه ساكت! هذا غريب فعلا. . اسمع، كن رجلا! حسنا، ابتسم على الأقل! أف، يا لك من فيلسوف كريه! ـ وضحكت. ـ أتدرى يا فولوديا لماذا أنت عجل هكذا؟ لأنك لا تغازل النساء. فلماذا لا تغازلهن؟ صحيح ليس هنا آنسات، ولكن لا شيء يمنعك من مغازلة السيدات! لماذا لا تغازلنى مثلا؟

أصغى فولوديا وأخذ يحك صدغيه بتفكير صعب متوتر.

واستطردت نيوتا تقول وهى تنزع يده عن صدغه :

ـ المتكبرون وحدهم هم الذين يصمتون ويحبون العزلة. أنت متكبر يا فولوديا! لماذ تنظر إلى شزرا؟ من فضلك انظر مباشرة فى وجهى! هيا، هيا يا عجل!

وقرر فولوديا أن يتكلم. ورغبة منه فى أن يبتسم أرعش شفته السفلى وطرف بعينيه، ومد يده ثانية إلى صدغه.

ودمدم :

ـ أنا. . أنا أحبك!

رفعت نيوتا حاجبيها بدهشة وضحكت.

وغنت مثل مغنيات الأوبرا عندما يسمعن شيئا فظيعا :

ـ ما الذى أسمعه؟ كيف؟ ماذا قلت؟ أعد . . أعد . .

فأعاد فولوديا :

ـ أنا . . أنا أحبك!

وتقدم نصف خطوة نحو نيوتا مسلوب الإرادة وهو لا يفهم ولا يدرك شيئا، وأمسك بذراعها فوق المرفق . وغامت عيناه ودمعتا، وتركز العالم كله فى فوطة كبيرة فاحت منها رائحة النهر .

وسمع ضحكا مرحا وصوتا يقول :

ـ برافو، برافو! لماذا سكت؟ أنا أريدك أن تتكلم! هيا!

وعندما رأى فولوديا أن نيوتا لا تمنعه من الإمساك بذراعها تطلع إلى وجهها الضاحك، ثم أحاط خصرها بذراعيه بطريقة فجة غير مريحة، والتقى ساعداه خلف ظهرها . كان ممسكا بها من خصرها بكلتا يديه، بينما رفعت هى ذراعيها إلى قفاها فلاحت غمازتان فى مرفقيها، وأخذت تسوى شعرها تحت المنديل وتقول بصوت هادئ :

ـ ينبغى يا فولوديا أن تكون ماهرا، مهذبا، رقيقا، ولن تستطيع أن تكون كذلك إلا تحت تأثير الصحبة النسائية . أوه، ولكن ما هذا الوجه المقبض . . الشرير . ينبغى أن تتكلم، وتضحك . . نعم يا فولوديا، لا تكن فظا، فأنت شاب ومازال أمامك الوقت لتشبع من الفلسفة . هيا دعنى، سأذهب! قلت لك دعنى!

وخلصت خصرها بسهولة، وخرجت من العريشة وهى تدندن بلحن ما . وبقى فولوديا وحده . سوى شعره وابتسم، وذرع العريشة عدة مرات من ركن لركن، ثم جلس على الأريكة، وابتسم مرة أخرى . كان يشعر بخجل لايطاق، حتى أنه دهش من أن الخجل البشرى يمكن أن يبلغ هذه

الدرجة من الحدة والقوة. ومن الخجل أخذ يبتسم ويتمتم بكلمات غير مترابطة ويشيح بيديه.

كان خجلا من أنه عومل منذ لحظات كما يعامل الأطفال، كان خجلا من وجله، والأهم من ذلك، لأنه تجاسر على تطويق خصر امرأة فاضلة متزوجة، بالرغم من أنه لا عمره، ولا مميزاته الخارجية، ولا وضعه الاجتماعى، لم تكن تعطيه، كما بدا له، أى حق فى ذلك.

وهب واقفا، وخرج من العريشة، ومضى دون أن يتلفت إلى داخل الحديقة بعيدا عن الدار.

وفكر وهو يمسك برأسه: «أوه، لو نرحل بسرعة من هنا! يا إلهى، بسرعة!»

كان القطار الذى ينبغى أن يستقله فولوديا مع maman سيتحرك فى الساعة الثامنة والدقيقة الأربعين. وبقى إلى موعد القطار حوالى ثلاث ساعات، ولكن فولوديا كان يود بكل سرور لو رحل إلى المحطة الآن، دون انتظار maman.

وقبيل الساعة الثامنة توجه إلى الدار. واكتسبت هيئته كلها طابع الحزم: فليكن ما يكون! وقرر أن يدخل الدار بجرأة، وينظر فى العيون مباشرة. ويتكلم بصوت عال مهما كان الامر.

عبر الشرفة، والصالة الكبيرة، وحجرة الجلوس، وهناك توقف قليلا ليسترد أنفاسه. ومن هنا سمع أصوات السيدات وهن يتناولن الشاى فى غرفة الطعام المجاورة. كانت مدام شوميخينا وmaman ونيوتا يتحدثن عن شيء ما ويضحكن.

وأصاخ فولوديا السمع.

كانت نيوتا تقول:

ـ صدقتني! . . أنا لم أصدق عينيّ! عندما أخذ يبوح لي بحبه، بل وتصورن، أحاط بخصري، لم أعرف فيه فولوديا القديم. وبالمناسبة، إنه مهذب! عندما قال إنه يحبني كان في عينيه شيء وحشي، كما في عيون الشركس،

وتأوهت maman :

ـ معقول؟ ـ وأغرقت في ضحك طويل. ـ معقول؟ كم يذكرني بأبيه.

وهرول فولوديا راجعا، وأفلت من الدار إلى الهواء الطلق.

وقال في نفسه وهو يتمزق ويشيح بيديه ويحدق في السماء برعب: كيف يجرؤن على الكلام عن ذلك علانية! يتحدثن علانية، بأعصاب باردة . . و maman تضحك . . maman يا إلهي، لماذا وهبتني هذه الأم؟ لماذا؟»

ومع ذلك كان عليه أن يذهب إلى الدار ويدخل مهما كان الأمر. وذرع الممر عدة مرات حتى هدأ قليلا ثم دخل الدار.

وسألته مدام شوميخينا بصرامة:

ـ لماذا لا تأتي لشرب الشاي في الموعد؟

فدمدم دون أن يرفع عينيه:

ـ آسف . . أنا . . ينبغي أن أرحل. maman، الساعة بلغت الثامنة!

فقالت maman ساهمة:

ـ اذهب أنت يا عزيزي . . سأبقى للمبيت عند ليلى. وداعا ياصديقي . . دعني أباركك . .

ورسمت عليه علامة الصليب، وقالت بالفرنسية لنيوتا:

ـ إنه يشبه ليرمونتوف قليلاً[1] . . أليس كذلك؟

---

(١) ميخائيل ليرمونتوف (١٨١٤ ـ ١٨٤١) شاعر روسي كبير، خلف بوشكين على عرش الشعر. وله أيضا رواية نثرية مشهورة «بطل من هذا الزمان». **(المعرب)**.

ودعهن فولوديا كيفما اتفق، دون أن ينظر إلى وجوههن، وخرج من غرفة الطعام. وبعد عشر دقائق كان فى الطريق إلى المحطة، وكان سعيدا بذلك. لم يعد يشعر بالرهبة أو الخجل، وأحس بأنفاسه تتردد بخفة وطلاقة.

وعلى بعد نصف كيلومتر من المحطة جلس على حجر بقرب الطريق وأخذ يتطلع إلى الشمس التى اختفت إلى أكثر من نصفها وراء جسر الخط الحديدى. وفى المحطة أشعلت المصابيح هنا وهناك، وومض ضوء أخضر غائم وحيد، ولكن القطار لم يظهر بعد. كان فولوديا مرتاحا إلى جلوسه هكذا دون حراك وهو يصغى إلى اقتراب المساء شيئا فشيئا. وتجلى ظلام العريشة، ووقع الخطوات، ورائحة النهر، والضحك والخصر.. تجلى كل ذلك فى مخيلته بوضوح مذهل، ولم يعد كل ذلك مخيفا وكبير الأهمية كما كان من قبل..

وفكر فى نفسه: «هراء.. لم تنزع يدى، بل وضحكت عندما أمسكت بخصرها، إذن فقد أعجبها ذلك. لو ضايقها ذلك لغضبت منى..».

وأحس فولوديا الآن بالأسى لأنه لم يكن جريئا كما يجب هناك فى العريشة. وأسف على أنه يرحل هكذا، بطريقة غبية، وأصبح واثقا من أنه لو تكررت هذه الفرصة لكان أكثر جرأة، ولنظر إلى الأمور نظرة أبسط.

حسنا، ليس من الصعب أن تتكرر الفرصة. فآل شوميخين يتنزهون طويلا بعد العشاء. ولو ذهب فولوديا للنزهة مع نيوتا فى الحديقة المظلمة فستكون تلك هى الفرصة!

وقال فى نفسه: «سأعود، وغدا أرحل بقطار الصباح.. سأقول إننى تأخرت عن القطار».

وعاد.. كانت مدام شوميخينا و mamam ونيوتا وإحدى بنات الأخوات جالسات فى الشرفة يلعبن الورق. وعندما كذب فولوديا مدعيا

أنه تأخر عن القطار، أبدين قلقهن خشية أن يتأخر غدا عن موعد الامتحان، ونصحنه أن يستيقظ غدا فى وقت مبكر. وطوال فترة لعبهن جلس غير بعيد، وهو يتطلع إلى نيوتا بنهم وينتظر.. واكتملت فى رأسه الخطة: سيقترب من نيوتا فى الظلام، ويمسك بيدها، ثم يعانقها. ولا حاجة لأن يقول شيئا، لأن كل شيء سيكون مفهوما لكليهما دون كلمات.

ولكن السيدات لم يذهبن للتنزه فى الحديقة بعد العشاء وواصلن اللعب. ولعبن حتى الواحدة صباحا، ثم تفرقن للنوم.

وقال فولوديا لنفسه بأسى وهو يأوى إلى الفراش: «ما أغبى هذا كله! لكن لا بأس، سأنتظر إلى الغد.. غدا مرة أخرى فى العريشة. لا بأس..».

لم يحاول أن ينام، بل جلس فى الفراش، محيطا ركبتيه بذراعيه، وأخذ يفكر. كان التفكير فى الامتحان كريها. وقد قرر بينه وبين نفسه أنهم سيفصلونه حتما، وأنه ليس فى هذا الفصل أى شيء مروع. بالعكس، كل شيء ممتاز جدا. فغدا سيكون طليقا كالطائر، وسيرتدى الملابس المدنية، وسيدخن علنا، وسيتردد على هذه الدار لكى يغازل نيوتا فى أى وقت يشاء. لن يعود تلميذا، بل «شابا محترما». وما عدا ذلك، أى ما يسمى بالـ «كارير» والمستقبل، فأمره واضح: سيتطوع للخدمة، أو يعمل فى البرق، أو حتى فى صيدلية، حيث يترقى إلى وظيفة محضرٍ أدوية.. فما أكثر الوظائف.. ومرت ساعة، وأخرى وهو جالس يفكر..

وقبيل الثالثة صباحا، عندما بدأ ضوء الفجر يلوح، صرّ الباب بحذر ودخلت maman الغرفة.

وسألت وهى تتثاءب:

ـ ألست نائما؟ نم، نم، سأخرج حالا.. فقط سآخذ قطرات..

ـ ولماذا تحتاجين إليها؟

ـ ليلى المسكينة عندها تشنج. ثم يا بنى، عندك امتحان غدا . .

وأخذت من الصوان قارورة بها قطرات ما، واقتربت من النافذة وقرأت المكتوب عليها ثم خرجت.

وبعد دقيقة سمع فولوديا صوتا نسائيا يقول:

ـ يا ماريا ليونتيفنا، هذه ليست القطرات المطلوبة!

هذه قطرات السوسن، وليلى تريد المورفين. هل ابنك نائم؟ اطلبى منه أن يبحث عنها . .

كان ذلك صوت نيوتا. وسرت البرودة فى جسد فولوديا. وأسرع يرتدى سرواله، ثم ألقى بالمعطف على كتفيه واتجه إلى الباب.

وكانت نيوتا توضح لأمه همسا:

ـ مفهوم؟ المورفين! مكتوب عليها باللاتينى. أيقظى فولوديا وسوف يعثر عليه . .

فتحت maman الباب فرأى فولوديا نيوتا. كانت فى تلك البلوزة التى ذهبت فيها للحمام. ولم يكن شعرها مصففا بل تناثر على كتفيها، وكان وجهها ناعسا، أسمر فى العتمة:

وقالت:

ـ ها هو ذا فولوديا مستيقظ. فولوديا، ابحث يا عزيزى عن المورفين فى الصوان. مصيبة ليلى هذه . . دائما يحدث لها شىء ما.

ودمدمت maman بكلمات ما، وتثاءبت وانصرفت. وقالت نيوتا:

ـ هيا ابحث، ما لك واقفًا؟

اتجه فولوديا نحو الصوان، وجثا على ركبتيه وأخذ يفتش بين القوارير وعلب الأدوية. كانت يداه ترتعشان، وأحس فى صدره وجوفه بشىء، وكأنما تدفقت فى أحشائه كلها أمواج باردة. وشعر بالاختناق والدوار من رائحة الأثير وحامض الكربوليك وشتى الأعشاب الطبية التى كان يقلبها دون أى داع بيدين مرتعشتين فتتبعثر منه بسبب ذلك.

وفكر: «يبدو أن maman ذهبت. هذا حسن.. حسن..».

وسألت نيوتا بنبرة ممطوطة:

ـ هل ستنتهى قريبا؟

ـ حالا.. ها هو ذا المورفين على ما أظن... ـ قال وهو يقرأ كلمة«morph...» على إحدى القوارير ـ تفضلى!

كانت نيوتا واقفة بالباب، بحيث كانت إحدى ساقيها فى الطرقة والأخرى فى غرفته. وسوت شعرها الذى كان من الصعب تسويته لغزارته وطوله، ونظرت إلى فولوديا نظرة شاردة. وبدت لفولوديا فى هذه البلوزة الفضفاضة، وبوجهها الناعس، وبشعرها المهدل، فى هذا الضوء الشحيح المتسرب إلى الغرفة من السماء التى ابيضت وإن لم تنرها الشمس بعد، بدت له جذابة، باهرة.. كان مفتونا، وبدنه كله يرتعش، وتذكر باستمتاع كيف احتضن هذا الجسد الخلاّب فى العريشة. ومد لها الدواء قائلا:

ـ كم أنت..

ـ ماذا؟

ودخلت الغرفة.

وسألت وهى تبتسم:

ـ ماذا؟

كان صامتا يتطلع إليها، ثم تناول يدها كما فى العريشة.. أما هى فنظرت إليه وهى تبتسم وتنتظر: وماذا بعد؟

وهمس:

ـ أنا أحبك . .

كفت عن الابتسام، وفكرت قليلا، ثم قالت:

ـ مهلا، يبدو أن أحدا قادم. آه من هؤلاء التلاميذ! ـ قالت فى شبه همس وهى تمضى إلى الباب وتطل فى الممر ـ كلا، لا أحد هناك . .

وعادت . .

ثم خيل لفولوديا أن الغرفة، ونيوتا، والفجر، وهو نفسه . . كل ذلك تركز فى إحساس واحد بسعادة حادة غير عادية، لا مثيل لها، تستحق من أجلها أن تدفع كل عمرك وتتحمل العذاب الأبدى، ولكن ما أن مر نصف دقيقة حتى اختفى كل ذلك فجأة. لم يعد فولديا يرى سوى وجه بدين دميم شوهه تعبير اشمئزاز، وفجأة أحس هو أيضا بالقرف مما حدث .

وقالت نيوتا وهى تنظر إلى فولوديا بتقزز:

ـ ينبغى علىّ أن أذهب . يا لك من دميم، بائس . . إخص . . فرخ بط قبيح!

وكم بدا بشعا لفولوديا الآن شعرها الطويل، وبلوزتها الفضفاضة، وخطواتها، وصوتها!

وقال لنفسه بعد أن ذهبت: «فرخ بط قبيح . . حقا أنا قبيح . . كل شىء قبيح» .

كانت الشمس فى الخارج قد بزغت، وصدحت الطيور . وتناهت من الحديقة خطوات البستانى وصرير عربته اليدوية . . وبعد ذلك بقليل تردد خوار البقر وأنغام زمارة الراعى . وكان ضوء الشمس وتلك الأصوات تنبئ بوجود حياة طاهرة، أنيقة، شاعرية فى مكان ما فى هذه الدنيا . ولكن أين

هى؟ لم يتحدث عنها إلى فولوديا أحد، لا maman ولا كل أولئك الأشخاص المحيطين به.

وعندما أيقظه الخادم ليلحق بقطار الصباح تصنع النوم.. وقال فى نفسه: «فى داهية، فليذهب كل شىء إلى الشيطان!».

ونهض من فراشه فى الحادية عشرة. وفكر وهو يمشط شعره أمام المرآة ويتطلع إلى وجهه الدميم الشاحب من السهاد:

«صحيح تماما.. فرخ بط قبيح».

وعندما رأته maman وجزعت من عدم ذهابه إلى الامتحان قال لها فولوديا:

- غبت فى النوم ياmaman .. لكن لا تقلقى، سأقدم شهادة طبية.

واستيقظت مدام شوميخينا ونيوتا قبيل الساعة الواحدة. وسمع فولوديا كيف فتحت مدام شوميخينا نافذتها بصخب بعد أن استيقظت، وكيف نادت على نيوتا بصوتها الأجش فردت هذه بضحك مجلجل. ورأى الباب يفتح فيتقاطر من غرفة الجلوس إلى مائدة الأفطار صف طويل من بنات الأخوات والطفيليات (وفى حشد الأخيرات كانت maman)، ولمح وجه نيوتا المغسول الضاحك، وبجواره ظهرت لحية المعمارى الذى وصل لتوه وحاجباه الأسودان.

كانت نيوتا فى تايير أوكرانى لم يكن لائقا بها أبدا بل جعل منظرها أخرق. وكان المعمارى يلقى نكات مبتذلة وسطحية أما الكستليتة التى قدمت فى الإفطار فقد بدا لفولوديا أن فيها بصلا زائداً. وبدا له أيضا أن نيوتا تضحك بصوت عال عن عمد وتنظر نحوه لكى تفهمه بذلك أن ذكرى ليلة الأمس لا تسبب لها أى قلق، وأنها لا تشعر بوجود فرخ البط القبيح على المائدة.

وقبيل الساعة الرابعة رحل فولوديا مع maman إلى المحطة. وأثارت الذكريات القذرة، والسهاد، والفصل المنتظر من المدرسة، وتأنيب الضمير.. أثار كل ذلك فى نفسه غيظا ثقيلا قاتما. وتطلع إلى صفحة وجه maman الهزيل وأنفها الصغير ومعطفها المشمع الذى أهدته لها نيوتا، ودمدم:

ـ لماذا تضعين البودرة؟ هذا لا يليق فى مثل سنك! أنت تتزوقين ولا تسددين خسائرك فى اللعب، وتدخنين سجائر الآخرين.. هذا كريه! أنا لا أحبك.. لا أحبك!

كان يهينها، بينما أخذت تدير عينيها بخوف، وتشيح بيديها وتهمس بذعر:

ـ ما هذا يا صديقى؟ يا إلهى، سيسمعك الحوذى! اسكت وإلا سمعك الحوذى! إنه يسمعك!

ولكن فولوديا مضى يقول وهو يختنق:

ـ لا أحبك.. لا أحبك! أنت منحلّة، بلا قلب.. إياك أن تلبسى هذا المعطف! أتسمعين؟ وإلا سأمزقه إربا..

فبكت maman مستعطفة:

ـ عيب يا ولدى! سيسمعك الحوذى!

ـ وأين ثروة أبى؟ أين نقودك؟ أنت بددت كل ذلك! أنا لا أخجل من فقرى، ولكنى أخجل من أن لى أما مثلك.. عندما يسألنى رفاقى عنك أحمر خجلا..

كان عليهما أن يستقلا القطار لمسافة محطتين حتى المدينة. ووقف فولوديا طوال الطريق فى شرفة العربة وجسده كله يرتعش. لم يشأ أن يدخل العربة، فقد جلست هناك أمه التى كان يمقتها. وكان يمقت نفسه

ومفتشى القطار ودخان القاطرة، والبرد الذى عزا إليه رعشته. . وكلما ضاقت نفسه، ازداد إحساسه بأنه توجد فى مكان ما فى هذا العالم، وعند أناس ما، حياة نقية، سامية، دافئة، أنيقة، مليئة بالحب والرقة والمرح والانطلاق. . أحس بذلك فاستبدت به كآبة شديدة، حتى أن أحد الركاب نظر إليه نظرة فاحصة وسأله:

ـ ماذا، يبدو أن أسنانك تؤلمك؟

كانت maman وفولوديا يعيشان فى المدينة عند ماريا بتروفنا، وهى سيدة من النبلاء كانت تستأجر شقة كبيرة وتؤجرها من الباطن للسكان. وكانت maman تستأجر غرفتين، إحداهما ذات نوافذ وبها سريرها ولوحتان بإطارين مذهبين معلقتان على الجدران، كانت غرفتها، ومن داخلها غرفة صغيرة مظلمة يقطنها فولوديا. وكانت هنا كنبة ينام عليها، وفيما عدا الكنبة لم يكن هناك أى أثاث. كانت الغرفة كلها غاصة بسلال الملابس وعلب القبعات وبمختلف أنواع المتاع القديم الذى كانت maman تحتفظ به لسبب ما. وكان فولوديا يحضر دروسه فى غرفة أمه أو فى «الغرفة المشتركة». . هكذا كانوا يسمون الغرفة الكبيرة التى كان كل السكان يجتمعون فيها أثناء الغداء أو فى أوقات المساء.

وعندما عاد فولوديا إلى البيت استلقى على الكنبة وتغطى بالبطانية ليكبح ارتجاف بدنه. وذكرته علب القبعات والسلال والمتاع القديم بأنه ليس لديه غرفته الخاصة، ملجأه الذى يمكن أن ينتحى فيه بعيدا عن maman وضيوفها وعن الأصوات التى كانت تتناهى الآن من «الغرفة المشتركة». وذكرته الحقيبة المدرسية والكتب المتناثرة فى الأركان بالامتحان الذى تغيب عنه. . ولسبب ما ودون مناسبة تذكر (منتون) حيث كان يعيش وهو فى السابعة من عمره مع المرحوم والده. وتذكر (بياريتس) [1]،

(١) منتون وبياريتس مدينتان ساحليتان فى فرنسا. **(المعرب)**.

والفتاتين الإنجليزيتين اللتين كان يركض معهما على رمال الشاطئ . . وأراد أن يسترجع فى ذاكرته لون السماء والمحيط ، وارتفاع الأمواج ، ومزاجه آنذاك لكنه لم يتمكن من ذلك . ومضت الفتاتان الإنجليزيتان فى مخيلته بصورة حية مجسدة ، أما ألاشياء الأخرى فاختلطت وتبخرت فى اضطراب . .

«كلا ، الجو هنا بارد» ، ـ فكر فولوديا ، ثم نهض فارتدى المعطف واتجه إلى «الغرفة المشتركة» .

كانوا هناك يشربون الشاى . وجلس إلى السماور ثلاثة أشخاص : maman ، ومدرسة الموسيقى ، وهى عجوز ترتدى عوينات بإطار من عظم السلحفاة ، وأفجوستين ميخايليتش ، كهل فرنسى بدين للغاية ، يعمل فى مصنع عطور .

وقالت maman :

ـ أنا لم أتغد اليوم . ينبغى إرسال الخادم لشراء خبز .

فصاح الفرنسى :

ـ يا دونياشا !

واتضح أن ربة البيت أرسلت الخادم فى أمر ما .

فقال الفرنسى وهو يبتسم ابتسامة عريضة :

ـ أوه ، هذه بسيطة جدا . أنا سأذهب وأشترى لك الخبز . أوه ، هذه بسيطة !

وضع سيجاره ذا الرائحة القوية الكريهة فى مكان ظاهر ، وارتدى قبعته وخرج . وما أن خرج حتى أخذت maman تروى لمدرسة الموسيقى كيف كانت فى ضيافة آل شوميخين وكيف استقبلوها هناك بحفاوة .

وقالت :

ـ إن ليلى شوميخينا قريبتى . . المرحوم زوجها، الجنرال شوميخين كان ابن عم زوَجى . أما هى فكانت قبل الزواج البارونة كولب .

ـ فقال فولوديا بعصبية :

ـ maman ، هذا ليس صحيحا ! لماذا تكذبين ؟

كان يعرف جيدا أن maman تقول الحقيقة، ولم يكن فى حديثها عن الجنرال شوميخين والبارونة كولب كلمة كذب واحدة، ولكنه مع ذلك أحس أنها تكذب . بدا الكذب فى طريقة كلامها وفى تعابير وجهها وفى نظرتها، فى كل شىء

وكرر فولوديا ودق الطاولة بقبضته بشدة حتى أن الأوانى اهتزت، وانسكب الشاى من فنجان maman :

أنت تكذبين ! لأى داع تتحدثين عن الجنرالات والبارونات؟ كل هذا كذب !

ارتبكت مدرسة الموسيقى وسعلت فى منديلها متظاهرة أنها شرقت، بينما بكت maman .

وفكر فولوديا : «إلى أين أذهب؟»

كان فى الخارج منذ قريب، أما الأصدقاء فيخجل من الذهاب إليهم . ومن جديد تذكر بلا مناسبة الفتاتين الإنجليزيتين . . وذرع «الغرفة المشتركة» من ركن لركن ثم دلف إلى غرفة أفجوستين ميخايليتش . وهنا فاحت بشدة روائح الزيوت العطرية وصابون الجليسرين . وعلى الطاولة وعلى رفوف النوافذ، بل وحتى على الكراسى اصطفت كمية لا حصر لها من القوارير والأكواب والكؤوس بسوائل مختلفة الألوان . وتناول فولوديا جريدة من على الطاولة ونشرها وقرأ الاسم : figaro [1] . . وفاحت من الجريدة

(١) صحيفة الفيجارو الفرنسية . **(المعرب)** .

رائحة قوية لطيفة. ثم أخذ من على الطاولة مسدسا . .

وفى الغرفة المجاورة كانت مدرسة الموسيقى تطيب خاطر maman :

ـ كفى، لا تلقى بالا! إنه مازال صغيرا! الفتيان فى سنه دائما يتجاوزون الحدود. ينبغى التسليم بذلك.

فقالت maman بصوت منغم:

ـ لا يا يفجينيا أندرييفنا، لقد فسد جدا. ليس هناك كبير يحكمه، وأنا ضعيفة ولا أستطيع أن أفعل شيئا. كلا، إننى تعيسة!

وضع فولوديا فوهة المسدس فى فمه، وتحسس فيه شيئا يشبه حرك الزناد أو القفل فضغط عليه بإصبعه. . ثم تحسس بروزا آخر، وضغط مرة أخرى. ثم أخرج المسدس من فمه، ومسحه بذيل معطفه، وتفحص القفل. لم يسبق له أبدا أن أمسك بسلاح فى يديه. .

وقال لنفسه مخمنا:

ـ يبدو أن هذا ينبغى رفعه. . نعم، يبدو هكذا. .

ودخل أفجوستين ميخايليتش «الغرفة المشتركة» مقهقها، وأخذ يتحدث عن شىء ما. ووضع فولوديا المسدس فى فمه مرة أخرى وضغط عليه بأسنانه، وداس بإصبعه على شىء ما. ودوت طلقة. . اصطدم شىء ما بقفا فولوديا بقوة رهيبة، فوقع على الطاولة وغاص بوجهه فى الكؤوس والقوارير مباشرة. ثم رأى المرحوم أباه فى قبعة أسطوانية بشريط أسود عريض، لابسا ثياب الحداد على سيدة ما فى (منتون)، رآه يحتضنه فجأة بكلتا ذراعيه، ثم يسقطان معا فى هاوية سحيقة مظلمة للغاية.

ثم اختلط كل شىء واختفى. .

الــزوج

توقف أحد أفواج الخيالة أثناء المناورات للمبيت فى مدينة (ك) الريفية الصغيرة. وحَدَثٌ مثل مبيت السادة الضباط يثير دائما مشاعر السكان المحليين إلى أقصى درجات الانفعال والحماس. فأصحاب الدكاكين، الذين يحلمون بتصريف المرتدلا الكاسدة الصدئة و«أحسن أنواع» السردين المرصوص على الأرفف منذ عشر سنوات، وأصحاب الحانات، وغيرهم من رجال الأعمال، لا يغلقون أبواب محالهم طوال الليل. ويرتدى الحاكم العسكرى وسكرتيره وجنود الحامية المحلية أفضل حللهم. ويهرول رجال الشرطة كالمجانين، أما النساء فالشيطان وحده يعلم ماذا يحدث لهن!

وعندما سمعت سيدات (ك) باقتراب الفوج، تركن جانبا قدور المربى الساخنة وهرعن إلى الخارج. لم يعبأن بثيابهن المنزلية وهيآتهن المشعثة وانطلقن لاهثات مبهورات لملاقاة الفوج وهن يصغين بنهم إلى أنغام المارش. ولو نظرت إلى وجوههن الشاحبة المتحمسة لخيل إليك أن هذه الأنغام لم تكن تتردد من أبواق الجنود بل من السماء.

وتصايحن بسرور:

ـ الفوج! الفوج قادم!

فما الذى كان يبغيه من هذا الفوج الغريب، الذى عرج على المدينة صدفة وسيرحل غدا فى الفجر؟ وفيما بعد، حينما وقف السادة الضباط

وسط الميدان، عاقدين أذرعهم خلف ظهورهم، وهم يبحثون مسألة الإيواء، كانت السيدات مجتمعات فى شقة زوجة المحقق ويتسابقن فى انتقاد الفوج. ولا يعلم إلا الله من أين عرفن أن قائد الفوج متزوج، لكنه لا يعاشر زوجته، وأن كبير الضباط يولد له كل عام أطفال ميتون، وأن الياور غارق فى حب كونتيسة ما بلا أمل، بل حاول الانتحار مرة. كن يعرفن كل شىء. وعندما مر من أمام النوافذ جندى مجدور الوجه، فى قميص أحمر كن يعلمن تمام العلم أنه جندى مراسلة الملازم ريمزوف، وأنه يهرول فى المدينة بحثا لسيدة عن فودكا أنجليزية مع تأجيل الدفع. ولم يكنّ قد رأين الضباط إلا لمحا، ومن ظهورهم، إلا أنهن قد قررن أنه لا يوجد بينهم ضابط واحد جميل أو جذاب. . وبعد أن شبعن من الكلام طلبن أن يأتى إليهن الحاكم العسكرى ورئاسة النادى، وأمرنهم بإقامة حفل راقص مهما كان الامر.

ونفذت رغبتهن. وفى التاسعة مساء دوت أمام النادى أنغام أوركسترا عسكرية، وفى داخل النادى نفسه كان السادة الضباط يرقصون مع سيدات مدينة (ك). وأحست السيدات أنهن يحلقن بأجنحة. ثملن من الرقص والموسيقى وصليل المهاميز، فاستسلمن بكل قلوبهن للتعارف العابر، ونسين تماما رجالهن المدنيين. وتجمع آباؤهن وأزواجهن، الذين تراجعوا إلى أقصى خلفية الصورة، حول البوفيه الهزيل فى المدخل. كان كل هؤلاء الصيارفة والسكرتيرون والمفتشون، ذوو الوجوه السقيمة، والبواسير والملابس المهدلة يدركون ضآلتهم تمام الإدراك فلم يدخلوا الصالة، بل أخذوا يتطلعون من بعيد إلى زوجاتهم وبناتهم وهن يراقصن الضباط المهرة ذوى الاجسام الرشيقة.

وكان من بين الأزواج مأمور ضرائب رسوم الإنتاج كيريل بتروفتش شأليكوف، وهو مخلوق ثمل، ضيق وخبيث، ذو رأس كبير حليق وشفتين سمينتين متدليتين. كان فى وقت ما طالبا فى الجامعة، يقرأ

بيساريف ودوبرولوبوف[1]، ويغنى الأغانى، أما الآن فيقول عن نفسه إنه مساعد اعتبارى[2] ولا شيء أكثر. وقف مرتكزا على قائم الباب دون أن يحول نظره عن زوجته. وكانت زوجته، آنَّا بافلوفنا، وهى سيدة صغيرة، سوداء الشعر، طويلة الأنف، فى حوالى الثلاثين، حادة الذقن، مزينة بالمساحيق ومشدودة بالكورسيه، ترقص بلا توقف إلى درجة الإعياء. وقد أرهقها الرقص، ولكن التعب كان تعبا جسديا لا روحيا.. كانت هيئتها كلها تطفح بالإعجاب والاستمتاع. كان صدرها يختلج، ولمعت على خديها بقع حمراء، وكانت كل حركاتها فاترة، ناعمة. وبدا واضحا أنها كانت، وهى ترقص، تتذكر الماضى، ذلك الماضى البعيد، عندما كانت ترقص وهى طالبة فى المعهد وتحلم بحياة مترفة مرحة، وعندما كانت واثقة من أنها ستتزوج حتما من بارون أو أمير.

وأخذ مأمور الضرائب يتطلع إليها مقطب الوجه من الغيظ.. لم يكن يشعر بالغيرة، إلا أنه كان متضايقا من أنه: أولا، بسبب الرقص، لم يكن هناك مكان للعب الورق، وثانيا لأنه كان لا يطيق الموسيقى، وثالثا لأن السادة الضباط، كما بدا له، كانوا يعاملون المدنيين بإهمال وتعال بالغين، ورابعا، وهو الأهم، فقد أثار سخطه وأجج غضبه تعبير الغبطة على وجه زوجته..

ودمدم:

ـ منظر كريه! عما قريب ستبلغ الأربعين، لا مال ولا جمال، ومع ذلك تزينت وتصفففت، ولبست الكورسيه! تتدلل وتتقصع، وتظن أن ذلك يبدو جميلاً.. يا سلام، ما أروعك يا سيدتى!

---

(١) ديمترى بيساريف (١٨٤٠ ـ ١٨٦٨) ونيقولاى دوبرولوبوف (١٨٢٦ ـ ١٨٦١) ناقدان أدبيان وصحفيان من كبار ممثلى الثوريين الديمقراطيين فى القرن التاسع عشر. **(المعرب)**.

(٢) من الرتب المدنية الدنيا فى روسيا القيصرية. **(المعرب)**.

استسلمت آنّا بافلوفنا للرقص تماما، حتى أنها لم تنظر إلى زوجها نظرة واحدة.

وقال المأمور بكراهية:

ـ طبعا، وماذا نكون نحن الفلاحين! نحن الآن خارج الهيئة.. نحن أفيال بحر، دببة ريفيون! أما هى فأميرة الحفل. مازالت تحتفظ بشبابها إلى درجة أنها تثير اهتمام الضباط، بل وربما وقع أحدهم فى غرامها.

وأثناء رقصة المازوركا تقلص وجه المأمور تماما من شدة الغيظ. كان هناك ضابط أسود الشعر، جاحظ العينين ذو وجنتين تتريتين بارزتين يراقص آنّا بافلوفنا. وكان يعمل بساقيه فى جدية، وقد اكتسى وجهه بتعبير صارم، وأخذ يلوى ركبتيه بشدة حتى أنه كان مثل الدمية الخشبية التى يشدونها بالخيوط فتتحرك. أما آنّا بافلوفنا فكانت شاحبة مرتجفة، وقد ثنت قوامها بفتور وقلبت عينيها، محاولة أن تبدو وكأنها لا تكاد تلمس الأرض، والظاهر أنه خيل إليها أنها ليست على الأرض، فى ناد ريفى، بل فى مكان بعيد، فوق السحاب! لم يكن وجهها وحده الذى يعبر عن الغبطة بل جسدها كله.. ولم يعد فى وسع مأمور الضرائب أن يحتمل. أحس برغبة فى السخرية من هذه الغبطة، وإشعار آنّا بافلوفنا بأنها غابت عن وعيها، وبأن الحياة ليست أبدا بهذه الروعة التى تبدو لها الآن وهى سكرى بالنشوة..

ودمدم قائلا:

ـ مهلا، سوف أريك كيف تبتسمين بغبطة! لست طالبة أو بنتا صغيرة. الشمطاء يجب أن تعرف أنها شمطاء!

تحركت فى صدره كما تتحرك الفئران أحاسيس خسيسة بالغيرة والحنق، والكبرياء المهان، والكراهية الريفية المحدودة، تلك الكراهية التى تعشش فى نفوس الموظفين الصغار بسبب الفودكا وحياة الجلوس إلى

المكاتب . . وانتظر حتى انتهت المازوكا ثم دخل الصالة واتجه نحو زوجته. كانت آنَّا بافلوفنا فى ذلك الوقت جالسة مع مراقصها وهى تخفق بالمروحة، وتزر عينيها بدلال وتروى كيف رقصت فى وقت ما فى بطرسبرج . (كانت تزم شفتيها على شكل قلب وتلفظ الحروف هكذا: «عندنا فى بيوتيورسبيورج»).

وقال المأمور بصوت متحشرج :

ـ أنيوتا ، هيا إلى البيت !

وعندما رأت آنَّا بافلوفنا زوجها أمامها انتفضت فى البداية وكأنما تذكرت أن لديها زوجا ، ثم تضرجت خجلا . شعرت بالخجل من أن لها زوجا سقيما ، عبوسا ، عاديا كهذا . .

وكرر المأمور :

ـ هيا إلى البيت !

ـ لماذا؟ الوقت مبكر .

فقال المأمور متباطئا وبوجه شرير :

ـ هيا إلى البيت أرجوك!

فسألت آنَّا بافلوفنا بقلق :

ـ لماذا؟ هل حدث شيء؟

ـ لم يحدث شيء، ولكنى أريد أن تعودى إلى البيت حالا . . أريد وكفى، وأرجوك لا داعى للكلام!

لم تكن آنَّا بافلوفنا تخاف زوجها ، ولكنها شعرت بالخجل أمام مراقصها الذى كان ينظر إلى المأمور بدهشة وسخرية . فنهضت وانتحت بزوجها جانبا . قالت له :

ماذا دهاك؟ لماذا أعود إلى البيت؟ الساعة لم تبلغ حتى الحادية عشرة بعد!

ـ أنا أريد وانتهينا! تفضلى عودى وكفى!

ـ دعك من هذه الحماقات! اذهب أنت إذا أردت.

ـ حسنا، سأثير فضيحة!

رأى المأمور كيف تتلاشى تعبير الغبطة شيئا فشيئا من وجه زوجته، وكيف كانت تشعر بالخجل وتعانى، فأحس بشىء من الراحة.

وسألته زوجته:

ـ ما حاجتك إلىّ الآن؟

ـ لست بحاجة إليك، ولكنى أريد أن تبقى فى البيت. أريد وكفى.

لم ترغب آنّا بافلوفنا حتى فى السماع، ولكنها أخذت بعد ذلك تتوسل إلى زوجها أن يسمح لها بالبقاء ولو نصف ساعة. ثم أخذت تعتذر وتقسم وهى لا تدرى لماذا تفعل ذلك. كانت تتحدث فى همس وتبتسم، حتى لا يظن الحاضرون أن هناك خلافا بينها وبين زوجها. ومضت تؤكد له أنها لن تبقى طويلا، فقط عشر دقائق، فقط خمس دقائق. بيد أن المأمور أصر على موقفه بعناد.

ـ كما تشائين، ابقى! ولكنى سأثير فضيحة.

وبينما كانت آنّا بافلوفنا تتحدث مع زوجها ضمرت وهزلت وشاخت. ومضت إلى المدخل شاحبة وهى تعض شفتيها وتكاد تبكى، وبدأت ترتدى معطفها.

وأبدت سيدات (ك) دهشتهن فسألن:

ـ إلى أين؟ آنّا بافلوفنا، إلى أين يا عزيزتى؟

فرد المأمور نيابة عنها :

ـ عندها صداع .

وبعد أن خرج الزوجان من النادى سارا فى صمت حتى بلغا البيت . كان المأمور يسير خلف زوجته . وبينما كان ينظر إلى قامتها المحنية الذليلة التى هدها الحزن، تذكر غبطتها التى أثارت حنقه فى النادى، فامتلأ قلبه بإحساس الظفر عندما أدرك أن هذه الغبطة قد تلاشت . كان سعيدا وراضيا، وفى الوقت نفسه أحس بأن شيئا ما ينقصه، وراودته رغبة فى أن يعود إلى النادى ليصنع شيئا يجعل الجميع يشعرون بالملل والمرارة، وبضآلة هذه الحياة وسطحيتها عندما تسير هكذا فى ظلام الشارع وتسمع بقبقة الوحل تحت قدميك، وعندما تعرف أنك ستستيقظ غدا فى الصباح فلا تجد أمامك شيئا آخر سوى الفودكا وأوراق اللعب! أوه، ما أفظع ذلك!

أما آنّا بافلوفنا فكانت تخطو بالكاد. . كانت لا تزال تحت تأثير الرقص والموسيقى والأحاديث والبريق والصخب. وسارت وهى تسأل نفسها : ما الذى جنته ليعاقبها الله هذا العقاب؟ كانت تشعر بالمرارة والمهانة وتكاد تختنق من الحقد الذى اعتمل فى صدرها وهى تسمع خطوات زوجها الثقيلة. ولزمت الصمت وهى تحاول أن تعثر على أكثر الكلمات إهانة ووخزا وسما لتزهى بها زوجها، وفى الوقت نفسه كانت تدرك أن مأمورها لا تؤثر فيه أية كلمات. فماذا تعنى الكلمات بالنسبة له؟ ولم يكن فى وسع أعدى الأعداء أن يضعها فى حالة أشد عجزا من هذه الحالة.

بينما كانت الموسيقى تدوى، والظلمة مشبعة بأكثر الأنغام رقصا وإثارة.

الأطفال

بابا وماما والعمة نادية غائبون عن البيت. لقد رحلوا لحفل التعميد عند ذلك الضابط العجوز الذى يركب فرسا رمادية صغيرة. وفى انتظار عودتهم جلس جريشا وآنيا واليوشا وسونيا وابن الطاهية أندريه فى غرفة الطعام حول طاولة الطعام يلعبون اللوتو. وفى الحقيقة كان من المفروض أن يناموا منذ وقت طويل، ولكن هل يمكن أن يناموا دون أن يسمعوا من ماما كيف كان الطفل الذى عمدوه، وما الذى قدم فى العشاء؟ والطاولة التى يضيؤها مصباح معلق، حافلة بالأرقام وقشر الجوز وبقطع الورق والمربعات الزجاجية. وأمام كل لاعب بطاقتان وكمية من المربعات لسد خانات الأرقام. وفى وسط الطاولة طبق أبيض به خمس قطع معدنية من فئة الكوبيك. وبجوار الطبق بقايا تفاحة ومقص وطبق كبير صدرت الأوامر بوضع قشر الجوز فيه. والأطفال يلعبون على النقود. الرهان: كوبيك واحد. والشرط: إذا غش أحد فى اللعب يطرد فورا. وليس هناك فى غرفة الطعام أحد غير اللاعبين. فالمربية أجافيا إيفانوفنا تجلس فى الطابق الأسفل، فى المطبخ، وتعلم الطاهية التفصيل. أما الأخ الأكبر فاسيا، التلميذ بالصف الخامس فيستلقى على الكنبة فى غرفة الجلوس ويضجر.

يلعبون بحماسة. وترتسم الحماسة أكثر ما ترتسم على وجه جريشا. وهو صبى صغير، فى التاسعة من عمره، برأس محلوق الشعر تماما، وخدين منتفخين وشفتين غليظتين كشفاه الزنوج، وقد التحق بالدراسة فى

الصف الإعدادى، ولهذا يعتبرونه كبيرا وأذكى الجميع. وهو يلعب من أجل النقود فقط. ولولا الكوبيكات الموضوعة فى الطبق لكان قد نام منذ زمن بعيد. عيونه العسلية تركض بقلق وغيرة فوق بطاقات شركائه فى اللعب. والخوف من احتمال الخسارة، والغيرة، والاعتبارات المالية التى تملأ رأسه الحليق، لا تدع له مجالا للجلوس فى هدوء وللتركيز. فهو يتململ فى مجلسه كأنه على جمر. وعندما يكسب يقبض على النقود بجشع ويدسها فى جيبه على الفور. وشقيقته آنيا، ذات الثمانية أعوام، والذقن الحاد والعينين الذكيتين اللامعتين، تخشى هى الأخرى من أن يكسب أحد غيرها. إنها تراقب اللاعبين بيقظة وتارة تتضرج بالحمرة وتارة تشحب. ولكن ليس ما يهمها هو النقود. بل إن التوفيق فى اللعب هو بالنسبة لها مسألة كرامة. أما الشقيقة الأخرى سونيا، ذات الأعوام الستة والرأس الصغير المجعد الخصلات، والبشرة ذات اللون الذى لا تراه إلا على وجوه الأطفال الأصحاء للغاية أو الدمى الغالية أو علب الحلويات، فتلعب من أجل عملية اللعب ذاتها. ويطفح وجهها بالتأثر والرضى. وأيا كان الرابح فهى تقهقه وتصفق بنفس الدرجة. أما أليوشا، الصبى الصغير المكتنز المستدير الجسم، فيشخر ويلهث ويحملق بعينين جاحظتين فى البطاقات. وليس لديه أى غرض أو كرامة. يكفيه أنهم لا يطردونه من مائدة اللعب ولا يجبرونه على النوم. ويبدو من مظهره الخارجى أنه فاتر عديم المبالاة، لكنه فى قرارة نفسه شيطان ماكر. وقد اشترك فى اللعب لا حبا فيه بقدر ما هو من أجل المشاحنات الحتمية التى تحدث فى مجرى اللعب. وهو يشعر بفرحة طاغية عندما يضرب أحدهم شخصا ما أو يسبه. ومنذ فترة طويلة وهو يريد أن يقضى حاجته، ولكنه لا يترك الطاولة لحظة واحدة خشية أن يسرقوا مربعاته وكوبيكاته فى غيابه. ولما كان لا يعرف سوى أرقام الآحاد والأعداد التى تنتهى بالصفر، فإن شقيقته آنيا تقوم بدلا منه بسد الخانات بالمربعات. أما اللاعب الخامس، ابن الطاهية أندريه، الصبى الأسود الشعر المريض الهيئة، الذى يرتدى قميصا من الشيت ويعلق

على صدره صليبا نحاسيا، فيقف جامدا ويحدق فى الأرقام حالما. وهو ينظر إلى المكسب وإلى فوز الآخرين بلا اكتراث، إذ إنه غارق كلية فى حسابات اللعبة وفى فلسفتها البسيطة: فما أكثر الأرقام المختلفة فى هذه الدنيا، وكيف لا تختلط!

ويتناوب اللاعبون إعلان الأرقام ما عدا سونيا وأليوشا. ونظرا لرتابة الأرقام فقد أوجدت الممارسة مصطلحات ومسميات مضحكة كثيرة لها. فمثلا رقم سبعة يسميه اللاعبون «البشكور»، ورقم أحد عشر «العصاتان» ورقم سبعة وسبعون «سميون سميونيتش» ورقم تسعون «جدو». . إلخ. . ويسير اللعب بنشاط.

ـ اثنان وثلاثون! ـ يصيح جريشا وهو يخرج من قبعة الأب الأسطوانات الخشبية الصفراء ذات الأرقام ـ سبعة عشر! بشكور! ثمانية وعشرون ـ ماذا تفعلون!

وترى آنيا أن أندريه قد فاته أن يسد خانة الرقم ثمانية وعشرين، ولو كان الوضع مختلفا لنبهته حتما إلى ذلك. أما الآن، عندما وضعت كرامتها إلى جانب الكوبيك فى الطبق، فقد تهللت.

ويستطرد جريشا:

ـ ثلاثة وعشرون! سيميون سيميونيتش! تسعة!

ـ صرصار، صرصار! ـ تصيح سونيا وهى تشير إلى صرصار يجرى فوق المائدة ـ آى!

ويقول أليوشا بصوت غليظ:

ـ لا تقتليه، ربما عنده أولاد. .

وتتابع سونيا الصرصار بعينيها وتفكر فى أولاده: لا بد أنهم صراصير صغيرة جدا!

ويواصل جريشا وهو يتعذب من فكرة أن آنيا قد بقيت لديها فقط خانتان شاغرتان:

ـ ثلاثة وأربعون! واحد! ستة!

وتصيح سونيا وهى تقلب عينيها بدلال وتقهقه:

ـ كسبت! أنا كسبت!

وتستطيل وجوه اللاعبين.

ويقول جريشا وهو ينظر إلى سونيا بحقد:

ـ فلنراجعها!

أخذ جريشا لنفسه حق القرار بحكم أنه أكبر الجميع وأذكاهم. وكل ما يريده ينفذونه. وأخذوا يراجعون أرقام سونيا بدقة ولمدة طويلة. ولأسفهم الشديد اتضح أنها لم تغش. ويبدأ دور جديد.

وتقول آنيا وكأنما تخاطب نفسها:

ـ ماذا رأيت بالأمس! فيليب فيليبوفتش قلب جفنيه فأصبحت عيناه حمراوين، مرعبتين، مثل عيون العفاريت.

فيقول جريشا:

ـ أنا أيضا رأيته.. ثمانية! وعندنا تلميذ يستطيع تحريك أذنيه. سبعة وعشرون!

ويرفع أندريه عينيه إلى جريشا متفكرا ثم يقول:

ـ وأنا أيضا أستطيع تحريك أذنىّ..

ـ إذن هيا حركها!

ويحرك أندريه عينيه وشفتيه وأصابعه، ويخيل إليه أن أذنيه تتحركان.

ويدوى ضحك جماعى .

وتقول سونيا متنهدة :

ـ رجل سيئ فيليب فيليبوفتش هذا . دخل بالأمس غرفتنا ، وكنت بقميص النوم فقط . . وأحسست بعيب شديد !

وفجأة يصيح جريشا وهو يخطف النقود من الطبق :

ـ كسبت ! أنا كسبت ! راجعوا إذا أردتم !

ويرفع ابن الطاهية عينيه وقد علاه الشحوب ، ثم يهمس :

ـ يعنى أنا لن ألعب بعد .

ـ لماذا؟

ـ لأنه . . لأنه لم يعد معى نقود .

فيقول جريشا :

ـ لا يمكن اللعب بدون نقود !

ولمزيد من التأكد يفتش أندريه فى جيوبه مرة أخرى . وعندما لا يجد شيئا سوى فتات الخبز وقطعة قلم رصاص معضوضة ، تتقلص شفتاه وتطرف عيناه بعذاب . إنه يوشك على البكاء .

فتقول سونيا وهى لا تقوى على احتمال نظرته المعذبة :

ـ سأضع بدلك ! لكن لا بد أن تردها فيما بعد .

ويوضع الرهان ويستمر اللعب .

وتقول آنيا وهى تحملق بعينين واسعتين :

ـ يبدو أن أحدا يقرع الجرس .

يتوقف الجميع عن اللعب ويحدقون فى النافذة المظلمة بأفواه مفتوحة. ومن خلف الظلام تتراقص انعكاسات المصباح.

ـ لقد خيل إليك.

ويقول أندريه:

ـ الأجراس لا تدق ليلا إلا فى المقابر..

ـ ولماذا يدقون الأجراس هناك؟

ـ لكى لا يتسلل قطاع الطرق إلى الكنيسة. فهم يخافون الرنين.

فتسأل سونيا:

ـ ولماذا يتسلل قطاع الطرق إلى الكنيسة؟

ـ معروف لماذا.. لكى يقتلوا الحراس!

وتمر دقيقة صمت. ويتبادل الجميع النظرات، وينتفضون، ثم يواصلون اللعب. ويكسب أندريه فى هذه المرة.

وفجأة يصيح اليوشا بصوت غليظ:

ـ لقد غش!

ـ كذاب، أنا لم أغش!

ويمتقع أندريه وتتقلص شفتاه ويخبط أليوشا على رأسه! فتجحظ عينا أليوشا بغل، ويقفز من مكانه ويرتكز على الطاولة بركبته، وبدوره يصفع أندريه على خده! ثم يوجه كل منهما إلى الآخر صفعة أخرى وينفجران بالبكاء. وسونيا، التى لا تطيق مثل هذه المشاهد الرهيبة، تنخرط أيضا فى البكاء، فتدوى غرفة الطعام بأصوات العويل المتعددة. ولا تظنوا أن اللعب قد انتهى بسبب ذلك. فلا تمر سوى خمس دقائق حتى يعودوا إلى الضحك

والحديث المسالم. وعلى الوجوه آثار الدموع، ولكن ذلك لا يعوقهم عن الابتسام. بل إن أليوشا سعيد.. فها قد حدثت مشاحنة!

ويدلف فاسيا، تلميذ الصف الخامس، إلى غرفة الطعام. تبدو عليه آثار النعاس وخيبة الأمل. ويقول لنفسه وهو يرى جريشا يتحسس جيبه الذى ترن فيه الكوبيكات: «ياللفظاعة! كيف يعطون نقودا للأطفال! كيف يمكن السماح لهم بلعب القمار! يالها من تربية عظيمة! ياللفظاعة!».

ولكن الأطفال يلعبون بتلذذ إلى درجة تثير فيه الرغبة فى الالتحاق بهم لكى يجرب حظه. فيقول:

ـ انتظروا، سألعب معكم.

ـ ضع كوبيكا!

ـ حالا، ـ يقول وهو يبحث فى جيوبه. ـ ليس معى كوبيك، ها هو روبل. أضع روبلا[1].

ـ لا، لا، لا.. ضع كوبيكا!

ـ أيها الحمقى.. الروبل على أى حال أغلى من الكوبيك. ـ يقول التلميذ موضحا. ـ من يكسب منكم يعطنى الباقى.

ـ لا، ابتعد لو سمحت!

يهز تلميذ الصف الخامس كتفيه ويمضى إلى المطبخ ليأخذ من الخدم فكة. ويتضح أنه لا يوجد فى المطبخ كوبيك واحد.

ويعود من المطبخ فيلحّ على جريشا:

ـ فى هذه الحالة فك لى الروبل. سأعطيك مقابل الفك، ألا تريد؟ إذن بع لى عشرة كوبيكات بروبل.

---

(١) الروبل وحدة نقدية تساوى مائة كوبيك. **(المعرب)**.

يتطلع جريشا بارتياب إلى فاسيا: أليس فى طلبه هذا مؤامرة؟ أليس فيه احتيال؟

ويقول قابضا على جيبه:

ـ لا أريد.

ويثور فاسيا ويغلى، ويسبهم بالأغبياء وأصحاب الرؤوس الغليظة.

فتقول سونيا:

ـ فاسيا، سأضع بدلك! اجلس.

فيجلس التلميذ ويضع أمامه بطاقتين. وتبدأ آنيا فى إعلان الأعداد.

وفجأة يعلن جريشا بصوت منفعل:

ـ سقط منى كوبيك! انتظروا!

وينزعون المصباح المعلق ويهبطون تحت الطاولة ليبحثوا عن الكوبيك. وتقع أيديهم على البصقات وقشر الجوز وتصطدم رؤوسهم. ولكنهم لا يعثرون على الكوبيك. ويعاودون البحث من جديد، ويبحثون إلى أن ينتزع فاسيا المصباح من يدى جريشا ويضعه فى مكانه. ويواصل جريشا البحث فى الظلام.

وأخيرا يعثرون على الكوبيك، فيجلس اللاعبون إلى الطاولة لمواصلة اللعب:

ويعلن أليوشا:

ـ سونيا نامت!

وضعت سونيا رأسها المجعد الخصلات على يديها وغابت فى نوم عذب هادئ عميق، كأنما تنام منذ ساعة. نامت دون قصد، عندما كان

الآخرون يبحثون عن الكوبيك .

فتقول لها آنيا وهى تسحبها من غرفة الطعام :

ـ هيا نامى على سرير ماما . هيا !

يقودونها جماعة . وبعد ما لا يزيد عن خمس دقائق يتحول سرير ماما إلى منظر طريف . سونيا نائمة . وبجوارها يشخر أليوشا . وينام جريشا وآنيا متوسدين أرجل سونيا وأليوشا . وأندريه ، ابن الطاهية ، تمدد هنا أيضا مع الآخرين . ومن حولهم تناثرت الكوبيكات التى فقدت سلطانها عليهم حتى موعد اللعب القادم . تصبحون على خير !

الهارب

كانت تلك عملية طويلة . ففى البداية سار باشكا مع أمه تحت المطر ، تارة عبر حقل محصود ، وتارة فى الغابة ، حيث كانت الأوراق الصفراء تلتصق بحذائه ، سار حتى لاح الفجر . ثم وقف زهاء ساعتين فى المدخل المظلم ينتظر فتح الباب . لم يكن المدخل رطبا وباردا كما فى الخارج ، بيد أن رذاذ المطر كان يتطاير إلى هنا عند هبوب الريح . وعندما اكتظ المدخل شيئا فشيئا بالبشر ، دفن باشكا المحشور وجهه فى معطف شخص ما كانت تنبعث منه بشدة رائحة سمك مملح ، ونعس . وها هو ذا المزلاج يصر ، ويفتح الباب على مصراعية ، فيدخل باشكا مع أمه إلى غرفة الاستقبال . وهنا أيضا اضطروا لأن ينتظروا طويلا . كان المرضى جالسين على الأرائك بلا حراك وفى صمت . وتطلع باشكا إليهم ولزم هو الآخر الصمت ، رغم أنه رأى الكثير من الأشياء الغريبة والمضحكة . لم يتمالك نفسه مرة واحدة فقط ، عندما دخل الغرفة فتى ما وهو يقفز على ساق واحدة ، فقد شعر باشكا بالرغبة فى أن يقفز هو أيضا . لكز أمه أسفل كوعها وقال وهو يكتم ضحكة فى كمه :

ـ انظرى يا ماما . عصفور !

فقالت أمه :

ـ اسكت يا بنى ، اسكت !

وظهر الحكيم النعسان فى شباك صغير وقال بصوت أجش :

ـ تقدموا للتسجيل!

وأسرع الجميع إلى الشباك بمن فيهم الفتى النطّاط المضحك. وكان الحكيم يسأل كلا منهم عن اسمه واسم أبيه، وعمره، ومحل إقامته، ومتى مرض وغير ذلك. وعرف باشكا من ردود أمه أن اسمه ليس باشكا، بل بافل جالاكتيونوف، وأن عمره سبع سنوات، وأنه أمى، ومريض منذ عيد الفصح.

وبعد التسجيل بقليل كان عليهم أن ينهضوا، إذ مر الدكتور عبر غرفة الاستقبال مرتديا مريلة بيضاء ومحزوما بفوطة. وحين مر بجوار الفتى النطّاط هز كتفيه وقال بنبرة «تينور» منغمة:

ـ يا لك من أحمق! حسنا، ألست أحمق حقا؟ لقد قلت لك أن تأتى يوم الاثنين وها أنت ذا تأتى يوم الجمعة. بالنسبة لى لا يهم حتى لو لم تأت، ولكن ساقك ستضيع أيها الأحمق!

رسم الفتى على وجهه المسكنة الشديدة وكأنما كان ينوى أن يسأل حسنة، وطرف بعينيه وقال:

ـ اصنع معروفا يا إيفان ميكولايفتش!

فقال الدكتور مقلدا لهجته:

ـ دعك من إيفان ميكولايفتش! قلت لك يوم الاثنين وكان يجب أن تسمع الكلام. لست إلا أحمق..

وبدأ استقبال المرضى. كان الدكتور جالسا فى غرفته يستدعى المرضى بالدور. ومن وقت لآخر تتردد من هناك صرخات حادة، وبكاء أطفال أو هتاف الدكتور الغاضب:

ـ مالك تصرخ؟ هل أنا أقطع لحمك؟ اجلس ساكنا.

وجاء دور باشكا.

وصاح الدكتور:

ـ بافل جالاكتيونوف!

روعت الأم كأنما لم تكن تتوقع هذا الاستدعاء، ثم أمسكت باشكا من يده وسحبته إلى غرفة الدكتور. وكان الدكتور جالسا إلى الطاولة وهويدق بمطرقة صغيرة آليا على دفتر سميك.

وسأل دون أن ينظر إلى الداخلين:

ـ مم يشكو؟

فأجابت الأم:

ـ الولد عنده دمل فى كوعه يا سيدى. . ـ وارتسم على وجهها تعبير وكأنما كانت حقا فى غاية الحزن بسبب دمل باشكا.

ـ قلّعيه!

فك باشكا المنديل من حول عنقه وهو يزفر، ثم مسح أنفه بكمه وأخذ ينزع معطفه على مهل.

فقال الدكتور بغضب:

ـ لم تأتى إلى هنا للضيافة يا ولية! ما لك تتلكئين؟ لست الوحيدة عندى.

فألقى باشكا المعطف على الأرض بعجلة وخلع القميص بمساعدة أمه. . وتطلع إليه الدكتور بكسل وربت على بطنه العارى.

ـ يا لها من كرش كبيرة ربيتها يا أخى، ـ قال الدكتور ثم تنهد. ـ حسنا، أرنى كوعك.

تطلع باشكا شزرا إلى الطست المملوء بمخلفات الأربطة الدموية، ثم إلى مريلة الدكتور وأجهش بالبكاء.

فقلده الدكتور ساخرا:

ـ إي. . ى. . ى! آن الأوان أن تتزوج أيها المخادع، بينما تبكى! إخص عليك!

نظر باشكا إلى أمه محاولا ألا يبكى، وتجلى فى نظرته هذه رجاء: «لا تخبرى أحدا فى البيت بأننى بكيت فى المستشفى!»

وفحص الدكتور كوعه، وضغط عليه ثم تنهد، ومصمص شفتيه، ثم ضغط عليه مرة أخرى.

وقال:

ـ تستحقين الضرب يا ولية. لماذا لم تأتى به من قبل؟ خلاص ضاعت ذراعه! انظرى يا حمقاء. . مفصله مريض!

فتنهدت الولية:

ـ أنتم أدرى يا سيدى. .

ـ يا سيدى. . تهملين ذراعه حتى تتقيح ثم تقولين يا سيدى. أى كسّيب هو بدون ذراع؟ سوف تقضين عمرك كله فى العناية به. أظن لو ظهر فى أنفك دمل لهرولت إلى المستشفى فورا، بينما تتركين ذراع الولد تتقيح نصف سنة. كلكن هكذا.

اشعل الدكتور لفافة تبغ. ومع دخانها المتصاعد أخذ يوبخ الولية ويهز رأسه على إيقاع أغنية أخذ يدندن بها فى سره وهو يفكر فى شيء طوال الوقت. وكان باشكا يقف أمامه عاريا وهو يصغى ويتطلع إلى الدخان. وعندما انطفأت اللفافة انتفض الدكتور وقال بنبرة أهدأ:

ـ طيب، اسمعى يا ولية. المراهم والنقط لن تجدى شيئا. ينبغى إدخاله المستشفى.

ـ إذا كان ضروريا يا سيدى فلماذا لا يدخل؟

ـ سنجرى له عملية جراحية. ـ ثم قال مخاطبا باشكا وهو يربت على كتفه. ـ ابق عندنا يا باشكا. دع أمك ترحل، أما أنا وأنت يا أخى فسنبقى هنا. الحياة هنا طيبة يا أخى، آخر حلاوة! وما إن نفرغ من العمل يا باشكا حتى نذهب لاصطياد الحسّون، وسأريك الثعلب! وسنذهب معا لزيارة الجيران! هه؟ هل تريد؟ وستأتى أمك غدا إليك! هه؟

ونظر باشكا إلى أمه مستفهما، فقالت:

ـ ابق يا بنى!

فصاح الدكتور بمرح:

ـ سيبقى، سيبقى! ولا حاجة للكلام! سأريه ثعلبا حيا! وسنذهب معا إلى السوق لنشترى الحلوى! خذيه يا ماريا دينيسوفنا إلى الطابق الثانى!

بدا الطبيب، الذى كان أغلب الظن فتى مرحا وطيبا، مسرورا بهذه الصحبة. وأراد باشكا أن يرضيه، خاصة وأنه لم يذهب إلى السوق فى حياته، ويود عن طيب خاطر أن يرى ثعلبا حيا، ولكن كيف يبقى بلا أمه؟ وبعد أن فكر قليلا قرر أن يرجو الطبيب أن يُبقى أمه أيضا فى المستشفى، ولكن قبل أن يتمكن من فتح فمه كانت الحكيمة تقوده على الدرج إلى الطابق العلوى. وسار يحدق عن يمينه ويساره بفم مفغور. فالدرج والأرضية وعوارض الأبواب ـ وكلها ضخمة مستقيمة ساطعة ـ كانت مطلية بطلاء أصفر رائع، وتفوح منها رائحة الزيت النباتى اللذيذة. وفى كل مكان تدلت المصابيح وفرشت مماسح الأقدام، وبرزت من الجدران الصنابير النحاسية. ولكن باشكا أعجب أكثر شىء بالسرير الذى أجلسوه

عليه، وبالبطانية الرمادية الخشنة. وتحسس بيده الوسائد والبطانية، وطاف ببصره على العنبر وقرر أن الدكتور يحيا حياة لا بأس بها أبدا.

كان العنبر صغيراً لا يضم سوى ثلاثة أسرة، أحدها خاو، والثانى شغله باشكا، أما السرير الثالث فكان يجلس عليه عجوز ما، بعينين مكتئبتين، وكان يسعل باستمرار ويبصق فى كوز. ومن سرير باشكا كان يرى عبر الباب جزءاً من عنبر آخر بسريرين: على أحدهما ينام شخص شاحب جدا وهزيل، وعلى رأسه كيس من المطاط وعلى السرير الآخر جلس فلاح مباعدا ذراعيه، معصوب الرأس، وكان يبدو قريب الشبه بامرأة.

وبعد أن أجلست الحكيمة باشكا انصرفت، ثم عادت بعد قليل حاملة كوما من الملابس.

وقالت له:

ـ هذا لك. البس.

خلع باشكا ملابسه، وبإحساس لا يخلو من المتعة راح يرتدى الزى الجديد. وعندما ارتدى القميص والسروال والروب الرمادى تطلع إلى هيأته بخيلاء، وفكر فى أنه لا بأس لو يخطر فى القرية بهذا الزى. وتصور فى خياله كيف ترسله أمه إلى مزرعة الخضروات على الشاطئ ليجمع أوراق الكرنب للخنزير الصغير. ويسير بينما يحيط به الصبيان والفتيات وينظرون بحسد إلى روبه.

ودخلت العنبر ممرضة تحمل فى يديها صحفتين معدنيتين وملعقتين وقطعتى خبز. وضعت إحدى الصحفتين أمام العجوز والأخرى أمام باشكا، وقالت:

ـ كل!

نظر باشكا إلى الصحفة فرأى فيها حساء كرنب دسما بقطعة لحم، ففكر ثانية فى أن الدكتور يحيا حياة لا بأس بها أبدا، وأنه ليس عبوسا أبدا كما بدا له أول الأمر. وظل باشكا طويلا يتناول الحساء وهو يلعق الملعقة بعد كل غمسة، وعندما لم يتبق فى الصحفة سوى قطعة اللحم تطلع خلسة إلى العجوز وحسده على أنه مازال يجرع الحساء. وشرع يأكل اللحم وهو يتنهد، ويحاول أن يطيل فترة تناوله إلى أقصى ما يمكن، لكن جهوده باءت بالفشل، فسرعان ما اختفى اللحم أيضا. لم تبق سوى قطعة خبز. وليس لذيذا أكل الخبز بدون غموس، ولكن ما باليد حيلة، ففكر باشكا قليلا ثم أكل الخبز. وفى تلك اللحظة دخلت الممرضة بصحفتين أخريين. كان فيهما هذه المرة لحم مقلى مع البطاطس.

وسألته الممرضة:

ـ وأين خبزك؟

وبدلا من الرد نفخ باشكا أوداجه ثم زفر.

فقالت الممرضة مؤنبة:

ـ لماذا أكلته؟ فبم ستأكل اللحم المقلى الآن؟ وخرجت ثم عادت بقطعة خبز أخرى. ولم يكن باشكا قد ذاق اللحم المقلى فى حياته، وعندما تذوقه الآن وجده لذيذا جدا. واختفى اللحم بسرعة، وتبقت بعده قطعة خبز أكبر مما تبقى بعد الحساء. وعندما انتهى العجوز من غدائه وضع قطعة الخبز المتبقية فى درج الطاولة. وأراد باشكا أن يفعل مثله، ولكنه فكر قليلا ثم أكل قطعة خبزه.

وبعد أن شبع خرج ليتجول. كان فى العنبر المجاور بالإضافة إلى الاثنين اللذين رآهما عبر الباب أربعة أشخاص آخرون. ولم يجذب انتباهه سوى واحد منهم. كان فلاحا طويلا، نحيفا للغاية، بوجه مكفهر مشعر. كان جالسا على السرير يومئ برأسه ويلوح بيده اليمنى طوال

الوقت كـالبندول. وظل باشكا لا يحـول عنه بصـره طويلا. وبدت له إيماءات الفلاح البندولية المنتظمة أول الأمر هزلية، الغرض منها إثارة الضحك، ولكنه عندما حدق مليا فى وجهه أحس بالرعب، وأدرك أن هذا الفلاح مريض مرضا خطيرا. ودخل العنبر الثالث فرأى فلاحين بوجهين أحمرين قاتمين كأنما لوثا بالطين. كانا جالسين على سريريهما دون حراك، ولاحا بوجهيهما الغريبين اللذين كان من الصعب أن تميز فيهما الملامح، أشبه بصنمين من آلهة الوثنيين.

وسأل باشكا الممرضة:

ـ لماذا هما هكذا يا عمتي؟

ـ عندهما جدرى يا بنى.

وعاد باشكا إلى عنبره فجلس على السرير وأخذ ينتظر الدكتور ليذهب معه إلى صيد الحسّون أو إلى السوق. ولكن الدكتور لم يأت. وظهر الحكيم للحظة فى باب العنبر المجاور. وانحنى فوق المريض الذى كان على رأسه كيس ثلج وصاح:

ـ يا ميخايلو!

ولم يتحرك ميخايلو النائم. فأشاح الحكيم بيده وانصرف. وأخذ باشكا، فى انتظار الدكتور، يتأمل جاره العجوز. كان العجوز لا يكف عن السعال والبصق فى الكوز. وكان سعاله طويلا متحشرجا. وأعجب باشكا بشيء مميز فى العجوز: فعندما كان يسعل ويشهق، يصفر شيء ما فى صدره ويصدح بشتى النغمات.

وسأله باشكا:

ـ ما هذا الذى يصفر عندك يا جدى؟

ولم يرد العجوز بشيء. وانتظر باشكا قليلا ثم سأله:

ـ وأين الثعلب يا جدى؟

ـ أىّ ثعلب؟

ـ الحى.

ـ وأين يمكن أن يكون؟ فى الغابة!

مر زمن طويل ولم يأت الدكتور بعد. وحملت الممرضة الشاى ووبخت باشكا لأنه لم يُبق على الخبز للشاى. وجاء الحكيم مرة أخرى وأخذ يوقظ ميخايلو. ومال الجو إلى الزرقة وراء النوافذ، وأشعلت مصابيح العنابر، ولم يظهر الدكتور. أصبح الوقت متأخرا للذهاب إلى السوق أو صيد الحسون. فتمدد باشكا على السرير وأخذ يفكر. تذكر الحلوى التى وعده بها الدكتور، ووجه أمه وصوتها، والعتمة فى بيتهم والفرن والجدة يجوروفنا التى لا تكف عن التذمر.. وفجأة شعر بالسأم والحزن. وتذكر أن أمه ستأتى غدا إليه وتأخذه فابتسم وأغمض عينيه.

وأيقظه حفيف. كان هناك أحد يمشى فى العنبر المجاور ويتحدث بصوت خافت. وفى ضوء اللمبات السهّارى وقناديل الأيقونات كانت ثلاثة أشباح تتحرك بجوار سرير ميخايلو.

وقال أحدهم:

ـ هل نحمله بالسرير أم بدونه؟

ـ بدونه. لن تمر بالسرير. إيه، مات فى وقت غير مناسب، عليه الرحمة!

أمسك أحدهم ميخايلو من كتفيه والآخر من قدميه ورفعاه: وتدلت ذراعا ميخايلو وأطراف روبه بتراخ. أما الشخص الثالث ـ وكان ذلك الفلاح الذى يشبه المرأة ـ فقد رسم علامة الصليب، ثم خرج ثلاثتهم بميخايلو من العنبر وهم يدقون بأقدامهم فى اضطراب ويدوسون على أطراف روبه.

وتردد فى صدر العجوز النائم صفير وصدح متعدد النغمات. وأصاخ باشكا السمع، وتطلع إلى النوافذ المظلمة ثم قفز من السرير فى ذعر.

وتأوه بصوت غليظ.

ـ ما.. ا.. ما!..

ودون أن ينتظر ردا انفلت إلى العنبر المجاور. وهناك كان ضوء القناديل واللمبة السهّارى لا يكاد يشق الظلام. وجلس المرضى على أسرتهم مضطربين لموت ميخايلو. وظهروا بهيئاتهم المشعثة وفى اختلاطهم بالظلال أعرض وأطول وبدا كأنهم يزدادون ضخامة. وعلى آخر سرير فى الركن، حيث الظلمة أحلك، جلس ذلك الفلاح يومئ برأسه ويهز يده.

انطلق باشكا على غير هدى فاقتحم عنبر المجدورين، ومن هناك إلى الممر، ومن الممر اندفع إلى غرفة كبيرة، حيث كانت ترقد وتجلس فى الأسرة مخلوقات رهيبة بشعر طويل ووجوه عجائز. وبعد أن ركض باشكا عبر القسم النسائى وجد نفسه مرة أخرى فى الممر، ورأى حاجز السلم المعروف فانحدر إلى أسفل. وهنا عرف غرفة الاستقبال التى جلس فيها صباحا، فأخذ يبحث عن باب الخروج.

صر المزلاج، وهبت دفقة هواء بارد، فانطلق باشكا إلى الفناء وهو يتعثر. لم يكن فى ذهنه سوى فكرة واحدة: أن يهرب! ولم يكن يعرف الطريق، لكنه كان واثقا من أنه لو جرى فسيصل حتما إلى دارهم، إلى أمه. وكان الليل غائما، ولكن ضوء القمر لاح خلف السحب. وركض باشكا من المدخل إلى الأمام مباشرة، ودار حول الحظيرة فاصطدم بحرش خاو. وقف قليلا وفكر، ثم اندفع عائدا إلى المستشفى، ودار حولها، وتوقف ثانية مترددا: فمن خلف مبنى المستشفى لاحت صلبان المقابر البيضاء.

وصاح:

ـ ما . . ا . . ما!

وركض عائدا .

وبينما كان يجرى مارا بمبان مظلمة جهمة رأى نافذة مضيئة .

بدت هذه البقعة الحمراء الساطعة فى الظلام مخيفة ، ولكن باشكا الذى جن رعبا ولم يعد يدرى إلى أين يجرى ، اتجه نحوها . وكان بجوار النافذة مدخل ودرج وباب رئيسى بلوحة بيضاء . ارتقى باشكا الدرج ركضا ونظر فى النافذة فتولته فجأة فرحة واخزة غامرة . لقد رأى فى النافذة الدكتور المرح الطيب جالسا إلى المكتب يقرأ كتابا . ومد باشكا يديه نحو الوجه الأليف وهو يضحك من السعادة ، وأراد أن يصرخ ، إلا أن قوة مجهولة كتمت أنفاسه وأهوت على ساقيه ، فترنح وسقط على الدرج مغشيا عليه .

عندما أفاق كان الضوء منتشرا ، وبجواره سمع الصوت المعروف جدا ، الصوت الذى وعده أمس بالسوق والحسون والثعلب ، يقول :

ـ يا لك من أحمق يا باشكا! ألست أحمق حقا؟ تستحق الضرب . . فعلاً تستحق الضرب .

بعد المسرح

ما إن عادت نادية زيلينينا مع والدتها من المسرح، حيث شاهدتا «يفجينى أنيجين»[1] ودخلت غرفتها، حتى نزعت فستانها بسرعة وحلّت ضفيرتها، وأسرعت بالجونلة والبلوزة البيضاء فقط فجلست إلى الطاولة لتكتب خطابا كالذى كتبته تاتيانا.

وخطت: «إننى أحبك، ولكنك لا تحبنى، لا تحبنى!».

كتبت هذا وضحكت.

كان عمرها ستة عشر عاما فقط، ولم تحب أحدا بعد. وكانت تعلم أن الضابط جورنى والطالب جروزديف يحبانها، ولكنها شعرت الآن، بعد الأوبرا، برغبة فى التشكك فى ذلك الحب. أن تكون غير محبوبة وتعيسة.. ما أروع ذلك! ثمة شىء ما، حين يحب الشخص بقوة ولا يكترث به الآخر، شىء جميل، ومؤثر، وشاعرى. أنيجين ممتع لأنه لا يحب مطلقا، أما تاتيانا فهى خلابة لأنها تحب بقوة، ولو أنهما أحبا بعضهما البعض بنفس الدرجة وكانا سعيدين لأصبحا على الأرجح مملين.

«كُف عن التأكيد بأنك تحبنى ـ واصلت نادية الكتابة وهى تفكر فى الضابط جورنى ـ فأنا لا أستطيع أن أصدقك. أنت ذكى جدا، مثقف،

(١) أوبرا للموسيقار تشايكوفسكى مأخوذة عن رواية بوشكين الشعرية التى تحمل نفس الاسم. **(المعرب)**.

جاد، ولديك موهبة كبيرة، وربما كان فى انتظارك مستقبل باهر، أما أنا فلا شىء يميزنى، فتاة لا وزن لها، وأنت نفسك تعرف جيدا أننى لن أكون سوى عقبة فى حياتك. حقا أنت همت بى، وظننت أنك فى شخصى عثرت على المثال الذى تبحث عنه، لكنها كانت غلطة، والآن تسأل نفسك بيأس: ما الذى جعلنى ألتقى بهذه الفتاة؟ وطيبة قلبك فقط هى التى تمنعك من الاعتراف بذلك! . . ».

أحست نادية بالإشفاق على نفسها، فبكت ومضت تكتب:

«صعب علىَّ فراق ماما وأخى، وإلا كنت ارتديت مسوح الراهبات ومضيت أينما يمتد بى البصر. ولأصبحت أنت حرا وأحببت فتاة غيرى. آه لو كنت أموت!».

من خلال الدموع استحال تبين الكلمات المكتوبة، وتراقصت ألوان طيف قصيرة فوق الطاولة، وعلى أرضية الغرفة وعلى السقف كما لو أن نادية كانت تنظر عبر منشور. وتعذرت الكتابة فتراجعت إلى ظهر المقعد وأخذت تفكر فى جورنى.

يا إلهى، أى سحر فى الرجال، وأية جاذبية! تذكرت نادية ذلك التعبير الرائع، المتزلف والمذنب والناعم الذى يرتسم على وجه الضابط عندما يجادلونه فى الموسيقى، وأية جهود يبذلها أثناء ذلك لكيلا يرن صوته بحماسة. ففى المجتمع الذى يعتبر فيه الترفع البارد واللامبالاة دلالة على حسن التربية والأخلاق الفاضلة لابد أن تدارى حماستك. وهو يداريها. لكنه لا يوفق فى ذلك، فالجميع يعرفون جيدا أنه يهوى الموسيقى بشغف. إن المناقشات التى لا تنتهى عن الموسيقى والأحكام الجريئة لغير الفاهمين من الناس، تجعلانه فى توتر دائم فهو مفزع، خجول، وصموت. وهو يعزف على البيانو بصورة رائعة، مثل أى عازف أصيل، ولو لم يكن ضابطا لكان فى الغالب موسيقيا مشهورا.

وجفت دموعها. وتذكرت نادية أن جورنى قد صارحها بحبه فى حفل سيمفونى، ثم بعد ذلك، فى الطابق الأرضى، بجوار المشاجب، حيث هبت تيارات الهواء من جميع النواحى.

«أنا سعيدة جدا لأنك أخيرا تعرفت على الطالب جروزديف ـ مضت تكتب ـ إنه إنسان ذكى جدا ولعلك ستعجب به. كان عندنا بالأمس ومكث حتى الساعة الثانية. وقد انبهرنا به جميعا، وتأسفت أنك لم تأت، لقد حدثنا بالكثير من الأشياء الرائعة».

عقدت نادية يديها فوق الطاولة وأسندت إليهما رأسها فسقط شعرها وغطى الخطاب. وتذكرت أن الطالب جروزديف أيضا يحبها، وأن له من الحق فى رسالة منها مثلما لجورنى تماما. وبالفعل، أليس من الأفضل أن تكتب إلى جروزديف؟ وبلا أية أسباب دبت البهجة فى صدرها.. بدأت بهجة صغيرة تواثبت فى صدرها مثل كرة من المطاط، ثم صارت أعرض وأكبر وتدفقت كالموجة. ونسيت نادية جورنى، وجروزديف، واختلطت أفكارها، بينما أخذت البهجة تكبر وتكبر وتنساب من صدرها إلى ذراعيها وساقيها، وخيل إليها كأن نسمة رقيقة باردة هفت على رأسها فحركت شعرها. واهتزت كتفاها من الضحك الخافت، واهتزت الطاولة وزجاجة المصباح، وطفر الدمع من عينيها إلى الخطاب. لم يكن بوسعها أن توقف ذلك الضحك، ولكى تظهر لنفسها أنها لا تضحك بدون سبب، أسرعت تتذكر شيئا ما مضحكا.

ـ يا له من مضحك ذلك الكلب البودل! ـ تمتمت وقد شعرت أنها ستختنق من الضحك ـ ياله من مضحك ذلك البودل!

تذكرت كيف لاعب جروزديف، بعد شرب الشاى بالأمس، الكلب البودل مكسيم، ثم حكى لها عن بودل: ذكى جدا لاحق فى الفناء غرابا، فالتفت الغراب نحوه وقال:

ـ أنت يا أفاق!

ولم يكن الكلب يدرى أن أمامه غرابا مدربا، فارتبك بشدة، وتراجع فى حيرة، ثم عاد ينبح.

ـ كلا، الأفضل أن أحب جروزديف ـ قررت نادية ومزقت الرسالة.

وأخذت تفكر فى الطالب، فى حبه، وفى حبها، لكن الذى حدث أن الأفكار ساحت فى رأسها فأصبحت تفكر فى كل شىء: فى أمها، فى الشارع، فى القلم، فى البيانو.. فكرت ببهجة فوجدت أن كل شىء حسن، رائع. وأوحت إليها البهجة بأن هذا ليس كل شىء بعد، وأنه عما قريب ستكون الأمور أروع. قريبا يحل الربيع، الصيف، السفر مع والدتها إلى «جوربيكى»، وسيأتى جورنى فى فترة إجازته وسيتجول معها فى الحديقة ويحيطها باهتمامه. وسيجىء جروزديف أيضا ويلعب معها الكروكيت والكجل، ويقص عليها أشياء مضحكة أو مدهشة. وانتابتها رغبة جارفة فى أن تجد نفسها فى الحديقة، فى العتمة، تحت السماء الصافية، والنجوم. واهتزت كتفاها ثانية من الضحك، وخيل إليها أن الغرفة تعبق برائحة الشيح، وأن غصنا قد احتك بالنافذة.

مشت نحو فراشها، وجلست، ودون أن تدرى ماذا تفعل ببهجتها التى أضنتها، نظرت إلى الأيقونة المعلقة فوق ظهر سريرها وتمتمت:

ـ يا إلهى! إلهى! يا إلهى!

أنطون تشيخوف (١٨٦٠ – ١٩٠٤) بالنسبة للكثيرين من المهتمين بالأدب فى كل أنحاء العالم هو أعظم كتَّاب القصة القصيرة ورائدها الأهم. كما لايقل أهمية عن ذلك ككاتب مسرحى وروائى استطاع عبر أعماله العديدة أن يحفر اسمه في ذاكرة الإنسانية، وأن يرسخ قيماً فنية تحولت إلى مدارس ومذاهب فى الكتابة، مازالت فاعلة ومؤثرة حتى الآن..

هنا نقرأ أعمال تشيخوف بترجمة "أبو بكر يوسف" والتى تصدر فى ٤ أجزاء (الأعمال القصصية – الروايات القصيرة – الروايات – المسرحيات)، وهى الترجمة التى يحرص الكثيرون على اقتنائها كترجمة متكاملة نقلت النص بحب فخرج على درجة عالية من الحساسية اللغوية الأخاذة.

هذا هو المجلد الاول .. يضم الاعمال القصصية لتشيفوف والتي وضعته على قالمة الكتب الاكثر مبيعاً منذ بداية القرن العشرين وحتى الان .

6 221102 022996

دار الشروق
www.shorouk.com